

تاريخ المعتزلة

فكرهم وعقائدهم

دراسة فى إسهامات المعتزلة
فى الأدب العربى

دكتور فالح الربيعى

الدار الثقافية للنشر

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .
وبعد فقد كان دافعي الأول لتأليف هذا الكتاب هو أن موضوع أدب المعتزلة،
وإسهاماتهم في الأدب العربي، وانعكاسات وآثار التفكير الاعتزالي على مؤلفاتهم
ومصنفاتهم وآثارهم، يعد من المواضيع التي تشكل فراغاً كبيراً في الدراسات الأدبية
المتعلقة بالأدب العربي القديم رغم أن الكثير من المعتزلة عرفوا كأدباء كبار ومعروفين في
تاريخ الأدب العربي، ورغم أنهم لعبوا دوراً كبيراً في إغناء الدراسات الأدبية وخصوصاً
الدراسات المتعلقة بالعلوم البلاغية، وأسرار الإعجاز القرآني، وفي تطوير النثر العربي
شكلاً ومضموناً، وإدخال موضوعات وأغراض جديدة عليه، وإغنائه من ناحية الأسلوب
والمحتوى إلى آخر ذلك من خدمات جليلة دان لهم بها الأدب العربي بفضل طريقة
تفكيرهم، والثقافة الخاصة التي تميزوا بها والقائمة في الأساس على التفكير العقلي
والمنطقي والفلسفي، صحيح أن أدباء المعتزلة حظوا - كأفراد - بنصيب وافر من الاهتمام
الأدبي، إلا أن دراسة آثارهم ونتائجهم جاءت بمعزل عن بيان تأثيرات مذهبهم الاعتزالي
على هذه الآثار والنتاجات، وتسليط الأضواء على دورهم - كأشخاص اعتنقوا مذهب
الاعتزال - في إغناء وتطوير الأدب العربي، وترك لمساتهم، وبصماتهم الواضحة عليه،
أي أن الموضوع لم يطرح ولم يعالج - على حد علمنا وإطلاعنا - من وجهة النظر هذه
ولذلك فقد جاء كتابنا هذا كمحاولة لسد هذا الفراغ، وإعطاء المعتزلة حقهم من الدراسة
الأدبية لمؤلفاتهم ومصنفاتهم وما أثر عنهم من روايات، وأخبار، وأقوال تناثرت في
مصادر وكتب الأدب والتاريخ العربي .

ونظراً إلى أنه من الثابت تاريخياً أن بداية ظهور المعتزلة كمذهب مستقل له أصوله
ومبادئه وأساسه الخاصة به كانت في أوائل القرن الثاني الهجري، فقد امتدت الفترة الزمنية

التي حللتُ ودرستُ فيها أدب المعتزلة (من ناحية الأعلام والشخصيات) اعتباراً من هذه البداية وحتى القرن السابع الهجرى رغم أن الباحثين والمؤرخين يعتبرون نهاية القرن الرابع الهجرى الفترة التي أفل فيها نجم المعتزلة، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، إلا أننا وبعد أن رأينا أن وجود المعتزلة على صعيد العقيدة، والأدب، استمر - وإن كان على نطاق ضعيف ومحدود - بعد نهاية القرن المذكور وامتد حتى مرحلة متأخرة من العصر العباسى (القرن السابع الهجرى) متمثلاً فى ظهور بعض من أعلامهم البارزين على صعيد المذهب، والأدب كالزمخشري، وابن أبي الحديد، والجبائى والقاضى عبد الجبار وغيرهم ممن لعبوا دوراً كبيراً فى الأدب العربى، ومتمثلاً أيضاً فى بقاء مذهبهم مزدهراً فى شرق العراق، وإيران، وبلاد ما وراء النهر حتى بعد نكبتهم الثانية على يد أهل السنة بعد موت عضدهم، ودعامتهم الكبرى المتمثلة فى الصاحب ابن عباد وزوال الدولة البويهية فى بغداد، فقد رأينا أن من المناسب لموضوع هذا الكتاب أن نغطى فى دراستنا نتاجات وشخصيات المعتزلة بعد القرن الرابع الهجرى وحتى الفترة التى سبقت بقليل سقوط بغداد سنة (٦٧٨ هـ - ١٢٥٨ م).

إلى هذه العوامل والأسباب وغيرها، فقد رأينا أن من الأفضل والأنسب أن نتجاوز بدراستنا لأدب المعتزلة حدود الفترة الزمنية التى دأب المؤرخون والباحثون على اعتبارها الفترة التى يجب أن تتوقف عندها الدراسات المتعلقة بنشاط المعتزلة، لنوغل إلى ما بعدها من عصور امتدت إلى ما يقرب من سقوط بغداد، حيث شهدت هذه العصور ظهور بعض الشخصيات المعتزلية الكبيرة التى لم يقل دورها، وإسهاماتها فى الأدب العربى عن الشخصيات التى ظهرت قبل تلك الفترة إن لم تتفوق عليها فى بعض الحالات كما نلاحظ ذلك فيما يتعلق بالزمخشري صاحب أعظم وأغنى تفسير أدبى وبلاغى للقرآن الكريم، وابن أبي الحديد الكاتب المفلق والشاعر المجدد، ومؤلف أفضل شروح نهج البلاغة.

وبطبيعة الحال فإن اختيار موضوع كهذا يتميز بكونه جديداً وبكراً، تكتنفه الكثير من المصاعب والمشقات، فمن أولى المشاكل والصعوبات التى واجهتني، عدم وجود كتب مستقلة تناولت المعتزلة من ناحية دراسة نتاجاتهم الأدبية وبيان آثار التفكير الاعتزالى فيها، وتقصى إسهاماتهم ودورهم فى الأدب العربى، ولذلك فقد اضطررت والحالة هذه إلى أن أعتد على نفسى فى جمع واستقراء واستقصاء آثارهم، ونتاجاتهم الأدبية من الكتب والمصادر التاريخية والأدبية التى اهتمت بالترجمة لهم وذكر أخبارهم ورواياتهم وأقوالهم

والتي ذكرتها في قائمة مستقلة في نهاية الكتاب عدا الكتب الأدبية المستقلة التي وصلتنا من أدبائهم، ومن ثم تحليل تلك الآثار والتناجات وإخضاعها للبحث والدراسة على أساس الهدف الذي توخيناه من تأليف هذه الرسالة.

ومما زاد هذه المشكلة تعقيدا وتشابكا أننا اضطررنا في معظم الأحيان إلى الاعتماد على المصادر والكتب التي ذكرت أخبارهم فيها من قبل غيرهم، ذلك لأن من الثابت تاريخياً أن القسم الأكبر من مؤلفات ومصنفات المعتزلة (ومن ضمنها المؤلفات والمصنفات الأدبية) قد جاز عليها الزمن فضاعت من جملة ما ضاع من تراثنا الأدبي والفكري، وهذه المشكلة تتأكد لنا أكثر بالنسبة إلى المعتزلة خصوصاً إذا علمنا أنهم تعرضوا لنكبات وانتكاسات كثيرة من قبل أعدائهم وخصوصاً أهل السنة الذين يعتبرون الأعداء والألداء للمعتزلة، والذين - على الأرجح - لم يألوا جهداً في حرق مؤلفات المعتزلة وكتبتهم وإتلافها في الفترات التي ضعف فيها النفوذ السياسي للمعتزلة مقابل سيادة أهل السنة على صعيد السلطة والنفوذ السياسي، كما نلاحظ ذلك في عصر المتوكل الذي نكب المعتزلة وأطلق يد السنة فيهم، وكذلك بعد سقوط الدولة البويهية في بغداد.

وعلى أية حال فإن من المؤكد أن المعتزلة تركوا لنا تراثاً فكرياً، وعقيدياً، وأدبياً ضخماً خلال فترة حياتهم الطويلة (ثلاثة قرون على أقل التقادير) تحدثنا عنه الكتب والمصادر التي أرخت لهم (مثل الفهرست لابن النديم)^(١) من خلال ذكر أسماء الكتب والمصنفات التي ألصقوها، ومن خلال الإشارة إلى أن العالم، أو الأديب، أو الشاعر الفلاني منهم له مؤلفات غزيرة في هذا الفرع من المعرفة أو ذاك، إلا أننا - للأسف - نسمع بهذه المؤلفات ولا نراها، للسبب السابق الذي ذكرناه، دون أن ننفي أن هناك احتمالاً بوجود بعض النسخ الخطية لهم متفرقة في البلدان والمكتبات المختلفة لم تنلها لحد الآن يد العناية، والتحقيق التي توصلها إلى مرحلة النشر والطبع لكي يتسنى للباحثين الاستفادة منها في تسليط الأضواء على هذا الجانب الهام من الفكر الإسلامي.

ومن بين الصعوبات الأخرى التي واجهتها، هي أن معظم الكتب التي تحدثت عن المعتزلة لم تبد كبير اهتمام بدراسة الجانب الأدبي من تراثهم، بل ركزت اهتمامها على

(١) (انظر: إرجاعاتنا لهذا الكتاب في الفصل السادس من الباب الأول).

دراستهم من الناحية العقيدية، والمذهبية، والفكرية، ذلك لأن المعتزلة حظوا دائما من قبل الباحثين المسلمين، والمستشرقين، بالدراسة باعتبارهم يمثلون مدرسة فكرية وفلسفية وكلامية، كان لها الأثر الأكبر في نقل الثقافة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية، والدفاع عن الإسلام باستخدام الأساليب والقواعد العلمية والمنطقية للجدل والمناظرة، وإغناء التراث الفلسفي والعقلي للمسلمين، وهذا هو الجانب الذي يلفت النظر أكثر من غيره في نشاط المعتزلة، ولذلك فقد تركزت الدراسات على إشباع هذا الجانب دون الاهتمام بالجانب الأدبي لهم والذي لم يخضع للدراسة والتحقيق بشكل مستقل، بل طُرحَ ممزوجا بالأدب العربي ككل.

وعلى أية حال، فإن موضوع دور المعتزلة في إغناء الأدب العربي، وتوسيع موضوعاته وأغراضه، وتقصى واستقراء آثار الاعتزال فيه يعد - كما قلنا - من جملة المواضيع التي مازال يكتنفها الغموض والإبهام، والتي هي بحاجة إلى إشباع أكثر من ناحية جمع المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، وإخراجها من حالة التشتت والتبعثر في بطون المصادر التاريخية والأدبية المختلفة، ومن ثم التوفر على دراستها وتحليلها لكي يتسنى لنا من خلال ذلك إلقاء المزيد الثرى وبالأخص العوامل الفكرية والعقيدية.

وتؤكد لنا أهمية هذا الموضوع أكثر عندما نعلم أن تلك العوامل كان لها القسط الأكبر من التأثير على هذا الأدب شكلا ومضمونا اعتبارا من العصر الأموي وحتى نهاية العصر العباسي، ففي هذه الفترة اتسع نطاق الفتوح الإسلامية، واضطر العرب إلى أن يتعاملوا مع الكثير من أصحاب الحضارات، والثقافات، والديانات والمعتقدات الأخرى، ومما لاشك فيه أن التعامل الفكري والحضاري والعقيدى يشكل الجزء الأكبر من مظاهر التأثير والتأثر، ومن المسلم به - أيضا - أن الأدب شعرا كان أم نثرا كان أكثر مجالات حياة المسلمين تأثرا، واستجابة لظاهرة التفاعل تلك، فكانت النتيجة أن مارست المؤثرات الحضارية والثقافية الأجنبية تأثيرها على الجانب الأدبي من الحضارة الإسلامية وطبعته في بعض الجوانب بطابعها، فطرات على أثر ذلك تغيرات وتطورات على الأدب العربي من الناحيتين الشكلية والمضمونية تركت آثارها وبصماتها الواضحة على هذا الأدب، وجعلته يدخل مجالات جديدة، ويتأطر بأطر أخرى بما يتناسب ومتطلبات الحياة الجديدة التي دخلها العرب.

وكانت الحضارة اليونانية من بين تلك الحضارات التي امتزجت وتفاعلت مع الحضارة الإسلامية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت صاحبة القسط الأوفى والأكبر من هذا

الامتزاج والتفاعل وخصوصا في الجانب الفكري، ونقصد بالجانب الفكري هنا، أساليب وطرق التفكير والبحث العلمي والتوصل إلى النتائج من خلال الاستناد إلى المقدمات وبالطبع فإننا لا نقصد أن هذه الأساليب والطرق كانت منعدمة الوجود لدى المسلمين، بل نريد أن نقرر حقيقة أن الحضارة الإسلامية مدينة إلى الحضارة اليونانية في ظهور بعض العلوم بمفهومها العلمي الدقيق، ونقصد بالتحديد، الفلسفة، والمنطق، والكلام، والأساليب العلمية للجدل والبحث دون أن ننفي اتباع مصادرنا الإسلامية لبعض من تلك القواعد والأساليب، كما نلاحظ ذلك في القرآن الكريم، والأحاديث والسيرة النبوية الشريفة، إذ أن المواقف التي مرت بها الدعوة الإسلامية في بداية أمرها كانت تقتضى مواجهة أعدائها بما يحملونه من معتقدات وقناعات وأدلة وبراهين، ولذلك نرى في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي كانت توجه خطابها إلى أولئك الأعداء من خلال اعتماد مبدأ المناقشة والجدال لإثبات حقانية أطروحاتها المختلفة، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة النبي ﷺ ومواقفه المختلفة مع أهل الكتاب والمشركين.

ومع ذلك فإن تلك القواعد والأساليب ظلت على حالتها البدائية البسيطة البعيدة عن الإطار العلمي، والمنهجية المستقلة حتى بدأت الحضارة الإسلامية تتفاعل وتتلاقح مع الحضارات الأخرى المحيطة بها في جانبها الإيجابي، والعلمي وحيثئذ تعرف المسلمون على أساليب وقواعد جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل، أو كان لهم عهد بها ولكن بشكل غير منهجي.

ونحن نريد أن نقرر في هذا المضمون أن المتكلمين - وبالتحديد المعتزلة - كانوا السباقين في مجال تعريف المسلمين بتلك الأساليب والقواعد، فمثلوا في هذا المجال حلقة الوصل بين الحضارتين الإسلامية واليونانية من خلال دراستهم، وتمثلهم الدقيق والعميق لمعطيات اليونانيين في مجال الفلسفة والمنطق، ثم توظيفهم لهذه المعطيات في إغناء الفكر الإسلامي في جانبه العقيدى، والدفاع عنه إزاء المعتقدات، والأديان، والمذاهب الأخرى التي أصبح المسلمون يواجهونها بعد اتساع حركة الفتوح الإسلامية خصوصا إذا علمنا أن هذه المعتقدات والأديان كانت تستخدم بشكل رئيس وعلى نطاق واسع ما زخرت به حضارتها من أساليب وقواعد متطورة في النقاش والجدال.

ومما لا شك فيه أن النشاط الذي مارسه المتكلمون عموما، والمعتزلة بشكل خاص كان على صلة وثيقة بالأدب إلى درجة أن مؤرخي ونقاد الأدب قرروا أن علوم البلاغة نشأت

أول ما نشأت بين أوساط المتكلمين، وإن البذرة الأولى لهذه العلوم نمت وترعرعت بين حلقاتهم، ومجالس دروسهم، ومواقف مناظراتهم، ومجادلاتهم مع أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة، ذلك لأن علم الكلام - كما يدل على ذلك اسمه - كان يصب اهتمامه الأكبر على أساليب وقواعد المناقشة، والمناظرة والجدال الصحيحة وما يستتبعه هذا الاهتمام من عناية قصوى بفنون القول، وطرق إيراد الكلام، ومراعاة مقتضيات الحال المختلفة، ومن المعلوم أن هذه المواضيع تتصل اتصالاً وثيقاً بعلوم البلاغة وخصوصاً البيان والمعاني.

على أن تأثير المعتزلة وأهل الكلام عموماً لم يقتصر على الجانب البلاغي من الأدب العربي فحسب، بل اتسع نطاقه ليشمل الأدب العربي ككل وخصوصاً الجانب الثرى منه، أى الكتابة والتأليف، فجاء تأثير الثقافة العقلية والمنطقية التى آمنوا بها واضحاً على أعمالهم ونتائجهم، كما سنرى ذلك من خلال الشواهد، والأمثلة، والتحليلات المختلفة التى تضمنتها رسالتنا هذه، والتى استهدفت - بالدرجة الأولى - تسليط الضوء على هذا الجانب الهام، والظاهرة الملفتة للنظر فى الأدب العربى.

فلقد حاولت أن أخرج بنتيجة معقولة من هذا الكتاب من خلال الاستناد إلى المعلومات التى جمعناها فى هذا الصدد من مصادر الأدب والتاريخ، وهى : بيان وتحديد الإسهامات الأدبية للمعتزلة، وتقصى آثار الاعتزال فى آثارهم ونتائجهم وبيان ما لهذه الآثار من دور فى ازدهار ونمو وتميز أدبهم بشكل خاص، والأدب العربى بصورة عامة، للأسباب التى ذكرناها آنفاً والمتمثلة عموماً فى أن الجانب الأدبى من نشاط المعتزلة لم يحظ بالاهتمام الذى يستحقه كما حظت الجوانب الأخرى وخصوصاً العقيدية والفكرية.

وهنا أود أن أذكر أننى لا أدعى أن هذا الكتاب قد استوعب جوانب وتفاصيل وجزئيات موضوع إسهامات المعتزلة فى الأدب العربى وآثار العقيدة الاعتزالية فى أدبهم خصوصاً وأن هذا الموضوع البكر لم يسبق أن خضع للدراسة والتحليل والتقصى بشكل مستقل ومستفيض، فمن المؤكد أن هناك الكثير من الجوانب الأخرى التى تحتاج إلى إشباع أكثر من ناحية استيعاب الأمثلة والنماذج على صعيد الشخصيات والنصوص، فنحن واثقون من أن هناك نصوصاً أدبية أخرى للمعتزلة لم تتم دراستها وتحليلها فى هذه الأطروحة، كما توجد شخصيات معتزلية أخرى كان لها إسهامات من نوع ما فى الأدب العربى لم نذكرها، أو لم نتحدث عنها بشكل أكثر تفصيلاً تاركين إشباع هذه الجوانب إلى دراسة أكثر استفاضة واستيعاباً للتفاصيل ربما تمتد إلى أكثر من مجلد.

وعلى أية حال فإذا لم يكن بإمكاننا أن ندعى أن المباحث المطروحة في هذه الدراسة قد أعطت هذا الجانب الهام من جوانب الأدب العربي حقه في بيان مسيرة تطوره، والعوامل والمؤثرات التي أسهمت في إغنائه، وتوسيع موضوعاته وأغراضه، وتكييفه مع متطلبات ومقتضيات فترة ازدهار الحضارة، والفكر الإسلامي، فإننا نستطيع - على الأقل - أن نعتبر الموضوع الذي أثارته هذه الأطروحة الخطوة الأولى أو من بين الخطوات الأولى في طريق تقديم دراسات وبحوث أكثر غزارة، وأوسع نطاقاً في هذا المجال الحيوي والهام الذي من شأنه أن يسלט المزيد من الأضواء على الدور الذي أدته واحدة من أكبر وأخطر المدارس الفكرية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي ألا وهي مدرسة المعتزلة وخصوصاً في مجال الأدب الذي يعتبر المرآة التي انعكست عليها بوضوح وشفافية التطورات والتحويلات الفكرية، والثقافية التي غمرت حياة المسلمين اعتباراً من عصر صدر الإسلام، وحتى العصور الإسلامية المتأخرة.

ومهما يكن من شيء فإننا نأمل أن نكون قد أسهمنا من خلال هذا الكتاب في لفت الأذهان إلى هذا الموضوع الحيوي والهام، وأن تكون النتائج التي توصلنا إليها بشأن دور المعتزلة في الفكر الإسلامي عموماً، والأدب العربي خصوصاً فاتحة عهد لمزيد من الدراسات والبحوث على هذا الطريق من قبل الباحثين والمهتمين بدراسة القضايا والظواهر المتصلة بالأدب العربي وخصوصاً تلك المتعلقة بتشخيص وتحديد العوامل والمؤثرات الثقافية والفكرية التي قامت بدور مؤثر في تشكيله، وإلقاء ظلالها وطوابعها عليه كما هو الحال بالنسبة إلى المؤثرات الفكرية الاعتزالية التي تشكل الموضوع الرئيسي لكتابنا. وأخيراً أدعو الله أن يكون قد وفقني إلى تحقيق الأهداف والمقاصد التي كنت أرجوها من تأليف هذا الكتاب، وأن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، ونافعاً لغيري إنه نعم المولى ونعم النصير.

وأخبر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

طهران في ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠

فالم الربيعي

تاريخ المعتزلة وفكرهم وعقائدهم

مقدمة عن بداية ظهور

الاختلافات فى التاريخ الإسلامى

لا ريب فى أن الاختلافات الفكرية والعقيدية التى ظهرت بين المسلمين وبرزت بشكل واضح ليست وليدة العصر الذى بدأت تتخذ فيه طابع المذاهب والفرق، أى أنها لم تظهر دفعة واحدة، بل إن جذورها تمتد إلى فترة مبكرة من التاريخ الإسلامى، وإذا شئنا الدقة قلنا إن هذه الاختلافات بدأت بالظهور اعتباراً من وفاة النبى ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، ففى زمان حياته كان وجوده ﷺ ومبادرته إلى حل المشاكل التى قد تنجم بين المسلمين، وسد الفراغ وحل الإشكالات الفكرية والعقيدية التى قد تتبادر إلى أذهانهم، أضف إلى ذلك نزول الآيات القرآنية وتسليم المسلمين بحكمها، وانشغالهم بمهمة نشر الدعوة الإسلامية، كل ذلك وغيره كان يحول دون ظهور أى اختلاف فكرى أو عقائدى بين المسلمين، بل لم يكن هناك أى داع أصلاً للاختلاف.

وفى الحقيقة فإن الاختلاف بدأ بالبروز بعد وفاة النبى ﷺ مباشرة وبالتحديد حول مسألة الخلافة، أى تحديد من هو الأحق بأن يخلف رسول الله ﷺ فى قيادة المسلمين، وإدارة شئونهم، فظهرت على ذلك أهم الفرق الإسلامية فى القرن الهجرى الأول وهى الخوارج، والشيعة، والمرجئة^(١).

وبذلك فقد كانت مسألة الإمامة والخلافة هى المحور الذى دارت حوله الخلافات بين المسلمين، كما يشير إلى ذلك الشهر ستانى فى قوله: (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سئل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سئل على الإمامة)^(٢).

(١) فجر الإسلام .

(٢) الملل والنحل ج١ . وللتنوع فى معرفة قصة خلاف المسلمين حول خلافة رسول الله ﷺ ومرافق ذلك من أحداث يراجع تاريخ الطبرى ج٢، والكامل لابن الأثير ج٢، والملل والنحل للشهر ستانى ج١، والفرق بين الفرق للبغدادى .

• الأحزاب التي تمخضت عنها الاختلافات:

• الشيعة:

وهو الحزب الذي يضم المواليين لأهل البيت رضى الله عنهم، وفي مقدمته الإمام على عليه السلام وذريته من فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

ويمكننا استناداً إلى الشواهد والقرائن التاريخية أن نقرر أن الحزب الشيعى يعد أول حزب سياسى وفكرى ظهر فى الإسلام^(١) ، ويميل إلى هذا الرأى أيضاً الأستاذ (أحمد أمين) حيث قال فى معرض حديثه عن نشوء الأحزاب السياسية فى الإسلام فى كتابه (فجر الإسلام):

(وكانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه)^(٢) .

وذهب إلى هذا الرأى أيضاً الأستاذ (ماكدونالد) حيث أشار إلى ظهور أربعة أحزاب أثناء حادثة السقيفة ذكر منها الشيعة^(٣) .

• الخوارج:

ويعتبر هذا الحزب من ضمن الأحزاب التي ظهرت فى مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامى بعد الحزب الشيعى ، وكانت حادثة التحكيم فى حرب صفين بين الإمام على عليه السلام ومعاوية هى العامل الأول لظهور هذا الحزب^(٤) .

وعلى ما تذكر المصادر التاريخية فإن السبب المباشر لظهور هذا الحزب هو اضطرار على عليه السلام أخيراً إلى القبول بمبدأ التحكيم بينه وبين معاوية بعد أن كاد جيش على يحقق الانتصار على جيش معاوية فى وقعة صفين المعروفة ، إلا أن خدعة التحكيم التي لجأ إليها معاوية لكي ينقذ نفسه من الاندحار الأكيد ، ورفع له شعار (حسبنا كتاب الله) واستغلاله لسذاجة البعض من الذين أيدوا فكرة التحكيم ، كل هذه العوامل وغيرها اضطرت أمير المؤمنين إلى القبول بهذا الاقتراح مكرهاً على أثر الضغوط التي واجهها فى هذا المجال ، فما كان من

(١) انظر : مختصر تاريخ الشيعة .

(٢) كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين .

(٣) انظر : Mae Doneeld, Development of Muslim The Theology ology p. 8-10

(٤) انظر : وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج٢ ، وتاريخ أبى الفدا ، وتاريخ الطبرى ج ٥ .

بعض من أصحابه وجنوده إلا أن أعلنوا رفضهم لهذه الفكرة، فانشقوا على الإمام على وكان عددهم يبلغ اثني عشر ألفاً معلنين احتجاجهم عليه لقبوله فكرة التحكيم بعد أن أوشكوا أن يلحقوا الهزيمة بجيش معاوية، ويتصرفوا للمبدأ الذي آمنوا به^(١).

• مبادئ ونظريات الخوارج:

ورغم أن الخوارج انقسموا فيما بعد إلى فرق كثيرة، إلا أنهم اتفقوا على ثلاثة مبادئ ونظريات رئيسية آمنوا بها وميزتهم عن غيرهم من الأحزاب، وهي:

١ - الحكم على الأئمة والخلفاء وأعمالهم.

٢ - وجوب الخروج على السلطان الجائر.

٣ - أن الخلافة ليست حكراً على عشيرة أو طائفة معينة، بل إن أمرها يخضع لاختيار المسلمين، وأن الشخص الذي يقع عليه الاختيار هو خليفة المسلمين وإن كان عبداً حبشياً (متأثرين في ذلك بمبدأ الشورى)، وليس من حقه أن يتنازل عن الخلافة، وعليه أن يطبق الأوامر والأحكام الإلهية بحذافيرها، وإلا وجب عزله^(٢).

هذا من الناحية السياسية ونظام الحكم، أما من الناحية العقيدية والتي لم تكن منفصلة بحال من الأحوال عن الناحية السياسية، فقد كان الخوارج يرون فيما يتعلق بمهية الإيمان والكفر والتي تعتبر أهم قضية عقيدية أثرت بعد الفتن الكبرى التي حدثت بعد مقتل عثمان، وحادثة التحكيم وأدت بشكل مباشر إلى ظهور الفرق ذات الطابع الفكري والعقدي كالمرجئة والمعتزلة، كان الخوارج يرون أن العمل جزء من الإيمان، فالإنسان **الدين**، ينطق بالشهادتين ثم لا يؤدي فرائض الإسلام من حج وصوم وزكاة وصلاة كافر ولا **يؤمن** له نطقه بالشهادتين، كما اتفق رأيهم على تكفير مرتكب الكبيرة.

• المرجئة:

ويمثلون الفرقة التي وقفت موقفاً وسطاً بين الشيعة الذين رأوا أن الخلافة والإمامة حق شرعي معين من قبل الله - تعالى - ورسوله ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام وأبنائه من **الطائفة**، وأن من نازعهم في هذا الحق وسلبه منهم ظالم وبين الخوارج الذين كفروا علياً

(١) راجع الملل والنحل ج ١ ص ١١٤ - ١١٥، فجر الإسلام ص ٢٥٦.

(٢) الظفر: فجر الإسلام ص ٢٥٧، وانظر أيضاً: الفرق بين الفرق ص ٥٥.

عنه، وعثمان، ومعاوية، وذهبوا مذهباً متطرفاً في الحكم على مرتكب الكبيرة ومن لم يجسد الإيمان في عمله فحكموا بكفره .

وقد أجاد ابن عساكر في تاريخه تلخيص فكرة المرجئة والعوامل التي أدت إلى ظهورهم في قوله :

(هم الشكاك الذين شكوا، وكانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف، قالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف، وقد منا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول: قُتل عثمان مظلوماً وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول: كان على أولى بالحق وأصحابه، كلهم ثقة، وكلهم عندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما)^(١).

وبذلك فقد كان ظهور المرجئة بمثابة صدى للاختلافات السياسية والعقيدية بين المسلمين بعد الفتن التي عصفت بالكيان الإسلامي عقب مقتل عثمان، فقد فضّل أصحاب هذه الفرقة أن يتخذوا موقفاً وسطاً بين المختلفين وهو إرجاء أمر الناس إلى أصحاب هذه الفرقة أن يتخذوا موقفاً وسطاً بين المختلفين وهو إرجاء أمر الناس إلى يوم القيامة، وترك الحكم عليهم لله وحده دون تخطئة فريق من المسلمين وتصويب فريق آخر، والحكم بكفر طائفة منهم دون طائفة أخرى، ومن هنا سموا بـ (المرجئة)، أي الذين قالوا بإرجاء أمر الناس إلى الله تعالى .

وعلى ضوء ذلك، فقد اتفق معظم المرجئة من الناحية العقيدية - على أن حقيقة الإيمان هي الاعتقاد القلبي، والمعرفة بالله ورسوله، وأن أعمال الجوارح الظاهرة ليست جزءاً من الإيمان، فمن اعتقد بقلبه وصدق فهو مؤمن، ولا يضر إيمانه ما يُقارَف من معاصٍ أو يرتكب من كبائر كما لا تنفع مع الكفر طاعة^(٢) .

وقد لخص شاعرهم (ثابت قطنة) مبادئهم ومعتقداتهم خير تلخيص في قوله :

يا هندُ فاستمعي لي إن سيرتنا

أن نعبد الله لم نشرك به أحداً

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٢٠ ص ٥٧٧ .

(٢) انظر: الملل والنحل ج ١ ص ١٣٩ وما بعدها، ومقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٩٧ .

نرجى الأمور إذا كانت مشبّهة
 ونصدق القول فيمن جار أو عنداً^(١)
 المسلمون على الإسلام كلهم
 والمشركون استووا في دينهم قدداً^(٢)
 ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً
 من الناس شركاً إذا ما وحّد الصمدا
 لانسفك الدم إلا أن يراد بنا
 سفكُ الدماء طريقاً واحداً جدداً^(٣)

وهكذا مهدت تلك الاختلافات، وتلك الأحزاب التي ظهرت على أثر هذه الاختلافات الأرضية لظهور الفرق، والمذاهب، والتيارات، والاتجاهات الفكرية المختلفة في الفكر والعقيدة الإسلامية، وكان مذهب الاعتزال الذي يعتبر من أكبر وأضخم المذاهب الفكرية والفلسفية الإسلامية التي عرفها التاريخ الإسلامي، من بين تلك المذاهب التي نشأت وترعرعت في ظل تلك البيئة المشحونة بالاختلاف في المبادئ ووجهات النظر، كما سنرى فيما بعد.

(١) شبهة : ملتبسة ومختلطة .

(٢) البدة : الفرقة من الناس تختلف أهواؤهم .

(٣) الأمانى ج ١٣ ص ٥٠ (يوجد النص الكامل للقصيدة في هذا المصدر) . والجدد : جمع أجداد : الأرض الملقطة السنوية ، يريد ليقول : إن صراطنا مستقيم مستو .

نشأة المعتزلة

بالإضافة إلى الاختلافات السياسية والعقيدية بشأن تعيين الأصلح لتولى منصب الخلافة، والتي ظهرت بعد وفاة النبي ﷺ والتي ذكرنا فيها أنها هيأت الأرضية لبروز الاختلاف العقيدى، والسياسى بين المسلمين الذى أدى فى النهاية إلى ظهور المذاهب، والتيارات الفكرية المختلفة وخصوصاً فى العصور الإسلامية التى تلت عصر صدر الإسلام، وعصر الخلفاء الراشدين، بالإضافة إلى كل ذلك فإن هناك حادثة تاريخية شهيرة ذكرها أغلب المؤرخين كنقطة انطلاق لظهور حركة الاعتزال كمذهب مستقل له مبادئه وأسسها الخاصة به، وقد نقل هذه الحادثة أكثر من مؤرخ ومنهم صاحب الملل والنحل الذى روى قائلاً^(١) :

(دخل واحدٌ على الحسن البصرى، فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج بها عن الملة وهم وعبيدة الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة).

وفى هذه الرواية دلالة واضحة على ما ذهبنا إليه فيما سبق من أن (الاعتزال) لم يظهر مباشرة ودوناً مقدمات بل نتيجة لتفاعلاً عواماً عديدة تقف فى مقدمتها الاختلافات السياسية والفكرية بشأن قضية تعيين الخليفة الشرعى للأمة وما تمخض عن ذلك من فتن عصفت بكيان المسلمين، وخلطت الحق بالباطل، فظهرت نتيجة لذلك مذاهب وارات حاول أصحابها من خلالها تحديد الموقف الصحيح إزاء تلك الفتن والملابسات، كان ضمنهم الخوارج، والمرجئة اللذين أشرنا إليهما فيما سبق، ثم المعتزلة الذين أثروا

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٤٨ وما بعدها.

-ممثلين في واصل بن عطاء - أن يتخذوا موقفاً وسطاً بين الفريقين السابقين فقالوا بالمنزلة بين المنزلتين^(١) .

وفيما يتعلق بتحديد التاريخ الدقيق الذي ظهرت فيه حركة الاعتزال لكي يتسنى لنا دراسة الأوضاع والظروف المختلفة (وخصوصاً ما يتعلق منها بالفكر) التي سادت الفترة الزمنية التي نشطت فيها حركة الاعتزال، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يكادون يتفقون على أن حركة الاعتزال نشأت بمفهومها العلمي الدقيق اعتباراً من بداية القرن الثاني الهجري كما أشار إليه ذلك المفريزي^(٢) إذ أنه قد ر أن المعتزلة ظهر و بعد المائة الأولى من الهجرة في زمن الحسن البصري، وأكد ذلك أيضاً (هاملتون) في دائرة المعارف الإسلامية، إذ قال إن مدرسة المعتزلة بدأت بمواطنيين من البصرة هما واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وكانت فترة نشاطهما أثناء خلافة هشام وخلفائه الامويين، أي من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ١٣١هـ^(٣) .

وأما بالنسبة إلى المكان الذي انطلقت منه حركة الاعتزال فهو بلا شك (البصرة) نظراً إلى أن تلك الحادثة التي رويتها كان وقوعها في مدينة البصرة، كما أكدت ذلك المصادر التي روتها، ونظراً إلى أن الحسن البصري، وواصل كان مركز نشاطهما البصرة.

وأما بالنسبة إلى سبب تسميتهم بالمعتزلة، فإن الرأي التقليدي الشائع في هذا المجال والذي رده أغلب المؤرخين هو أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا أصحاب الرأيين اللذين كانا سائدين بشأن حكم مرتكب الكبيرة فاعتزلوا أو استقلوا عنهم بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، أو لاعتزالهم أستاذهم الحسن البصري واستقلالهم عنه بالرأي .
يقول المسعودي في هذا الصدد:

فسموا معتزلة، وسمى مذهبهم بالاعتزال لقولهم بالمنزلة بين المنزلين - وهو الأصل الرابع = وهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقاً على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه، وبهذا الباب سميت المعتزلة وهو الاعتزال، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام مع ما تقدم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار^(٤) .

(١) الظفر : Hamilton. A. R. Mohammedanism P. 88

(٢) مختلط المفريزي ج ٤ .

(٣) Shorter. Ineyclo Peadia of Islam. P. 422

(٤) مروج الذهب ج ٣ (طبعة إيران) .

وبالطبع فإن هناك آراء أخرى وردت حول سبب تسميتهم بهذا الاسم وما يتعلق بهذه التسمية مثل نشأتها، ومن الذين أطلق عليهم هذه التسمية، وهل هناك تسميات أخرى لهم^(١).

أثر المعتزلة في الفكر الإسلامي بصورة عامة

لا يمكن لأحد أن ينكر أثر المعتزلة ودورهم الإيجابي الفاعل في تحرير الفكر الإسلامي من حالة الجمود على النص، واتباع الأساليب التقليدية في النقاش والحوار، والاكتفاء بالنصوص القرآنية والأحاديث وحدها في الرد على معارضي الفكر الإسلامي من مشككين، وزنادقة وملاحدة، وأصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى الغربية عن روح الدين الإسلامي ومبادئه، والذين كان المجتمع الإسلامي يعج بهم أثناء فترة الحكم العباسي نتيجة لاختلاط المجتمع الإسلامي بعناصر عديدة من الأمم والشعوب الأخرى التي حملت معها معتقداتها، ومبادئها، وأفكارها، ونشاط حركة الترجمة من تراث تلك الأمم والشعوب.

وإلى ذلك لم يكن التفكير السني السلفي وحده كافياً بأساليبه التقليدية، وبنزعتة الميالة إلى التهرب من الجدل والحوار، والاستعانة بالأساليب العقلية والمنطقية، والفلسفية التي دخلت المجتمع الإسلامي من الثقافات والحضارات الأخرى.

ويروى في هذا المجال أن أحمد بن حنبل قال للخليفة حين نوقش في مسألة خلق القرآن وسدت المذاهب عليه: (أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أقول بها)^(٢)، كما كان الشافعي يقول: (إذا وجدتم السنة فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى أحد)^(٣).

(١) وإذا أراد الفارئ أن يتوسع في هذا الموضوع فليراجع كتباً مثل خطط المفريزي، والملل والنحل، والمنية والأمل، والانتصار، وفجر الإسلام. والمعتزلة لزهدي جاز الله، والتراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (ص ١٧٣-١٩٨) البحث الخاص بالمعتزلة الذي كتبه المستشرق (نيبو) في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) مناقب الإمام أحمد.

(٣) الصواعق المرسله ج ٢.

• دور المعتزلة في التوفيق بين السنة والعقل:

وهنا بالذات برز دور المعتزلة الكبير في التوفيق بين السنة والعقل ، وبين الفكر الإسلامى الأصيل وبين المعطيات الفكرية للثقافات والحضارات الأخرى وخصوصاً الحضارة اليونانية الهيلينية ، فلقد اكتشفوا أن الطريق الأمثل للدفاع عن المعتقدات الإسلامية إزاء أصحاب المعتقدات الأخرى الذين كانوا يحاولون دوماً النيل من تلك المعتقدات ، هو الاطلاع على الأساليب العقلية ، والمنطقية ، والكلامية ، والفلسفية التى تتبعها تلك الثقافات والحضارات فى إثبات صحة أسسها ومبادئها ، وتمثل تلك الأساليب وتوظيفها فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وتقديمها فى صورة مقبولة ومقنعة إلى حملة المعتقدات والديانات الأخرى^(١) .

• جهاد المعتزلة فى نشر العقيدة الإسلامية:

وتروى لنا كتب التاريخ صوراً كثيرة عن جهاد المعتزلة فى نشر العقيدة الإسلامية من خلال استخدام نفس السلاح الفلسفى والمنطقى الذى كان يتسلح به أعداء الدين الإسلامى آنذاك من الزنادقة والملحدون ، ويروى فى هذا الصدد أن أبا الهذيل العلاف كان من أشد رجال المعتزلة صلابة عود وقوة حجة ، وكان من أكثرهم دأباً للرد على المعاندين ، ومناظرة المخالفين ، فقد روى عنه أنه ألف ستين كتاباً يبطل فيها حججهم ، ويفند أقاويلهم^(٢) ، وأنه ألزم الحجة يهودياً قدم إلى البصرة فناظر طائفة من مشايخ المتكلمين فيها فقطعهم وأفحمهم^(٣) ، وشهد له صالح بن عبد القدوس والزناديق الثنوى المعروف بالبراعة ، وقوة الحجة حينما ناظره وقطعه ، فقال فى حقه :

أبا الهذيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى مفصلٌ جدل^(٤)

وهكذا كان الحال بالنسبة إلى زعماء المعتزلة الآخرين ، مثل وأصل بن عطاء ، وثمامة بن أفرس ، وبشر بن المعتمر ، والجاحظ ، والنظام وغيرهم^(٥) .

(١) (الظفر) (Hamilton. A. R. Mohammedanism).

(٢) الملية والأمل .

(٣) أ.أ.الى المرتضى ج ١ .

(٤) الملية والأمل ، المفصل : يفصل بين الحق والباطل بمنطقه وبيانه ، حذب : متمكن من الجدل .

(٥) راجع فى هذا المجال الملية والأمل ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ .

• خدمات المعتزلة للفكر الإسلامى :

وبذلك يمكننا أن نلخص الخدمات التى قدّمها المعتزلة إلى الفكر والحضارة الإسلامية والتأثيرات التى تركوها فيها فى النقاط التالية:

١ - إنهم أسهموا بشكل فاعل فى نقل التراث والثقافة اليونانية فى جانبها الفلسفى والعقلى إلى الحضارة الإسلامية، وذلك من خلال اطلاعهم على تلك الثقافة، وتمثلهم لمعطياتها العقلية والفلسفية^(١).

٢ - وبذلك فقد كان لهم الفضل الأكبر فى الجمع بين الدين والفلسفة فى حين كان يبدو أن من المستحيل الجمع بينهما وخصوصاً من وجهة نظر أهل السنة الذين كانوا يرون فى النزعة الفلسفية نوعاً من الزندقة والإلحاد والخروج عن قواعد الدين.

٣ - وبفضل تسلّح المعتزلة بسلاح الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وأساليب الجدل والمناظرة فإنهم قد أدوا دوراً كبيراً وبارزاً فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء المعتقدات والديانات الأخرى السماوية المحرّفة منها كالسيحية واليهودية، والمشرّكة والإلحادية كالمجوسية، والثنوية، والمانوية، وقد تمثّل هذا الدور إما فى مناقشة وإبطال حجج أصحاب تلك المعتقدات والديانات أو فى دعوة غير المسلمين الطالبين للحقيقة إلى الإيمان بالعقيدة الإسلامية.

٤ - وأخيراً، فقد أرسى المعتزلة دعائم حركة عقلية واسعة كان لها أكبر الأثر فى صياغة الحضارة الإسلامية، نظراً إلى أن مذهبهم كان يقوم فى الأساس على احترام العقل وتمجيده، والتعويل عليه فى استنباط واستنتاج الكثير من الأحكام الشرعية من جهة، وأساليب التفكير السليم من جهة أخرى^(٢).

يقول جولد تسيهر (Goldzher) فى هذا الصدد : (نحن لا نستطيع نكران أنه كان لنشاط المعتزلة نتيجة نافعة، فقد ساعدوا فى جعل العقل ذا قيمة حتى فى مسألة الإيمان، وهذا هو الفضل الذى لا يجحد والذى له اعتباره وقيّمته، والذى جعل لهم مكاناً فى تاريخ الدين والثقافة الإسلامية)^(٣).

٥ - وعلى أثر اعتماد المعتزلة على العقل كمرجع أساس فى استنباطاتهم، وتقريراتهم،

(١) راجع شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ، والبخلاء - المقدمة.

(٢) راجع الفصل الذى عقدهاه للحديث عن أصول مذهب الاعتزال.

(٣) العقيدة والشرعية فى الإسلام - جولد تسيهر - ترجمة حسن عبدالقادر وآخرين.

ونتيجة لعدم جمودهم على النصوص ، وتعبدهم بها بشكل مبالغ فيه ، فقد لعبوا دوراً كبيراً في إشاعة أجواء حرية التفكير ، والعقل ، ونحن نلاحظ هذا الاتجاه بشكل واضح في عصر المأمون ، وفي القرن الرابع الهجري .

وقد بلغت هذه النهضة العقلية الجديدة التي أرسى المعتزلة دعائمها حداً من العمق والتأثير والاتساع بحيث إنها تركت آثارها حتى على أهل السنة أنفسهم^(١) ، وقد تجلّى هذا التأثير بشكل خاص لدى الأشاعرة رغم عدائهم للمعتزلة ، وحرابهم الفكرية ضدّهم والقسام الكثير من أهل السنة إلى صفوفهم ، فقد آمنوا مع المعتزلة بأن البرهان المؤسس على العناصر الثقلية لا يعطينا أيّ يقين^(٢) ، وكانوا في بحوثهم الكلامية متأثرين بالمعتزلة إلى حدّ كبير^(٣) .

تطور المعتزلة في القرنين الثاني والثالث

سبق وأن قررنا أن نشأة المعتزلة كانت في بداية القرن الثاني الهجري ، وهنا نقرّر أن حياة هذه الفرقة من المسلمين استمرت مع شيء من التقلبات ، قوة وضعفاً ، حتى نصل إلى القرن الرابع الهجري ، حيث بلغوا ذروة تطوّرهم وازدهارهم وانتشار مذهبهم وخصوصاً في عصر المأمون (١٧٠-٢١٨هـ) حيث أصبح مذهبهم المذهب الرسمي للدولة كما ستأتي الإشارة إلى ذلك في الفصل الذي عقدهناه لدراسة تطوّر حركتهم في القرن الرابع الهجري^(٣) .

وبصير عامّة يمكننا القول إن المعتزلة لم يكونوا على وئام تام مع السلطة أثناء العصر الأموي ، ولذلك فإن مذهبهم لم يكتب له كبير انتشار وتوسيع في هذا العصر فكان حالهم في ذلك كحال سائر المذاهب الإسلامية الأخرى ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة التي انتعش فيها مذهبهم وشهد فيها بعض التطور والمكنة نتيجة لبعض المحاولات الفردية التي كانت نتيجتها عقد بعض العلاقات الودية مع بعض الخلفاء الأمويين ، وهو ما كان يسعى إليه دوماً زعماء المعتزلة لكي يضمّنوا لمذهبهم الانتشار والتمكّن .

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام .

(٢) النظر : المعتزلة زهدى جار الله .

(٣) النظر : تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ج٤ ، وأيضاً : تاريخ العرب لفيليب حتى ، وأيضاً : نيكلسون ترجمة د . صفاء خلوصي .

ومن أولئك الخلفاء الأمويين الذين جمعتهم علاقات ودية مع المعتزلة إلى حد اعتناق آرائهم الوليد بن يزيد (٨٨-١٢٦هـ)^(١) ، ومروان بن محمد (٧٢-١٣٢هـ) آخر الخلفاء الأمويين الذي قبل إنه كان تلميذاً لأحد أعلام المعتزلة وهو (المجدد بن درهم) وإنه كان يذهب مذهبه في القول بخلق القرآن^(٢) .

ومع ذلك فإن مسيرة التطور الحقيقي الذي كان من نصيب المعتزلة في التاريخ الإسلامي لم تكن إلا مع بداية العصر العباسي (١٣٢هـ) ، حيث كانت الحكومة العباسية - كما نعلم - منفتحة أكثر من الحكم الأموي من الناحيتين السياسية والفكرية ؛ فمن الناحية السياسية أشرك الخلفاء العباسيون في الحكم العناصر غير العربية وخصوصاً الفرس فولوهم بعض المناصب في الحكم ، ومن الناحية الفكرية فسح العباسيون المجال للمذاهب والفرق الإسلامية وغير الإسلامية المختلفة لأن تمارس نشاطاتها ، وتدعو إلى مبادئها وأفكارها كما رأينا فيما سبق .

مثل هذه الأجواء المنفتحة ، والتي يسودها شيء من الحرية النسبية هيأت الأرضية المناسبة لتطور المعتزلة من خلال ممارستهم لنشاطاتهم الفكرية المتمثلة في التأليف ، والمناظرات ، والمجادلات ، والنقاشات على أوسع نطاق .

وتروى لنا الكتب التي أرخت للمعتزلة في هذه الفترة - أي الفترة التي سبقت القرن الرابع الهجري وعصر المأمون (١٧٠-٢١٨هـ) - أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يقربون إليهم علماء المعتزلة وزعماءهم . مثل أبي جعفر المنصور الذي عُرف عنه أنه اتخذ من عمرو ابن عبيد صديقاً حميماً له ، فكان يطلب منه الموعدة ويستزيده منها^(٣) ، وهكذا الحال بالنسبة إلى (هارون الرشيد) الذي روى عنه انه كان يقرب رجال المعتزلة ، ويولى بعضهم مناصب رفيعة في الدولة^(٤) .

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ، (سنة خمس وعشرين ومائة) .

(٢) سرح العيون .

(٣) أمالي المرتضى ج ١ .

(٤) انظر : ميزان الاعتدال للذهبي .

المعتزلة في القرن الرابع الهجري

بعد ذلك الانكماش والانحسار اللذين فرضا على مذهب المعتزلة أثناء فترة حكم المتوكل ، دبت الحياة مرة أخرى إلى هذا المذهب مع حلول القرن الرابع الهجري رغم أنه لم يستطع أن يبلغ سابق ما بلغه من نفوذ سياسي وازدهار وانتشار على غرار ذلك النفوذ الذي حظى به طيلة مدة حكم المأمون وولديه المعتصم والواثق (١٧٠-٢٣٢هـ).

ومع ذلك فإن المعتزلة استطاعوا أن يستعيدوا شيئاً من أمجادهم السابقة وذلك من خلال اتباعهم لأسلوب ذكي تمثل في استمالة السلطة الحاكمة المتمثلة آنذاك في حكومة بني بويه الشيعية عبر الاتحاد مع الشيعة^(١) ، وقد كان هدفهم من الائتلاف مع الشيعة استمالة الحكام البويهيين أولاً لكي يضمّنوا لأنفسهم النفوذ السياسي ووقوف الدولة إلى جانبهم ، وتقوية وتعزيز جبهتهم أمام أهل السنة^(٢) .

وبالفعل فقد استطاع المعتزلة من خلال اتباعهم لهذا الأسلوب أن ينشروا مذهبهم في مناطق واسعة من العالم الإسلامي منها العراق ، وخراسان وما وراء النهر^(٣) ، كما اعتنق فريق من مشاهير الفقهاء هذا المذهب^(٤) .

• المعتزلة في عهد الصاحب بن عباد (٣٢٦-٣٨٥هـ)^(٥) :

لعب الصاحب بن عباد في تاريخ المعتزلة دوراً يشبه إلى حد كبير الدور الذي سبق وأن أداه المأمون ، والمعتصم ، والواثق في دعم مذهب الاعتزالي ، والتحمس في الدفاع عنه ، وفرصة هلى الخاصة والعامة من المسلمين .

كان الصاحب بن عباد يعمل وزيراً لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدين البويهى ، ومن خلال دعمه لمذهب المعتزلة استطاع أن يعيد لهم قدراً من هيبتهم ونفوذهم وسلطانهم الذي كان لهم أيام المأمون وولديه ، خصوصاً وأنه كان صاحب قوة عظيمة ، ونفوذ شديد لدى الدولة البويهية^(٥) .

(١) النظر : المعتزلة لزهدي جاز الله ، وخطط المقرئى ج٤ .

(٢) النظر : خطط المقرئى ج٤ ، والصواعق المرسله ج٢ .

(٣) للإطلاع على مدى الانتشار والنفوذ الذى أصابه المعتزلة فى القرن الرابع ، يراجع كتاب شمس الدين المقدسى (أحسن التفاضيل فى معرفة الأقاليم) . وأيضاً ميزان الاعتدال ج٢ . وطبقات الشافعية للسبكي ج٣ .

(٤) يراجع ترجمته فى معجم الأدياء ج٦ .

(٥) النظر / معجم الأدياء ج٦ .

وقد أورد ياقوت في معجمه الكثير من أخبار الصحاب بن عبّاد بشأن نصرته لمذهب الاعتزال، وحرصه على نشر أفكارهم ومبادئهم، وحمله الناس على الإيمان بهذا المذهب لكي ينالوا القرب والحظوة لديه، حيث يحدثنا ياقوت قائلاً:

(جدّ الصحاب في نشر الاعتزال والدعوة له بكل وسيلة ممكنة، فقد كان يعقد المجالس في حضرته ويسأل الناس رأيهم في القرآن: أمخلوق هو أم غير مخلوق، وتجرى بينهم وبينه مناظرات في ذلك، فإن استجابوا لرأيه فقد نالوا الحظوة عنده ونعموا بما لديه . . . وأن الناس قد دخلوا في مذهب ابن عبّاد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه، وإن لم يستجيبوا فلهم منه الويل والثبور . . .) (١).

ويروى ياقوت أيضاً أن الناس اجتمعوا يوماً في مجلس الصحاب وكان بينهم رجل من أعداء المعتزلة يسمى الزعفراني، فنظر إليه ابن عبّاد وقال: (أيها الشيخ سرّني بقاؤك، وساءني عناؤك ولقد بلغني عدوّاؤك) (٢)، وما خيله إليك خيلاؤك، وأرجو ألا أعيش حتى يُردّ عليك غلواؤك (٣)، ما كان عندي أنك تقدم على ما أقدمت عليه، وتنتهي في عدوانك لأهل العدل والتوحيد إلى ما انتهيت إليه، ولي معك إن شاء الله نهارٌ له ليلٌ، وليلٌ يتبعه ليلٌ، وثبورٌ (٤) يتصل به ويل، وقطرٌ يدفع ومعه سيلٌ (٥) وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار، فقال له الزعفراني: حسبنا الله ونعم الوكيل (٦).

وكما هو معلوم فإن الصحاب بن عبّاد نفسه يعد أحد الأدباء والشعراء، والكتاب المعروفين في القرن الرابع الهجري، ولذلك فقد اعتبرناه في كتابنا هذا أحد أدباء المعتزلة وسيكون لنا عنه حديث مستقل في الباب الذي خصصناه لترجمة أعلام وشخصيات المعتزلة.

ويبدو أن فترة الرخاء التي نعم بها المعتزلة بعد انحسار نفوذهم كانت قصيرة جداً، وأنها كانت مرتبطة بفترة حياة الصحاب بن عبّاد، ففي أخريات القرن الرابع الهجري (سنة

(١) معجم الأدباء ج٦ .

(٢) العدواء : العداوة .

(٣) الغلواء : المغالاة والغلو، الخيلاء : الغرور والتبختر .

(٤) الثبور : الهلاك والويل والحزن .

(٥) القطر : المطر .

(٦) معجم الأدباء، ج٦ .

٣٨٥) توفي الصاحب ليتعرض المعتزلة مرة أخرى لنفس النكبة التي كانوا تعرضوا لها أيام حكم المتوكل ، بسبب تنكر فخر الدولة^(١) .

ويبدو أن هذه النكبة التي تعرض لها المعتزلة كانت بمثابة الضربة شبه القاضية لحركتهم التي سادت ساحة التفكير الإسلامي لما يقرب من ثلاثة قرون (عدا فترة حكم المتوكل ٢٠٦-٢٤٧هـ) فلم تقم لهم قائمة يعتد بها بعد ذلك على الصعيد السياسي رغم المحاولات الكبيرة التي بذلوها نظراً إلى رجحان كفة الحزب السني سياسياً منذ ذلك الوقت فصاعداً بعد حكم البويهيين ، وضعف وتلاشي الائتلاف الشيعي المعتزلي .

المعتزلة في عصر المأمون ١٧٠-٢١٨هـ

صادف المذهب الاعتزالي القائم على العقل والفلسفة ، والجدل ، والمناظرة ، هوى في نفس الخليفة العباسي المأمون الذي كان شغوفاً بالفلسفة ، محباً للمجادلات والمناظرات ، محمداً للعقل^(٢) ، ومثل هذا التطابق بين وجهات نظره وميوله ، وبين أفكار المعتزلة ومبادئهم دفعه إلى أن لا يتردد في اعتناق مذهبهم ، وتبني آرائهم ، والتحمس في الدفاع عنها ، وجعلها المذهب الرسمي للدولة ، وتأتى عقيدة القول بخلق القرآن في مقدمة العقائد التي آمن بها المأمون ، وتحمس في الدفاع عنها ، وحرص على فرضها على جميع القضاة والفقهاء إلى درجة أنه أنشأ مجلساً قضائياً عرف باسم (ديوان المحنة) لكي يتنزع موافقة رجال الدين والقضاء والقانون على القول بخلق القرآن ، ومن كان يعارض ذلك يجلد ويهدد بالسيف^(٣) .

ويمكننا أن نكون صورة واضحة في أذهاننا عن مدى تحمس المأمون لآراء المعتزلة وبخصوصاً فيما يتعلق بعقيدة خلق القرآن من خلال الاطلاع على الكتاب المسهب الذي وجهه المأمون إلى رئيس شرطته في بغداد بشأن تبرير تشدده وحرصه على أن يأخذ المسلمون عامتهم وبخاصتهم بهذه العقيدة ، وقد أورد الطبري في تاريخه النص الكامل لهذا الكتاب^(٤) .
وهذه مقتطفات منه :

(أما بعد فإن حق الله على أئمة المسلمين الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ،

(١) راجع فهدل لجمارب الأمم ، للاطلاع على مظاهر الاضطهاد الذي تعرض له المعتزلة على يد فخر الدولة .

(٢) (الطبري ، حطوط القرظي ج٤ ، والصواعق المرسله ج١ ، عصر المأمون ج١ .

(٣) (Nichoison . P 368 & 369) .

(٤) تاريخ الطبري ج٧ ، (أحداث سنة ثمان عشرة ومائتين) ، (وكذلك . عصر المأمون ج٣) .

ومواريث النبوة التي أورشهم ، وأثر^(١) العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتههم والتشمير^(٢) لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصرمته^(٣) والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر من حشو الرعية^(٤) ، وسفلة^(٥) العامة ممن لا نظر له ولا روية^(٦) ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة^(٧) بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به . . . وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين^(٨) على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه . . .

ثم يأمر بعد ذلك عامله (إسحاق بن إبراهيم) أن يبلغ الولاية في إلزام الناس والقضاة والفقهاء في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن . فيقول :

(. . . فاجمع من بحضرتك من القضاة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده وبقينه ، فإذا أقرؤا بذلك ووافقوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص^(٩) من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة

(١) أثر : نقل ونشر . (٢) التشمير : الجد وعقد المهمة . (٣) الصرمية والجمع صرائم : العزيمة

(٤) الحشو : والجمع المحاشي : ما حشى به الشيء ، فضل وزيادة الكلام .

(٥) السفلة : واحدها السافل : النذل والوضيع . (٦) الروية : التدبر والتأني .

(٧) (أهل جهالة) خير مبتدؤه (الجمهور الأعظم) .

(٨) تعاجم الرجل : تنكر وتظاهر بالعجمه ، وتعاجم القوم : كثروا وورثوا ، والمراد هنا أن أهل الجهل والضلالة اتفقوا فيما بينهم على أن القرآن قديم غير مخلوق وكان اتفاقهم هذا في الإعلان لا في الخفاء مشيراً إلى وفاحتهم وتجرنتهم .

(٩) النص : والجمع نصوص : الكلام المنصوص ، والنص من الكلام : هو ما لا يحتمل إلا معنى واحداً أو لا يحتمل التأويل ، والنص من كل شيء : منتهاه .

أهل عملك في مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتفقد أثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والإخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله . . .) .

هذا التحمس من قبل المأمون للدفاع عن آراء المعتزلة ، وتبني أصولهم ومبادئهم ، ومحاولة فرضها على الرعية ، يدلنا على مبلغ النفوذ الذي حظى به المعتزلة في عصره فلقد حفلوا بالمنازل الرفيعة في بلاطه ، ووضع المأمون نفسه موضع التلميذ المتلقى من علمائهم مثل أبي الهذيل العلاف ، وثمامة بن أشرس^(١) ، ويروي البغدادي أن ثمامة كان أستاذ المأمون في الاعتزال^(٢) .

ولعل الشخصية الرئيسية التي لعبت الدور الأكبر في نشر مبادئ الاعتزال وازدهارها في عصر المأمون والمعتصم والوائق هي شخصية القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي^(٣) ، الذي استمر نفوذه ودامت حفلاته في البلاط العباسي حتى مدة خلافة الواثق ، والأخبار التي جاءت في الكتب التاريخية حول مبلغ النفوذ والتأثير الذي حققه هذا الرجل في البلاط العباسي أثناء حكم المأمون والمعتصم والوائق ، إلى الفترة الممتدة بين ١٧٠ وحتى ٢٣٢هـ ، كثيرة ومتواترة ، حتى أن لازون بن إسماعيل الذي كان من المقررين لبلاط الواثق يحدثنا قائلاً :

(ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد ، وكان يسأل الشيء اليسير فيمنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور ، وفي الحرمين ، وفي أقاليم أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد)^(٤) .

وأما الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) فلم يكن بأقل من سابقه تحمساً في نشر مذهب المعتزلة ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن حتى أن اليعقوبي يروي لنا أنه كان يعمد إلى زج من لم يدين لهذه العقيدة في السجن حتى سجن خلقاً كثيراً^(٥) .

وقد استغل المعتزلة هذا النفوذ غير العادي الذي تآتى لهم خير استغلال فعملوا خلال تلك الفترة من خلال بذل جهود متواصلة ومكثفة على نشر مذهبهم على نطاق واسع ، ولم

(١) سيأتي ترجمتهما في الباب الأخير من الكتاب .

(٢) الفرق بين الفرق ، وأيضاً عصر المأمون ج٢ .

(٣) توجد ترجمته في وفيات الأعيان ج١ ، وفي الباب الأخير من الكتاب .

(٤) الواقيات - المصدر السابق .

(٥) تاريخ اليعقوبي ج٢ .

يروا بأساً من التوصل بالعنف والقوة في حمل الآخرين على الأخذ بأرائهم، ولعل هذا هو الخطأ القاتل الذي ارتكبه المعتزلة، والذي أدى فيما بعد وخصوصاً في عصر المتوكل (٢٠٦-٢٤٧هـ) إلى أن يتعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد، والملاحقة وخصوصاً من قبل أهل السنة من رجال الحديث بزعامه (أحمد بن حنبل) الذي تعرض للسجن والتعذيب والاضطهاد في زمن المأمون نتيجة لرفضه اعتناق مبدأ خلق القرآن^(١).

وهكذا آل سلطان المعتزلة الفكرى والسياسى إلى الخفوت والأفول والضعف اعتباراً من خلافة المتوكل سنة (٢٣٢هـ) في حين أخذ في المقابل السلفيون المتعبدون بالنصوص بالبروز والظهور بعد أن تسلط المعتزلة على الساحة الفكرية في العالم الإسلامى زهاء قرنين ونصف، وقد زاد من ضعف المعتزلة، وانحسار نفوذهم الفكرى خروج أبى الحسن الأشعري عليهم، وانشقاقه عنهم بعد أن كان زعيماً من زعمائهم^(٢).

ويقول فيليب حتى في تاريخه: (إن حركة الاعتزال انتهت على يد أبى الحسن الأشعري البغدادي، وأنه كان قد قرأ في حديثه على فقيه معتزلى اسمه الجبائى، ولكنه تاب بعد حين عن القول بالعدل ويخلق القرآن، وأقلع عن آراء أهل الاعتزال ونشط للرد على تعاليم شيوخه منهم، وهو مؤسس علم الكلام فى الإسلام)^(٣).

وقد ذكرنا فى المقدمة أننا لا نزيد هذا الرأى القائل بانتهاء نشاط المعتزلة مع نهاية القرن الرابع الهجرى، بل أن نشاطهم استمر إلى فترة متأخرة من التاريخ الإسلامى وبالتحديد إلى سقوط بغداد سنة (٦٦٧هـ).

يقول (كارل بروكلمان) فى هذا المجال: (. . .) ولكن الخليفة المتوكل الثالث بعد المأمون أزال سلطان المعتزلة المطلق تحت تأثير الشافعية، ولم يكدمضى جيل حتى ظهر الرجل الذى وضع السلاح الفلسفى للمعتزلة فى خدمة السنة النبوية وهو أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، ولد سنة (٤٦٠هـ) بالبصرة من أسرة عربية عريقة شريفة، وظل تابعاً للجبائى المعتزلى حتى الأربعين من عمره)^(٤).

(١) انظر: وفيات الأعيان ج١، والطبرى ج٧، ومناقب الإمام أحمد.

(٢) انظر: مخطوط المقرئى ج٤.

(٣) انظر: تاريخ العرب، ونحن لا نتفق مع (حتى) فى أن علم الكلام تأسس على يد أبى الحسن الأشعري فلقد ظهر علم الكلام قبل الأشعري بفترة طويلة تمتد إلى بداية القرن الثانى الهجرى على يد المعتزلة وغيرهم من المتكلمين. فى حين أن الأشعري ظهر فى فترة متأخرة عن ذلك (٢٦٠ - ٤٢٣هـ) [راجع الفصل المتعلق بنشأة المعتزلة].

(٤) كارل ج٤.

وبطبيعة الحال فإن هذا الانشقاق جاء نتيجة طبيعية لتطرف المعتزلة في الاعتماد على العقل في استنباط الأحكام الشرعية، ومبالغة أهل السنة في التعبد بالنصوص واستبعاد دور العقل في الاستنباط وإصدار الأحكام، وماتبعه ذلك التطرف وهذه المبالغة من صراع احتدم طويلاً بين المعتزلة وأهل السنة، فانشق أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة ليتخذ منهجاً وسطاً بين المنهجين السابقين^(١).

ويظهر وبروز أهل السنة والأشاعرة خبا وهج الحركة الاعتزالية لفترة من الزمن امتدت من خلافة المتوكل (٢٣٢هـ) إلى بداية القرن الرابع الهجري، وفي خلال هذه الفترة تعرضت المعتزلة لهجوم عنيف، واضطهاد شديد من قبل خصومهم السلفيين والأشاعرة، فألفت الكتب والرسالات للرد عليهم، وتسفيه آرائهم، واستقصاء عيوبهم وخصوصاً من قبل علماء أهل السنة، ولعل أبا منصور البغدادي المتوفى سنة (٤٢٩هـ) يقف في مقدمة هؤلاء العلماء الذين تصدوا دون هواده للرد على المعتزلة وذلك في كتابه المعروف (الفرق بين الفرق)، وكثيراً ما كان البغدادي يتجاوز الحدود العلمية للنقد ليتحول نقده إلى مجرد هجاء مقذع لأعلام المعتزلة، كقوله في النظام أنه لم يكن نظاماً للكلام المنشور والشعر الموزون، بل كان مجرد ناظم للخرز في السوق^(٢)، وفي موضع آخر يقول عن الجاحظ: (ولو عرضوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنساناً فضلاً عن التهنيسوا إليه إحساناً)^(٣).

ومن العلماء الآخرين الذين نشطوا للرد على المعتزلة والطعن فيهم، ابن قتيبة الدينوري (سنة ٢٧٦هـ) في كتابه [تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث]، وأبو الفرج بن الجوزي (سنة ٥٩٧هـ) في كتابه [مناقب الإمام أحمد بن حنبل]، والشهرستاني في كتاب [الملل والنحل]، وابن حزم في كتاب [الفصل].

وذهب أهل السنة إلى أبعد من ذلك عندما كفروا المعتزلة، واستباحوا دماءهم وأموالهم وفرروا أن لقاتلهم القربة والزلفى عند الله، وقد روى عن محمد بن يحيى أحد علماء أهل السنة أنه قال: (من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وخرج من الإيمان وبانت منه امرأته^(٤))، يستتاب^(٥)، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجعل ماله فيثاً بين المسلمين ولم يدفن في مقابرهم).

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ودي بور.
(٣) الفرق بين الفرق. (٤) أي: حرمت عليه. (٥) يستتاب: يطلب منه أن يظهر التوبة.

خلاصة عن الأوضاع الفكرية والثقافية من بداية

القرن الثاني الهجرى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى

(١٠٠ - ٣٩٩هـ)

بالنظر إلى أن الاعتزال عُرف في التاريخ الإسلامى كمدرسة ومذهب فكرى وفلسفى بحث وأنه ظهر كنتيجة مباشرة للاختلافات الفكرية بين المسلمين أولاً وامتزاج الحضارة الإسلامية بالثقافات الأخرى كاليونانية، والفارسية، والهندية وغيرها ثانياً، هذا الامتزاج الذى تمثل فى اختلاط العرب بالأمم الأخرى من جهة، وحركة الترجمة من جهة أخرى، فإننا سوف نركز حديثنا فى هذا الفصل على بيان واستعراض الأوضاع الفكرية والثقافية التى سادت المجتمع الإسلامى خلال الفترة التى نشطت فيها حركة الاعتزال .

بدأ اختلاط الأعاجم بالعرب يمارس تأثيراته الفكرية على المجتمع الإسلامى بعد أن استقرت وهدأت حركة الفتوح عندما آل السلطان إلى بنى أمية (٤١-١٣٢هـ) (٦١١-٧٥٠م)، فظهرت على أثر ذلك شريحتان رئيسيتان هما العرب والأعاجم، أى غير العرب .

وعلى أثر هذا الاختلاط بدأت الثقافات والحضارات الأخرى التى نقلها الأعاجم معهم إلى الفكر الإسلامى تمارس تأثيرها على الحياة الفكرية والثقافية .

• حركة الترجمة:

وقد كانت حركة الترجمة التى بدأت فى العصر الأموى تمثل المظهر الرئيس من مظاهر تلك التأثيرات الأجنبية على الحضارة الإسلامية، ورغم أنها كانت فى بداية أمرها ذات نطاق محدود من حيث السعة والتأثيرات، إلا أن هذه التأثيرات بدأت بالظهور بشكل بارز وواضح مع مجيء العباسيين إلى الحكم وإفساح المجال للعناصر غير العربية وخصوصاً الفرس لممارسة دور أكبر على الصعيد السياسى، والاجتماعى، والفكرى .

• حركة الترجمة فى العصر الأموى:

ولذلك فإن العصر الأموى يكتسب أهميته فى تأثر الحضارة الإسلامية بالثقافات والحضارات الأخرى من ناحية كونه يمثل البيئة التى وضعت فيها الأسس الأولى لعوامل هذا التأثير والمتمثلة - كما قلنا - فى عاملين رئيسيين نقل الأعاجم لذهنياتهم وأطوار تفكيرهم وموروثاتهم الثقافية والفكرية والسلوكية إلى العلوم، وضروب المعرفة الإسلامية.

والدينية التي تخصصوا وبرزوا فيها فيما بعد، وإسهامهم الفاعل في ترجمة الكتب التي جادت بها حضاراتهم، وما تركته الأفكار والمناهج التي تضمنتها هذه الكتب من تأثيرات عميقة في العلماء المسلمين ومن بينهم المعتزلة^(١).

• حركة الترجمة في العصر العباسي:

وعلى هذا فإن من المناسب هنا أن نستعرض حركة الترجمة في العصر العباسي والتي ظهرت ونشبت كنتيجة طبيعية لاتساع وتنوع مجالات ومتطلبات الحياة، وإحساس المسلمين بأنهم في حاجة ماسة إلى التزود من معطيات الحضارات والثقافات الأخرى من أجل بناء وتشبيد حضارتهم الجديدة خصوصاً بعد اتساع حركة الفتح، وانضواء مناطق وأقطار شاسعة تحت لواء الخلافة^(٢).

وهكذا شهد العصر العباسي نشاطاً واسعاً ومنظماً في مجال الترجمة من خلال إقبال العلماء، وطلاب العلم على قراءة ودراسة المترجمات، وتشجيع الخلفاء العباسيين وخصوصاً المأمون ودعمهم لحركة الترجمة^(٣).

وقد قامت هذه الحركة على نقل ثلاث ثقافات رئيسية إلى الفكر الإسلامي، والعربي، وهي: الثقافة الفارسية، والثقافة الهندية، والثقافة اليونانية.

١ - الثقافة الفارسية ومظاهرها وتأثيرها

لعب الفرس دوراً مزدوجاً في التأثير على الثقافة الإسلامية، فقد قاموا من جهة بنقل الثقافة الفارسية الأصيلة إلى الحضارة الإسلامية، ومن جهة أخرى أسهموا في نقل الفكر اليوناني إلى الإسلامي والعربي عبر نقل ما زخرت به ثقافتهم من تأثيرات يونانية.

ويلاحظ لنا في هذا المجال ابن المقفع كواحد من أبرز الذين أسهموا بنصيب وافر في نقل الثقافة الفارسية إلى العربية، فقد ترجم في مجال التاريخ كتاب (الأدب الصغير) و(اليتيمة في الرسائل) و(كليلة ودمنة) الذي هو في الأصل كتاب هندي نقل إلى الفارسية، وفي مجال الأدب ترجم (عهد أردشير) و(كتاب أردشير في التدبير) وكتاب (أدب وتوقيعات

(١) انظر في هذا المجال كتاب مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب - أوليري - ترجمة الدكتور تمام حسان.

(٢) انظر Nicholson, Literary History of the Arabs P. 376.

(٣) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - ترجمة عبدالرحمن بدوي، وأيضاً عصر المأمون ج ١.

كسرى) وكتاب (هزار افسانه) الذي يعتبر الأساس الذي قام عليه كتاب (ألف ليلة وليلة)^(١).

وقد نسج على منوال هذه الكتب الكثير من الأدباء والعلماء المسلمين، كابن الهبّاريّة الذي ألف كتاب (الصادح والباغم) وعبدالله بن أبي القاسم القريشي الذي ألف كتاب (سلوان المطاع في عدوان الطباع) على غرار كتاب (كليلة ودمنة)^(٢).

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى مؤلفات الفرس بالعربية والتي يمكن اعتبارها من جملة مظاهر تأثيرهم في الحضارة الإسلامية من حيث إنهم ألفوها متأثرين بثقافتهم الأصيلة، ونذكر هنا - على سبيل المثال - سهل بن هارون الذي ألف بوحي من تأثره بثقافته الفارسية العديد من الكتب، منها (ديوان الرسائل) و(ثعلة وعفرة) و(تدبير الملك والسياسة)^(٣).

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الثقافة الفارسية مدخلاً واسعاً دخلت عبره المؤثرات الثقافية الأجنبية الأخرى إلى الثقافة العربية وفي مقدمتها المؤثرات اليونانية والهندية، ويرى (اوليري) في كتابه مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، أن المادة العلمية للرياضة والفلك من المحتمل أن تكون قد انتقلت إلى الحضارة الإسلامية من اليونان والهند عبر إيران^(٤)، وهو يشير في هذا المجال إلى كتاب (السند والهند) الهندي الأصلي، ويحتمل أن تكون ترجمته إلى العربية قد تمت بمساعدة نسخة فارسية^(٥).

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال مدرسة (جنديسابور) التي تعتبر معهداً علمياً للدراسات الفلسفية والطبية أسسه كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٦م) وما لعبته من دور رئيسي في نقل التراث اليوناني إلى العربي، وفي مقدمته كتاب (منطق أرسطو) الذي يعتبر من جملة الكتب التي مارست أكبر التأثير في تشكيل العقلية الإسلامية، والذي تأثر به المعتزلة إلى حد كبير في نزعتهم الكلامية ومناظراتهم^(٦).

• تأثير الديانات والمعتقدات غير الإسلامية على المعتزلة:

ومن المعلوم - كما أشرنا - أن عقيدة المعتزلة تمثل في التاريخ الإسلامي مدرسة فلسفية وفكرية وكلامية، كان مجال نشاطها يتركز بشكل رئيسي في الجانب العقائدي من الدين

(١) للاطلاع أكثر على أسماء المترجمين والكتب التي ترجمت من الفارسية يراجع كتاب الفهرست لابن النديم، ويراجع أيضاً ضحى الإسلام ج١.

(٢) (انظر: ضحى الإسلام ج١). (٣) (انظر: الفهرست)

(٤) (انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام دي بور).

الإسلامي، وقد أسهمت الديانات والمعتقدات التي كانت سائدة آنذاك في البلدان والأقطار التي شملتها الفتوحات الإسلامية، أو العناصر غير العربية وغير المسلمة التي امتزجت مع المجتمع الإسلامي، أسهمت إلى حد كبير في ترك تأثيراتها الواضحة على الدراسات والبحوث العقيدية لدى المسلمين عموماً، والمعتزلة خصوصاً.

ولقد كانت الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف تضم في داخلها أقطاراً وبلداناً عديدة منها العراق، حيث غلبت المجوسية بفرقها المتعددة والصابئة والسمنية، ومنها أيضاً سورية ومصر حيث المسيحية واليهودية، والثقافة اليونانية^(١).

ومما لا شك فيه أن أتباع تلك الديانات أو من أسلم منهم أسهموا في إثارة مسائل وموضوعات لاهوتية بين المسلمين تتصل بالعقائد وأصول الدين، وأن الكثير من علماء المسلمين (ومنهم المعتزلة بشكل خاص) اطلعوا على هذه المسائل والموضوعات، ودرسوها بعناية فائقة ليقابلوها بالتعاليم الإسلامية.

• تأثيرات الديانة اليهودية:

وبالنسبة إلى الديانة اليهودية فإنها مارست بعض التأثير في ظهور النزعات الكلامية الجديدة لدى المسلمين، ومنها القول بخلق القرآن، فقد روى ابن الأثير في هذا المجال، أن لبيد بن الأعصم اليهودي كان يقول بخلق التوراة، وأن ابن أخت طالوت صنف في خلق القرآن، فكان أول من فعل ذلك في الإسلام^(٢)، وذكر ابن الأثير أيضاً أنه كان زنديقاً أفلس الزندقة^(٢).

وذكر الخطيب البغدادي أن بشر المريسي (ت ٢١٨هـ) المرجى، المعتزلي وأحد كبار الدعاة إلى خلق القرآن كان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة^(٣).

• تأثيرات الديانة المسيحية:

تعتبر الديانة المسيحية الديانة الأكثر تأثيراً من الناحية العقيدية والكلامية في ظهور المعتزلة، فمن المعلوم أن المسيحيين (نظراً إلى أنهم نشؤوا بين أحضان الثقافة اليونانية) كانوا أكثر أتباع الأديان إثارة للمسائل اللاهوتية التي كانت تحظى باهتمام علمائهم أنفسهم. ومما يؤكد التأثير الكبير الذي مارسه الديانة المسيحية على مدرسة الاعتزال أن أتباعها

(١) انظر الملل والنحل ج ٢، وفجر الإسلام، وعصر المأمون ج ١.

(٢) ابن الأثير ج ٧.

(٣) تاريخ بغداد ج ٧.

وجدوا المجال للنفوذ في المجتمع الإسلامي اعتباراً من العصر الأموي، فالمصادر التاريخية تذكر لنا في هذا المجال أن الأمويين كانوا يقربون المسيحيين، ويستعينون بهم، ويسندون إليهم بعض المناصب الرفيعة؛ وعلى سبيل المثال فقد جعل معاوية بن أبي سفيان سرجون ابن منصور الرومي المسيحي كاتبه وصاحب أمره^(١)، ثم ورت تلك المكانة ولده يحيى الدمشقي (٨١-١٣٧هـ) الذي كان عالماً كبير القدر من علماء الدين المسيحيين، وقديساً محترماً في الكنيستين الشرقية والغربية، وآخر علماء اللاهوت الكبار في الكنيسة الشرقية، وأعظم علماء الكلام في الشرق المسيحي^(٢).

ويقول ميكفرت: (إن اللاهوت المسيحي وصل ذروته في زمن يحيى الدمشقي الذي وضع في كتبه خلاصة ما بلغه الفكر المسيحي في الشرق)^(٣).
وقد وضع يحيى كتاباً في تفسير اللاهوت المسيحي طبقه على فلسفة أرسطو المنطقية^(٤).

ويتجلى لنا تأثير المسيحية بشكل أكثر وضوحاً عندما نعلم أن المناظرات بين المسلمين والمسيحيين كانت قائمة على قدم وساق في المسائل العقيدية كما تشير إلى ذلك كتابات يحيى الدمشقي وتلميذه ثيودور أبي قرة (ت ٢١١هـ)^(٥).
وأشار (ميكفرت) أيضاً إلى هذه المناظرات، وذكر أن من جملة الكتب التي صنفها يحيى الدمشقي كتاب في الدفاع عن النصرانية وضعه على شكل محاوراة بين عربي ومسيحي^(٦).

وقد كانت هذه المحاورات ناشطة أبان عهد الأمويين الذين لم يمنعوا قيام مثل هذه المناظرات ثم توقفت لتعود إلى النشاط في عصر المأمون، فقد جاء في نصح الطيب أن مناظرة جرت بين العتابي وأبي قرة حول المسيح (عليه السلام) في بلاط المأمون^(٧)، وكذلك جرت لأبي قرة هذا محاوراة في حضرة المأمون بينه وبين بعض العلماء من العراق والشام^(٨).

(١) الطبري ج٤، وابن الأثير ج٤.

(٢) A.C. MC Giffert, A history of Christian P. 308 Early and Eastern

(٣) MC Giffert P.330

(٤) مقالة (John of Damascus) في الموسوعة البريطانية ج١٣.

(٥) (انظر؛ Mac Donald P.131-132

(٦) Mc Giffert P310 (٧) نصح الطيب ج٣.

(٨) مجلة المشرق ج٦، مقال عن ثيودور أبي قرة بقلم الخوري قسطنطين باشا الراهب، وعصر المأمون ج١.

وهكذا يمكننا القول أن هذا التأثير المسيحي قد شمل المعتزلة بصورة عامة متمثلاً بأراء يحيى الدمشقي، وخلفه (ثيودور أبي قره)، فقد كانت - كما أشرنا - تجرى مجادلات دلهية بينه وبين علماء المعتزلة في حضرة المأمون ذلك لأن أبا قره كان يتكلم العربية ويكتب بها^(١)، ومن كتاباته التي وصلت إلينا بالعربية مقال وردت فيه بعض مسائل تشبه كثيراً مذاهب المعتزلة كقوله في خير الله الفياض وفضله الذي لا يتناهى^(٢)، وكذلك تعظيمه للعقل البشري واعتقاده أن الإنسان قادر بالعقل على أن يعرف الخالق، وأن الإنسان إذا كان يستطيع بالعقل أن يعرف الخالق، ويصير صفاته، فهو قادر كذلك أن يدرك به الحسن والفتح، ويفرق بين الخير والشر^(٣).

٢ - تأثيرات الثقافة الهندية:

مارست الثقافة الهندية تأثيرها على الحضارة الإسلامية في مختلف فروعها، ففي مجال الأدب نقلت الكثير من القصص الهندية إلى العربية، ونحن نجد هذه القصص مبثوثة في المصادر التاريخية والأدبية العربية، فكثيراً ما تصادفنا في هذه المصادر عبارات من مثل (ومما نقل عن الهند) أو (ومما جاء في كتب الهند)^(٤).

وقد سبقت الإشارة إلى كتاب (كليلة ودمنة) الذي يغلب الظن أنه كتب بالهندية في الأصل ثم نقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية، ولأريب في أن هذا الكتاب ترك أعظم الأثر على الأدب العربي، ونسج على منواله الكثير من الأدباء العرب كما مر.

وإذا ما راجعنا الفهرست لابن النديم لوجدنا أسماء الكثير من الكتب الهندية التي تضمنت الكثير من القصص، والأسمار، والخرافات ومنها كتاب السندياد الكبير، والسندياد الصغير، وكتاب (ديك الهند) وكتاب (ملك الهند)^(٥).

ومن المرجح أن تكون هذه الكتب قد تركت أثرها على كتاب القرن الرابع وما بعده خصوصاً كتاب القصص والأخبار والأساطير والمقامات مثل أبي حيان التوحيدى، وأبي علي النوشهري، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم، وفي هذا المجال يذهب (أحمد أمين) إلى أن الكثير من قصص (ألف ليلة وليلة) يرجع إلى أصول هندية^(٦).

(٢) ميمو مقالة في وجود الخالق والدين القويم لثيودور أبي قره.

(٤) انظر: في هذا المجال كتاب الوزراء والكتاب، وعيون الأخبار ج١.

(٦) ضحى الإسلام ج١، وعصر المأمون ج٣.

(١) المنزلي ج٦.

(٣) تيمور أبي قره.

(٥) انظر: الفهرست.

ومن بين المجالات الأخرى التي تركت فيها الثقافة الهندية أثرها على الحضارة الإسلامية مجال الحكمة نظراً إلى غنى الحضارة الهندية بهذا الفرع من المعرفة، حيث عُرف الهنود بصياغتهم لخبراتهم وتجاربهم وتأملاتهم في الحياة في عبارات وجمل قصيرة جاءت على شكل حكم وأمثال، كما نلاحظ ذلك في كتاب (كليلة ودمنة) مثلاً، وقد تمت ترجمة الكثير من تلك الأمثال والحكم في عهد المنصور والرشيد^(١)، وذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار مجموعة كبيرة من الأمثال والحكم الهندية.

وكما تأثرت الثقافة الإسلامية بالثقافة الهندية في مجال الحكمة، فقد تلقت التأثير منها أيضاً في مجال البلاغة، ذلك لأن الهنود عرفوا بامتلاكهم لأراء ووجهات نظر بلاغية يعتد بها لاهتمامهم بالكلام وفنون القول والمنطق السليم، ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال ما نقله الجاحظ في البيان والتبيين من ترجمة للصحيفة الهندية في البلاغة والتي جاء في مقدمتها:

(أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً...) (٢).

ونقل الجاحظ لمقاطع من هذه الصحيفة وهو علمٌ من أعلام المعتزلة ليدل على تأثير المعتزلة وخصوصاً الأدباء والكتاب منهم بالثقافة الهندية بالإضافة إلى الثقافات الأخرى. وفي مضممار الفلسفة كان للثقافة الهندية تأثير عميق على الحضارة الإسلامية وخصوصاً بين أوساط المتكلمين.

ومن بين العقائد التي عُرفت بها الفلسفة الهندية وانتقلت إلى بعض المذاهب الإسلامية القول بتناسخ الأرواح^(٣).

(١) انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام دي بور.

(٢) البيان والتبيين ج ١، رابط الجأش: مطمن مستقر، متخير اللفظ: يختار ألفاظه بعناية، السوق: عامة الناس، قليل اللحظ: قليل النظر إلى جانبيه.

(٣) انظر: ما كتبه البيروني في كتاب ما للهند من مفولة حول هذه العقيدة.

والذى بهننا من ذلك أن البعض من المتكلمين ومن بينهم متكلمو المعتزلة خضعوا لتأثير هذه العقيدة مثل (أحمد بن حابط) الذى تنسب إليه فرقة الحابطية من المعتزلة^(١).

ويشير صاحب الأغاني إلى أن البعض من المتكلمين ومنهم جرير بن حازم الأزدي اعتنقوا مذهب (السمية) الذى يعتبر أحد المذاهب الهندية^(٢).

وفى مجال التصوف يمكن القول أن التصوف الإسلامى لم يسلم من تأثيرات المذاهب الفلسفية الهندية فى مجال التصوف والرياضات الروحية التى عُرِفَتْ بها الثقافة الهندية^(٣).

٢ - تأثيرات الثقافة اليونانية:

سبق الحديث عند تعرضنا لذكر الديانات السائدة فى عصر المعتزلة ومنها المسيحية عن تأثير الثقافة اليونانية المتمثلة فى الديانة المسيحية على علم الكلام فى الإسلام، وستحدث تحت هذا العنوان عن المجالات الأخرى التى تهمنا لتأثير الثقافة اليونانية على الحضارة الإسلامية وخصوصاً مدرسة الاعتزال.

قبل كل شئ علينا أن نقول إن نصارى السريان هم الذين لعبوا الدور الأكبر فى نقل التراث اليونانى إلى الحضارة الإسلامية، حيث كانوا ينتشرون فى مناطق مختلفة من العالم الإسلامى وخصوصاً الرها ونصيبين وحران وجنديسابور.

وقد بدأ هؤلاء النصارى نشاطهم هذا اعتباراً من القرن الرابع الميلادى وامتد حتى القرن الخامس الميلادى، ويذكر (دى بور) أن أحد القساوسة الأطباء السريانيين القادمين من أطاكية، واسمه (بروبوس) قام لأول مرة بنقل مجموعات من الحكم اليونانية^(٤)، وقد وصلت أول ترجمة إلينا فى هذا المجال من عصر المأمون، أى القرن الثالث الهجرى، علماً أن هناك ترجمات أخرى تمت فى القرن الثانى الهجرى ضاعت معظمها^(٥).

ويعتبر عصر المأمون العصر الذى تمت فيه أغلب الترجمات من اليونانية إلى العربية، بل إننا نستطيع أن نقول إن دار الحكمة التى أنشأها المأمون تحولت إلى مركز هام من مراكز نقل الثقافة اليونانية بين العلماء.

(١) الفصل لآبن حزم ج١ . (٢) الأغاني ج٢ .

(٣) للموضوع فى هذا الموضوع يراجع كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) للبيرونى، فقد استفاض فى بيان مظاهر تأثير التصوف الإسلامى بالتيارات الفكرية الفلسفية الهندية.

(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام دى بور.

ويتأكد لنا تأثير المعتزلة العميق بالثقافة اليونانية عندما نعلم أن المأمون جعل مذهب الاعتزال المذهب الرسمي للدولة، وأنه هو نفسه كان معتقاً لمذهب الاعتزال، ومؤمناً بالثقافة العقلية وحرية التفكير إلى حد بعيد^(١).

ومع ذلك فإن تأثير المعتزلة بالفكر اليوناني لم يبدأ من عصر المأمون، بل إن أغلب الظن يتجه إلى أن تأثرهم بهذا الفكر بدأ قبل هذا العصر خصوصاً إذا علمنا أن حركة نقل التراث اليوناني إلى العربية كانت قد بدأت في عصر المنصور، ثم هارون الرشيد حيث كان البرامكة يبعثون الرسل لشراء المخطوطات الإغريقية من روما^(٢)، وخصوصاً إذا علمنا أيضاً أن منطق (أرسطو) كان قد ترجم قبل عصر المأمون من الفارسية على يد ابن المقفع^(٣)، وهذا ما يجعلنا نرجح أن تأثير المعتزلة بالثقافة اليونانية يعود جذوره إلى مراحل مبكرة من العصر العباسي.

ولا ريب في أن المعتزلة كانوا أكثر المدارس الفكرية الإسلامية تمثلاً للفلسفة والمنطق اليوناني، واستخداماً لهما في جدلهم، ومناظراتهم الدينية، وبصورة عامة يمكننا القول أن الفلسفة والمنطق كانا المنفذ الرئيسي الذي نفذت من خلالهما الثقافة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية، فقد كانت مناهج وأساليب البحث العلمي لدى المسلمين بدائية وبسيطة في بداية أمرها حتى اطلع المسلمون على الثقافة اليونانية ومعطياتها المتطورة في مجال البحث العلمي، فاتسعت العلوم الإسلامية على أثر ذلك، واتخذت الطابع العلمي والمنطقي حتى في المجالات التي تبدو في الظاهر بعيدة الصلة بالفلسفة والمنطق كالفقه والنحو والأصول والبلاغة والخطابة والشعر.

وفيما يتعلق بالمعتزلة فقد رأوا أن خير سلاح للدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء الديانات والمعتقدات الأخرى هو الإقبال على المنطق والفلسفة اليونانية ودراستهما بعمق للاستفادة من قواعدهما، وقوانينهما، وأساليبهما في مناظرة، ومجادلة، ومناقشة أصحاب تلك العقائد والديانات تماماً كما كان يفعل هؤلاء في مناظراتهم مع المسلمين، حيث يحدثنا المقرئ في هذا المجال قائلاً: (إن المأمون قد بعث إلى بلاد الروم من عرب له كتب الفلاسفة، فتلقاها المعتزلة، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها فاشتد ساعدهم بها)^(٤).

(١) انظر: عصر المأمون ج ٢ . (٢) أوليري

(٣) انظر: ضحى الإسلام ج ١، وبيروكلمان ج ٢، وعصر المأمون ج ١.

(٤) خطط المقرئ ج ٤ وانظر أيضاً: المنية والأمل للمرنفسي.

ويروى لنا صاحب المنية والأمل رواية تدل على مدى إمام المعتزلة بالثقافة اليونانية ، يقول : (أن جعفر البرمكي ذكر أرسططاليس^(١) ، فقال النظام : قد نقضتُ عليه^(٢) كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تُحسن أن تقرأه؟ فقال : أيما أحبُّ إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله؟! ثم اندفع يذكر شيئاً فشيئاً ، ويتقضه عليه ، فتعجب منه جعفر^(٣) .

• خلاصة ونتيجة:

وبعد ، فهذه هي باختصار البيئة التي نشأ فيها المعتزلة اعتباراً من بداية القرن الثاني وحتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وقد كانت - كما رأينا - بيئة نشطة ، حافلة بالتيارات الفكرية والعقيدية المختلفة التي كان منشؤها - بشكل رئيس - اختلاط العرب بالأُمم والشعوب الأخرى من حملة الحضارات ، واتساع نطاق حركة الترجمة والنقل من الثقافات الأخرى وخصوصاً الثقافة الفارسية والهندية واليونانية ، فجاء على أثر ذلك مذهب الاعتزال مذهباً متطوراً يعتمد على الثقافة العقلية ، وأساليب وأصول البحث العلمي والمنطقي والفلسفي في صياغة مبادئه ، وفي تعامله مع الأديان ، والمعتقدات ، والمذاهب الأخرى .

(١) هو الفيلسوف اليوناني المعروف (أرسطو) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) .

(٢) أي أسقطت حججه وبراهينه .

(٣) المنية والأمل .

مبادئ مذهب الاعتزال وأصوله

بما أن المذهب المعتزلى القائم فى الأساس على العقل، وعلم الكلام، والجدل، والفلسفة، قد ترك آثاره ولمساته الواضحة والعميقة على التراث الفكرى للمعتزلة وخصوصاً الجانب الأدبى منه، والذى نحن بصدد دراسته واستعراضه فى كتابنا هذا، فقد ارتأينا أن نخصص فصلاً نستعرض فيه بشكل مختصر الأصول والمبادئ التى ارتكز عليها مذهب الاعتزال، وبيان الخصوصيات الفكرية التى امتاز بها المعتزلة عن أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى.

قام مذهب الاعتزال على خمسة أصول أساسية لا بد أن تتوافر جميعها فى الشخص لى يكون معتزلياً دون زيادة أو نقصان^(١).

وفى ما يلى نذكر أصول المذهب الاعتزالى مع شىء من الشرح:

١ - التوحيد:

ويعتد هذا الأصل من أهم الأصول التى قام عليها هذا المذهب، - أى المعتزلة - فهم يعتبرون أنفسهم أشد الطوائف الإسلامية إيماناً بالتوحيد ودفاعاً عنه إزاء الديانات والمذاهب المشركة التى تعتقد بوجود أكثر من إله واحد وذلك من خلال مناظراتهم، وكتبهم ورسائلهم المتعمقة والواسعة التى ألفوها فى هذا المجال للرد على أصحاب تلك العقائد والديانات. ونتيجة لتشددهم فى أصل التوحيد فقد نفوا أن يكون لله - تعالى - صفات غير ذلك^(٢) لأن ذلك يقتضى القول - حسب رأيهم - بالتعدد، وعلى هذا الأساس فقد خالفوا العقيدة التقليدية للسلف والقائلة بقدوم القرآن، فقالوا بخلقه^(٣)، كما أولوا الآيات القرآنية التى يفيد ظاهرها بأن الله - تعالى - يتجسد فى يوم القيامة^(٤) ونفوا الرؤية نفى استحالة وحكموا بكفر من يقول بها^(٥).

وقد أجاد الشهرستانى فى وصف عقيدة المعتزلة بشأن التوحيد ونفى الصفات عن الذات الإلهية، ونظراً إلى شمولية هذا الوصف ودقته واشتماله على الخطوط الرئيسية لعقيدة المعتزلة بخصوص التوحيد، فقد رأينا أن من المناسب أن ننقله، وهو:

(١) راجع الفصل لابن حزم ج ٢ . (٢) راجع مقالات الإسلاميين ج ١ .

(٣) الفرق بين الفرق، والملل والنحل ج ١ (٤) انظر: الإبانة فى أصول الديانة للأشعرى .

(٥) نهاية الأقدام فى علم الكلام للشهرستانى، والفرق بين الفرق .

(. . .) فالذى يعمُّ طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وأصغ ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً ، فقالوا هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حتى بداته ، لا يعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلهية ، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محل ، وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه ، فأينما وجد فى المحل عرض فقد فنى فى الحال ، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته ، لكن اختلفوا فى وجوه وجودها ، ومحامل معانيها . . واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسمًا وهيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط التوحيداً^(١) .

٢ العدل:

ويأتى هذا الأصل فى الدرجة الثانية من الأهمية بعد التوحيد من ناحية اهتمام المعتزلة به ، وتوسعهم فيه ، وكتابتهم للدراسات والبحوث المستفيضة حوله ، صحيح أنهم يتفقون فى هذا الأصل مع سائر الفرق الإسلامية ، إلا أن هناك مسائل وموضوعات كثيرة ومتشعبة طرحوها حول أصل التوحيد وكان لها أثر كبير فى مجادلاتهم ومناظراتهم .
ومن تلك المسائل والقضايا التى أثارها المعتزلة فيما يتعلق بمبدأ العدل وأدلوها بدلوهم فيها مسألة القدر ، وهل الإنسان مخير فى أفعاله أم مجبر ، فقالوا بأن الله - تعالى - ليس له فى أكساب العباد ولا الحيوانات صنع ولا تقدير لا بإيجاد ولا بنفى^(٢) ، وأن الإنسان يمتلك الاختيار وحرية الإرادة فى أفعاله ، ذلك لأن القول بأن الإنسان مجبر فى أفعاله يستلزم - حسب رأيهم - نسبة الظلم إلى الله - تعالى - ، فما كان تعالى ليحاسب ويعاقب العبد على فعل شيء أجبره على فعله^(٣) .

يقول ثمامة بن أشرس أحد زعماء المعتزلة فى بيان هذه العقيدة :

(لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه ؛ إما كلها من الله ولا فعل لهم ، لم يستحقوا ثواباً ولا عقاباً ولا مدحاً ولا ذمًا ، أو تكون منهم ومن الله ، وجب المدح والذم لهم جميعاً ، أو منهم فقط كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم)^(٤) .

(١) الملل والنحل ج١ . (٢) الفرق بين الفرق .

(٣) راجع الفصل لابن حزم ج٣ . (٤) المنية والأمل .

ولعل من أهم القضايا التي أثارها المعتزلة فيما يتعلق بأصل العدل الإلهي قضية الحسن والقبح وهل هما ذاتيان أم أنهما أمران نسيبان يحددهما الشرع؟ فعلى ضوء إيمان المعتزلة المطلق بالعقل، وتعويلهم عليه في تحديد الكثير من الأحكام، فقد قرروا أن تحديد الحسن والقبح هو أمر موكول إلى العقل، فهو باستطاعته أن يصدر القول الفصل في هذا المجال، وبناءً على ذلك فقد آمنوا بأن حسن وقبح الأشياء أمران ذاتيان وأن دور الشرع في هذا المجال هو تقرير وإثبات هذا الحسن أو القبح، وعلى هذا فإن لهما وجوداً مستقلاً قبل أن يقرره الشرع^(١).

والذي يهمننا من ذلك إيمان المعتزلة المطلق بدور العقل في استنباط الأحكام، واعتمادهم عليه في مجادلاتهم ومناظراتهم، وانعكاس هذه النزعة العقلية على نتائجهم النظرية ومن بينها النتائج الأدبية التي تميزت بطابع عقلي ومنطقي قوى استطاعوا من خلاله أن يمزجوا مزجاً رائعاً بين الأساليب العلمية والمضامين والموضوعات الأدبية كما سنرى ذلك بوضوح في الفصل الذي خصصناه لدراسة وبحث واستعراض أدب المعتزلة وتأثير الاعتزال عليه، يقول شوقي ضيف في هذا المجال:

(أفاد المعتزلة من الفلسفة أن نظمت عقولهم تنظيمًا منطقيًا دقيقًا وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، كما جعلتهم يقدررون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعاني وتفريعها حتى ليقول بشر بن المعتز أنهم «فوق أكثر الخطباء»، وأبلغ من كثير من الخطباء»^(٢).

٣ - الوعد والوعيد:

وهذا الأصل متفرع من الأصل الثاني (العدل)، وهم لا يختلفون في تفسير هذا الأصل عن سائر فرق المسلمين، سوى أنهم ينفون الشفاعة على اعتبار أنها تتنافى مع (الوعيد)، ولذلك فقد أولوا جميع الآيات التي ظاهرها إثبات الشفاعة، وتمسكوا بالآيات التي تفيد نفيها^(٣).

وأما بالنسبة إلى مرتكب الكبيرة وحكمه الأخروي، فقد قرروا أنه مخلد في النار

(١) راجع المستصفي من علم الأصول للغزالي، والملل والنحل ج ١، ونهاية الأقدام.

(٢) البلاغة تطوراً وتاريخاً - شوقي ضيف.

(٣) راجع الفصل لابن حزم ج ٤.

استناداً إلى أصل الوعيد الإلهي، إلا أن عذابه أخف من عذاب المشرك أو الكافر نظراً إلى أنه يعتبر فاسقاً من وجهة نظرهم وليس بمشرك ولا كافر^(١).

١ - المنزلة بين المنزلتين:

وكما مرّ فإن هذا الأصل هو الذي ميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق، وهو الذي ارتبط بظهورهم ونشأتهم، إذ اتخذوا من خلاله موقفاً وسطاً بين الخوارج والمرجئة.

ولعل المناظرة التي حدثت بين واصل وصديقه عمرو بن عبيد والتي نقلها المرتضى في أماليه تسلط لنا الكثير من الأضواء على طبيعة الموقف الوسط والمحايد الذي اتخذه المعتزلة بهذا الخصوص، ولذلك فقد أثرنا نقلها فيما يلي نظراً إلى أهميتها:

(قال واصل: سمى مرتكب الكبيرة فاسقاً^(٢) لاتفاق أهل الإسلام على هذه التسمية؛ فالخوارج يسمونه مشركاً فاسقاً، والشيعة يسمونه كافراً بنعمة فاسقاً، والحسن يسميه منافقاً فاسقاً، والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً، فاجتمعوا على تسميته فاسقاً واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه، فالواجب أن يُطلق عليه الاسم الذي اتفقوا عليه وهو الفسق، ولا يُسمى بما عدا ذلك من الأسماء التي اختلفوا فيها، فيكون صاحب الكبيرة فاسقاً، ولا يقال إنه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر، فهذا أشبه بأهل الدين...)^(٣).

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذا الحكم اتفق على وجوبه جميع المسلمين، إلا أن المعتزلة اقتصروا فيه عنهم في الارتفاع به من ناحية الوجوب إلى مرتبة أصول الدين في حين ترى فرق المسلمين الأخرى أنه مال فرعاً من فروع الدين مع اختلاف في وسائل تطبيق هذه الفريضة بين اللسان فقط، وبين اللسان واليد والسيف، فأما المعتزلة فيرون وجوب استعمال السيف في تطبيق هذه الفريضة بالإضافة إلى الوسائل الأخرى^(٤).

(١) (الظر: الملل والنحل ج١).

(٢) الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، وطريق الحق والصواب.

(٣) أمالي المرتضى ج١.

(٤) راجع مقالات الإسلاميين ج١.

الاعتزال فى الأدب العربى

مقدمة عن دور المعتزلة فى الأدب العربى

يتسع الحديث عن الدور الإيجابى، الذى لعبه المعتزلة فى دفع مسيرة تطور الأدب العربى إلى الأمام وخصوصاً فى مجال النشر، فإليهم يعزى الفضل الأول فى نضج وتطور الدراسات البلاغية بما يشتمل عليه من الأساليب المثلى فى المجادلة والمناظرة، والموضوعات الخاصة بعلم البيان، والمباحث البلاغية المتعلقة بإعجاز القرآن، والدراسات النقدية، أضف إلى ذلك إسهاماتهم فى تطوير أسلوب الكتابة، وإضفاء اتجاهات جديدة عليها لم تعهدها من قبل.

يقول الدكتور (طه حسين) فى هذا الصدد:

(لقد أثرت الهيلينية فى الأدب العربى البحث عن طريق غير مباشر لتأثيرها أولاً فى متكلمي المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين والذين كانوا بتضلعهم فى الفلسفة مؤسسى البيان العربى حقاً، نعم لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليونانى لعهدهم، ولكن لاشك أن تفكيرهم الفلسفى قد أعدهم لأن يتصدروا صناعة البيان، كما كان يتصدرها اليونانيون من بعض الوجوه)^(١).

ومما لاشك فيه أن العامل الأول الذى جعل المعتزلة يبرزون فى مجال فن الكتابة والنشر، ويسهمون فى تطويره، وإغناء مواضيعه هو نزعتهم الكلامية، واتباعهم لمبدأ الحوار والمناظرة والجدل فى التعامل مع أصحاب المذاهب والعقائد والديانات الأخرى، هذه النزعة حدث بهم إلى أن يصبوا اهتمامهم فى صياغة الكلام، ويولوا أساليبه وطرقه، ومناهجه عناية فائقة لكى يكون كلامهم مقنعاً، تتوافر فيه شروط وأسس الجدل الصحيح. وقد روى صاحب كتاب (محاضرات الأدباء) فى هذا المجال رواية معبرة ولطيفة تدلنا على مدى الدور الكبير الذى أداه المتكلمون بصورة عامة، والمعتزلة بشكل خاص فى

(١) البخلاء، المقدمة نقلاً عن حديث الشعر والنثر.

تأسس علم البلاغة والبيان وما يتصل بهما من وضع الأسس العلمية الصحيحة لأداء الكلام والمعاني، فقد روى قائلًا:

(اجتمع متكلمان فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ فقال على شرائط؛ ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب^(١)، ولا تحكم، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا إذا جوزت لى تأويل مثلها على مذهبى، وعلى أن تؤثر التصديق، وتناقذ للتعارف، وعلى أن كلا منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته)^(٢).

هذه الرواية وغيرها من الروايات تدلنا بوضوح على عظم الدور الذى لعبه المتكلمون بصورة عامة، والمعتزلة بصورة خاصة فى تأسيس وظهور علوم اللغة، وخصوصاً العلوم البلاغية ومن بينها علم البيان، والمعاني، والدراسات المتعلقة بأسرار الإعجاز القرآنى، فهناك فضل للكلام على الفن الأدبى عند العرب كما كان فضله عظيمًا فى نشأة البلاغة العربية وتطورها واتخاذها صورة علمية ذلك أنها نشأت أول ما نشأت بين المعتزلة ثم ظلت بعد ذلك وثيقة الصلة بالترعة الكلامية فى أدوارها المختلفة. . فقد كان أسلوب المتكلمين من أجمل الأساليب وأسمحها وأكثرها مرونة وطواعية وهم الذين فتحوا باب علم البيان فى الأدب العربى...^(٣)

هذه الخدمات التى قدمها المعتزلة إلى الأدب العربى والتى امتدت من أواخر العصر الأدبى أو بدايته (٦٠هـ) وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى (وبشكل متفرق بعد ذلك بقرن بغداد سنة ٦٦٧هـ) تجلت أكثر ما تجلت على صعيد النثر نظراً إلى طبيعة التوجه الذى كان يغلب عليهم وهو التوجه الكلامى والفلسفى والجدلى، ومن المعلوم أن القلب الطبيعى لثل هذه الموضوعات هو النثر بفنونه المختلفة.

وعلى اثر ذلك أنجب المعتزلة الكثير من الكتاب والأدباء والمصنفين الذين أغنوا الأدب العربى من الناحيتين الكمية والنوعية؛ فمن الناحية الكمية^(٤) أسهم المعتزلة فى رفد الأدب

(١) ذهب إلهج الشر . مال عن الطريق . (٢) محاضرات الأدباء ج١ (٣) البخلاء .
(٤) راجع للاطلاع على المؤلفات الغزيرة التى كتبها المعتزلة؛ مرآة الزمان ج٣، ومعجم الأدباء ج١٦، ولسان الميزان ج١، ومروج الذهب ج٤، والمنية والأمل، ومقالات الإسلاميين، والفرق بين الفرق، وكتاب الانتصار من أوله إلى آخر هذا الكتاب، فهرست بأسماء هذه الكتب، وشرح نهج البلاغة، ولسان الميزان ج١، والمنية والأمل، ووفيات الأعيان ج٥ .

العربى فى عصوره المختلفة بالعديد من المؤلفات والمصنفات فى فروع المعرفة المختلفة تقف الدراسات الكلامية، والبيانية، والبلاغية، والنقدية فى مقدمتها، ومن الناحية النوعية لا يخفى ما كان للأدباء ومتكلمي المعتزلة من دور ضخم فى تطوير فن الكتابة والنثر، وإضفاء اتجاهات، وأساليب، وطوايع جديدة عليه، وفى هذا المجال تتبادر إلى الأذهان أسماء لامعة من رجال المعتزلة وأدبائهم مثل الجاحظ^(١)، وأبى حيان التوحيدى، والزمخشري، وابن أبى الحديد، بالإضافة إلى رجال المعتزلة الأوائل أمثال واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام (ت ٨٤٥هـ)، والجبائى، وبشر بن المعتمر، وأبى هذيل العلاف، وعلى الأسوارى . . . وغيرهم ممن شهد لهم المؤرخون وعلماء الأدب واللغة ومعاصروهم بالفصاحة، والبلاغة، والتبحر فى علوم اللغة والأدب .

ولعل الخدمة الكبرى التى أسداها المعتزلة إلى الأدب العربى وخصوصاً فى جانبه النثرى تتمثل فى إضفاء العمق والتشعب عليه من خلال ذلك المزج الرائع الذى قاموا به بين الأسلوب الكلامى والعقلى والفلسفى فى تناول وطرح القضايا والموضوعات المختلفة، وبين النثر الأدبى بطابعه الفنى كما نرى هذا الاتجاه بوضوح لدى الجاحظ وأبى حيان التوحيدى^(٢) وكما يشير إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فى قوله :

(أفاد المعتزلة من الفلسفة أن نظمت عقولهم تنظيمًا دقيقًا وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعانى وتفريغها . . .)^(٣) .

وهكذا فبفضل المعتزلة وغيرهم من المتكلمين سادت النزعة العقلية والكلامية النثر العربى وخصوصاً فى القرن الرابع الهجرى، فجاء نثرًا نزاعًا إلى الإطناب والتفصيل معتمداً على القوانين والقواعد المنطقية فى طرح وبسط المواضيع التى تناولها، ومشفوعاً بالأدلة والبراهين، والمقدمات والنتائج المنطقية (ففى هذا العصر غلبت النزعة العقلية على الخيال، وارتفع شأن النثر على شأن الشعر وكثر الكتاب وقلّ الشعراء)^(٤)

وثمة خدمة أخرى قدمها المعتزلة إلى الأدب العربى فى جانبه البيانى والبلاغى، وهى أنهم لعبوا الدور الأكبر فى نقل الثقافة اليونانية فى مجال علم البيان والبلاغة إلى الأدب العربى، فقد أسهموا بشكل فاعل من خلال اطلاعهم الواسع على هذه الثقافة عبر

(١) انظر: البيان والتبيين ج١ . (٢) راجع الفصلين اللذين خصصناهما لهما فى الباب الثالث .

(٣) البلاغة تاريخاً وتطوراً . (٤) طه حسين - من حديث الشعر والنثر .

محاوراتهم مع النصارى والسريانيين فى نقل آراء اليونانيين فى مضممار العلوم البلاغية إلى علماء البلاغة المسلمين، فكان لهم فضل كبير فى معرفة آراء الأمم الأجنبية فى البيان والبلاغة لكى يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب فى بلاغة الكلام محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية^(١).

وبالفعل فإن هناك شبه إجماع بين مؤرخى الأدب على أن علمى البيان والبلاغة إنما وضعت أسسهما، ونميا وترعرعا فى مدرسة المعتزلة الكلامية، والدليل على ذلك أن الغالبية العظمى من المبرزين فى هذين العلمين، وواضعى المؤلفات والمصنفات فيهما، ومشيدى أسسهما هم من المعتزلة كالجاحظ فى كتابه الذى شاد به أساس علم البلاغة (البيان والتبيين)، وقبله بشر بن المعتز فى صحيفته الشهيرة، وقد وصفت هذه الصحيفة بأنها خير ما أثر عن المعتزلة فى البلاغة حتى أواخر القرن الثالث، وقد نقلها الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين^(١)، وصاحب الصناعتين^(٢)، وهى تدلنا على مدى استغلال المعتزلة لملاحظات العرب والأجانب فى البلاغة وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذ من ملاحظات الطرفين إلى تبين قواعدها السديدة محتكمين فى ذلك إلى عقولهم الناضجة، وبصائرهم النافذة^(٢)، التى ألقها فى بيان أسس ومبادئ البلاغة وطرق إيراد المعانى والكلام، والعتابى، والرمانى، والزمخشري صاحب التفسير البلاغى والأدبى الشهير (الكشاف)، وكتاب (أساس البلاغة)، والقاضى عبد الجبار المعتزلى الذى خصص جزءاً كاملاً من كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لبحث إعجاز وأسرار البلاغة القرآنية، وأبى حيان التوحيدي فى كتابيه (المقابسات)، و(الامتناع والمؤانسة) ورسالته فى علم الكتابة.

(١) شوقى البلاغة.

(٢) شوقى البلاغة. وسيأتى الحديث مفصلاً عن هذه الصحيفة فى الفصل الذى خصصناه للحديث عن بشر كأحد أدباء وأعلام المعتزلة

دور المعتزلة فى ظهور علوم البلاغة وتطورها

نظراً إلى الدور الكبير الذى أداه المعتزلة عموماً وأدباؤهم خصوصاً فى نشوء، وتطور الدراسات البلاغية فى الأدب العربى، فقد ارتأينا أن نخصص موضوعاً لاستعراض جهودهم وإسهاماتهم فى هذا المجال الهام من مجالات الأدب العربى .

ويمكننا أن نقسم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين هما؛ دور المعتزلة فى تطوير علوم البلاغة عموماً، ثم دورهم فى تطوير وإغناء الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن الكريم والتى يقف فى مقدمتها موضوع بلاغة القرآن وإعجازه، فمما لاشك فيه أن علماء المعتزلة وأدباؤهم كان لهم النصيب الأوفر فى هذا الميدان من بين العلماء والأدباء الآخرين .

وفىما يرتبط بموضوع دور المعتزلة فى ظهور العلوم البلاغية وتطورها يمكننا القول أن النواة الأصلية لهذه العلوم نشأت أساساً بين أوساط المتكلمين الذين كانوا يعنون عناية فائقة باكتشاف الطرق والأساليب الصحيحة لإيراد الكلام لكى تكون مناظراتهم لأصحاب المذاهب الأخرى قائمة على أسس بلاغية ومنطقية صحيحة فظهرت على أثر ذلك اهتمامات تتعلق بأساليب البيان الصحيح، وطرق اختيار المعانى والألفاظ، والمواصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى المتكلم أو الخطيب أو البليغ على الصعيدين الظاهرى والمضمونى لكى يكون كلامه مؤثراً، ومقبولاً لدى المخاطبين، وفى الواقع فإن مثل هذه الاهتمامات، والاتجاهات تمثل النواة الأصلية للعلوم البلاغية .

وفى الحقيقة فإننا نستطيع أن نقول إن نهضة بلاغية وبيانية واسعة وناشطة حدثت بفضل المتكلمين - وعلى رأسهم المعتزلة - اعتباراً من بداية القرن الثانى الهجرى، فلقد نشط أتباع كل مذهب فى محاولة استقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع الآخرين إلى مذهبهم، وكانت الحلقات الدراسية والعلمية قائمة على قدم وساق آنذاك فى المساجد كل حلقة منها تجمع أتباع مذهب ما يتدارسون، ويحللون ويستتجون الأساليب الصحيحة للكلام والمجادلة، ويدعون من خلال تطبيق هذه الأساليب الناس إلى اعتناق مذهبهم .

وقد وصل بهم أمر الحرص على تعلم أساليب وفنون القول، وأسرار ومهارات إقناع الخصوم إلى حد أن زعماء تلك المذاهب كانوا يعمدون إلى تدريب تلامذتهم على أساليب المناظرة الصحيحة؛ فالتاريخ يحدثننا فى هذا المجال أن الحسن البصرى دعا تلميذه عمرو بن عبيد إلى مناظرة واصل بن عطاء بشأن حكم مرتكب الكبيرة وإثبات هل أنه مؤمن منافق أو

فاسق، فما كان من واصل إلا أن استطاع بفضل مهارته، وتمكنه في الجدل والمناظرة أن يفتح عمراً برأيه وهو أن مرتكب الكبيرة بين منزلتى المؤمن والكافر^(١).

ومن جملة المواضيع التي حظيت باهتمام المعتزلة والتي تتصل اتصالاً مباشراً ووثيقاً بعلوم البلاغة والبيان موضوع مخارج الحروف، وضرورة أن يكون المتكلم والخطيب ممتلكاً للقدرة على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة وأن لا تكون فيه عيوب في النطق.

ويخصص الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) فصلاً مطولة في بيان محاسن النطق السليم وأثره في نفس المستمع، وعيوبه والإشارة إلى أثرها السلبي في أذهان المخاطبين، وإيراد جملة من الأخبار والروايات المتعلقة بالخطباء والمتكلمين وما اشتهروا به من عيوب أو محاسن في النطق، ومنها الأخبار المتعلقة بواصل بن عطاء وما كان يعاني من لثغة في الرأ ثم تخلصه منها بفضل مكابדתه لنفسه، ومغالبتة إياها حتى استطاع أخيراً الاستغناء عن حرف الرأ في كلامه^(٢).

ومن بين الأخبار التي يرويها الجاحظ بشأن سلامة النطق وأثره في وقوع الكلام الموقع بالحسن في النفوس، قوله: (خطب الجمحي خطبةً أصاب فيها معاني الكلام، وكان في كلامه صفيراً يخرج من موضع ثناياه^(٣) المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين (المتوفى سنة ١٢١هـ) بكلام في جودة كلامه، إلا أنه فضله بحسن المخرج، والسلامة من الصفيير، وذكر عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ذلك، فقال في كلمة له يذكر فيها خطبة زيد:

صحت مخارجها وتم حروفها فله بذلك مزية لا تُنكر^(٤)

وهكذا فإن المعتزلة - من أمثال واصل، والنظام، وثمانمة، وبشر، وعمرو بن عبيد وغيرهم - يعتبرون المؤسسين الأوائل لعلوم البلاغة والبيان إلى درجة أن أقدم تعريف للبلاغة وصل إلينا من قبل علم من أعلامهم هو عمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ) إذ عرف البلاغة بقوله أنها (تخير اللفظ في حسن الإفهام)^(٤).

ومن ضمن مظاهر إسهام المعتزلة في تطوير الدراسات البلاغية وإغنائها ودفعها أشواطاً بعيدة إلى الأمام مساهمتهم الفاعلة في نقل آراء الأمم الأخرى - وخصوصاً اليونانيين - إلى

(١) أمالي المرتضى ج ١.

(٢) البيان والتبيين ج ١، وأيضاً الفصل الذي خصصناه لواصل في الباب الثالث.

(٣) الثنايا: الثنية إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم ثنان من فوق وثنان من تحت.

(٤) البيان والتبيين ج ١.

البلاغة العربية، ونحن نلاحظ في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ نقلاً واقتباساً غزيراً من الآراء البلاغية للحضارات الأخرى، كقوله:

(قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة)^(١)

وفي موضع آخر من كتابه، ينقل الجاحظ صحيفة في البلاغة لدى الهنود جاء فيها: (. . . واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً^(٢)، وتلك الحال له وفقاً^(٣)، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا فضولاً ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً. . . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تؤاتيه آتاه، وتتصرف معه أدواته. . .)^(١).

ومن بين مظاهر إسهامات المعتزلة محاولة تقديم تعريف للبلاغة، وبيان خصائص البليغ ومواصفاته ويعتبر العتابي بالإضافة إلى عمرو بن عبيد^(٤) من بين أوائل العلماء المسلمين الذين حاولوا تقديم تعريف للبلاغة، وبيان حدودها، وشروطها، وقد نقل عن الجاحظ في (البيان والتبيين) جملة من آرائه ووجهات نظره في البلاغة، منها قوله في تعريف البليغ: (كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة^(٥) ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق. . .)^(١).

ومنها أيضاً قوله في ضرورة الموازنة بين الألفاظ والمعاني والعلاقة الوثيقة بينهما والتي يصفها بأنها كالعلاقة بين الجسد والروح:

(الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية. . .)^(٦).

(١) البيان والتبيين ج ١. (٢) أي: مطابقاً. (٣) موافقة.

(٤) راجع في ترجمته الأغاني، ومعجم الأدباء، والشعر والشعراء، وطبقات الشعراء، لابن المعتز.

(٥) الحبسة: نقل في اللسان يمنع من الإبانة. (٦) الصناعتين.

وقد أوردنا في الفصل الذى خصصناه للحديث عن بشر بن المعتمر المعتزلى فى الباب الثالث مقاطع من صحيفته الشهيرة فى البلاغة، وسلطنا الأضواء على أهميتها، ومنزلتها فى الدراسات البلاغية وتطويرها^(١).

• دور المعتزلة فى إغناء وتطوير دراسات الإعجاز القرآنى:

نشط المعتزلة وغيرهم من المتكلمين فى هذا المجال، وأسهموا فى إغناء الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن الكريم، فقدموا فى هذا الصدد مباحث ودراسات واسعة. وتبرز لنا فى هذا المجال أسماء عديدة من علماء ومتكلمي المعتزلة أدلوا بدلوهم فى هذا المضمار أى مضممار دراسة أسرار الإعجاز القرآنى، ومنهم الزمخشري المفسر المعروف للقرآن الكريم، وصاحب تفسير (الكشاف) الشهير الذى بلغ من الروعة والكمال والقيمة حداً حمل خصوم المعتزلة أنفسهم (ومنهم الأشاعرة وأهل السنة) على الاعتراف بقيمته، والاستناد إليه كمصدر هام من مصادر التفسير البلاغى للقرآن الكريم، يقول الدكتور (شوقى ضيف مشيراً إلى قيمة تفسير الكشاف البلاغية والأدبية بين التفاسير الأخرى:

(نال - الزمخشري - شهرة مدوية فى العالم الإسلامى منذ عصره بسبب الكشاف إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تُعينه فى ذلك بصيرة نافذة تتغلغل فى مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه كما يعينه ذوق أدبى مرهف يقيس الجمال البلاغى قياساً دقيقاً وما يطوى فيه من كمال وجمال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق فى تاريخ التفسير، بل لقد بدأ^(٢) الأوائل والأواخر حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره على الرغم من اعتزاله ومخالفتهم له فى عقيدته الاعتزالية...^(٣)).

ومن علماء المعتزلة الآخرين الذين ألقوا فى البلاغة والإعجاز القرآنى على بن عيسى الرماني فقد كتب رسالة سماها (النكت فى إعجاز القرآن) والقاضى عبد الجبار^(٤)، فقد خص الجزء السادس عشر من كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لبحث مسألة إعجاز القرآن.

(١) راجع ترجمتهما فى الباب الثالث.

(٢) بده بدأ: غلبه، وفاقه، وسبقه.

(٣) شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ.

(٤) ستانى ترجمتهما فى الباب الثالث.

إسهامات المعتزلة فى النثر

اشتهر المعتزلة فى التاريخ الإسلامى كناثرين أكثر من شهرتهم فى مجال الشعر، ذلك لأن طبيعة مذهبهم، وكفاحهم المستمر والدؤوب من أجل نشره، ومقارعة الخصوم بحججه وبراهينه، كل ذلك وغيره كان يتطلب منهم أن يبرزوا فى ميدان النثر أكثر من ميادين الأدب الأخرى كالخطابة، والمناظرة والجدل، والكتابة، والتأليف، فظهر منهم على أثر ذلك أدباء وكتاب وبلغاء أفذاذ اشتهروا فى تاريخ الأدب العربى، وتركوا أبلغ الآثار عليه، ولونوه (وخصوصاً فى القرن الرابع الهجرى) بطابعهم فى التفكير وهو الطابع العقلى الميال إلى الإطناب، وإيراد الحجج والبراهين، والمناقشة، واستطاعوا بفضل مقدرتهم الأدبية والفنية أن يدخلوا الموضوعات العلمية والعقلية، والجدلية نطاق الأدب، ويطوعوها للأسلوب الأدبى الفنى، كما نلاحظ ذلك بشكل جلى فى مؤلفات الجاحظ، وأبى حيان التوحيدى على ما سنرى.

وفيما يلى نتحدث عن أنواع الفنون الثرية التى برز فيها المعتزلة، وتجلت فيها نزعتهم الفلسفية والكلامية، وأسهموا فى إغناء وتطوير الأدب العربى من خلالها:

١ - الجدل :

وهو أحد الفنون الثرية التى أبدع فيها المعتزلة وتفننوا أياً افتنان نظراً إلى أن مذهبهم كان يقوم أساساً على الجدل والمناظرة، وأنهم وظفوا كل الأساليب والمهارات والفنون الجدلية فى مناظراتهم مع أصحاب المذاهب الأخرى.

ونعنى بالجدل هنا القدرة على إفحام الخصم، والتصرف فى فنون الكلام والقول بما يقنع هذا الخصم أو يفحمه استناداً إلى أصول وقواعد وأساليب الجدل والمناظرة التى اقتبسها المعتزلة من اليونانيين وبرعوا فى تطبيقها، بعد أن تمثلوها وهضموها جيداً.

وقد روت لنا كتب التاريخ وخصوصاً تلك التى اهتمت بنقل أخبار المعتزلة الكثير من أخبارهم ونواديرهم بشأن مقدرتهم الجدلية على إفحام الخصوم مثل كتاب الانتصار، وأمالى المرتضى، وتاريخ بغداد، والمنية والأمل وغيرها، وفيما يلى ننقل نماذج من تلك الأخبار:

- نقل المرتضى فى أماليه: (قال أبو الهذيل لمجوسى: ماتقول فى النار؟ قال: بنت لله.

قلت: فالبقر؟ قال: ملائكة الله قص أجنحتها وحطها على الأرض يحرث عليها.

فقلت : فالماء؟ قال : نور الله . قلت : فما الجوع والعطش؟ قال : فقر الشيطان وفاقته . فقلت : فمن يحمل الأرض؟ قال : بهمن الملك ، قلت : فما في الدنيا شر من المجوس؟ أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شووها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن أعز ملائكة الله ، فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه^(١)

وفى الحقيقة فإن هذا النموذج الذى أوردناه يدل على ثقافة واسعة كان المعتزلة يسلحون بها أنفسهم قبل أن يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى كما أنه يدل على أنهم كانوا يعدون العدة أولاً لمناقشة الخصم من خلال وضع خطة محكمة وطرح أسئلة معينة تنتهى بهذا الخصم إلى لزوم الصمت فى نهاية المناظرة ، وسلب القدرة منه على الاستمرار فى المجادلة ؛ فالأسئلة التى طرحها أبو الهذيل على خصمه المجوسى تدلنا بوضوح على أنه يعرف الأجوبة مسبقاً ، ولكنه استهدف من وراء طرح هذه الأسئلة الوصول إلى نتيجة معينة حسب لها حسابها سلفاً .

- وروى عن النظام ، أحد أبرز زعماء المعتزلة ، ومجادلتهم ، ومتكلمتهم ، نماذج كثيرة من قدرة المعتزلة على إفحام خصومهم بالحجة ، والدليل ، وفنون الجدل ، ومن ذلك ما رواه أبو الحسين الخياط فى كتاب الانتصار :

(اعلم - علمك الله الخير - أن المنانية تزعم أن الصدق والكذب مختلفان متضادان وأن الصدق خيرٌ وهو من النور ، والكذب شر وهو من الظلمة ، فسألهم إبراهيم (أى النظام) عن مسألة ألزمهم فيها أن الفاعل الواحد يكون منه شيان مختلفان : خير وشر وصدق وكذب ، وفى هذا هدم القول بقدم اثنين أحدهما خَيْرٌ ، والآخر شرير وهى مسألة مشهورة ، قال لهم : حدثونا عن إنسان قال قولاً كذب فيه : من الكاذب؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : (قد كذبت وقد أسأت) من القائل (قد كذبت)؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم : إن زعمتم أن النور هو القائل (قد كذبت وأسأت) فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله ، والكذب شرٌ ، فقد كان من النور شرٌ وهذا هدم قولكم ، وإن قلتم : إن الظلمة قالت : (قد كذبت وأسأت) فقد صدقت ، والصدق خير فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم

(١) أمالى المرتضى ج١ .

مختلفان، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان، خيرٌ وشرٌ على حكمكم، وهذا هدمٌ قولكم بقدوم الاثنين، فإذا كانا على ما وصفتم فكيف امتزجا وتداخلا، واجتمعا من تلقاء أنفسهما وليس فوقهما قاهرٌ قهرهما، ولا جامعٌ جمعهما ومنعهما من أعمالهما كما يمنع الحجر مما فى طبعه من الانحدار، وكما يمنع الماء مما فى طبعه من السيولان، بل ينبغى أن يكونا لا يزدادان إلا تبايناً ومفارقة على قولكم^(١).

وهكذا يتتصر النظام على خصومه الملحدين بفضل دقة ملاحظته، وتدرجه فى إيراد الحجج والبراهين استناداً إلى مذهبهم هم أنفسهم، وإلى الأساليب المنطقية فى الجدل والمناظرة، وبراعته هو نفسه فى الاستخدام الصحيح لهذه الأساليب، وهى ظاهرة جديدة فى النثر العربى الذى كان قبل دخول الثقافة اليونانية عليه نثراً بسيطاً يعتمد على الأساليب والقواعد العقلية البسيطة والبدائية، ولكن ما إن ظهر المعتزلة، وما إن قاموا بدورهم التاريخى فى نقل الثقافة اليونانية فى جانبها المنطقى والفلسفى إلى الحضارة الإسلامية حتى دخلت النثر العربى ظواهر جديدة لم يكن له عهد بها قبل ذلك.

- وروى صاحب المنية والأمل لثمامة بن أشرس^(٢) قائلاً:

(قال ثمامة يوماً للمأمون: أنا أبين لك القدر بحرفين وأزيد حرفاً للضعيف، قال: ومن الضعيف؟ قال: يحيى بن أكثم^(٣)، قال: هات، قال: لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه، إما كلها من الله ولا فعل لهم، لم يستحقوا ثواباً ولا عقاباً ولا مدحاً ولا ذمّاً، أو تكون منهم ومن الله، وجب المدح والذم لهم جميعاً، أو منهم فقط، كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم، قال: صدقت^(٤)).

وثمامة فى النص السابق فى معرض إثبات عقيدة المعتزلة التى عرفوا بها وهى أن الإنسان حر مختار فى أفعاله وأن الشر والخير منسوبان كلاهما إليه، وقد استعرض خلال عملية الإثبات هذه جميع الاحتمالات الممكنة ومدى تطابق كل منها مع حكم العقل والمنطق، مثبتاً فى نهاية جدله صحة مقولة اختيار الإنسان فى أفعاله لتطابقها مع العقل والمنطق، وخطأ عقيدة الجبرية.

(١) الانتصار. (٢) أوردنا ترجمته فى الباب الثالث.

(٣) يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢هـ): فقيه كبير ذو اجتهاد، ولد بمر ووفى فى الربذة، ولى قضاء البصرة وعمره عشرون سنة، قاضى قضاء بغداد على أيام المأمون، ومدير المملكة عزله المتوكل، له كتب فى الفقه [المنجد فى الأعلام].

(٤) المنية والأمل.

ويعتبر أبو علي الجبائي^(١) علماً آخر من أعلام الجدل والأدب لدى المعتزلة، قال المرتضى بشأنه راوياً إحدى نوادره في الجدل:

(وكان على حداثة سنه معروفاً بقوة الجدل، حكى القطان: أنه اجتمع جماعة لمناظرة فانتظروا رجلاً منهم فلم يحضر، فقال بعض أهل المجلس: أليس هنا من يتكلم؟ وقد حضر من علماء المجبرة رجل يقال له صقر، فإذا غلام أبيض الوجه زج^(٢) نفسه في صدر صقر وقال له: أسألك؟ فنظر إليه بعض الحاضرين وتعجبوا من جرأته مع صغر سنه، فقال: هل الله تعالى يفعل العدل؟ قال: نعم، قال: أفنسميه بفعل العدل عادلاً؟ قال: نعم، قال: فهل يفعل الجور؟ قال: نعم، قال: أفنسميه جائراً، قال: لا قال: فيلزم أن لا نسميه بفعل العدل عادلاً. فانقطع)^(٣).

وهذا النموذج من الجدل يجري مجرى النماذج السابقة من اعتماد الأساليب والقواعد المنطقية والعقلية في إفحام الخصوم، وسد سبل الجدل والنقاش عليهم، وهذه النماذج إن دلت على شيء فإنها تدل بالتأكيد على سعة اطلاع المعتزلة وتعمقهم في قواعد وأصول وأسابيل الجدل كما حددها علماء المنطق، ومدى تفرسهم، ومهارتهم في استخدام تلك الأصول والأساليب.

• ظواهر ومواضيع جديدة ميزت نشر المعتزلة:

امتاز المعتزلة عن غيرهم ممن امتهن النشر والكتابة بخصائص قلما نلاحظها عند غيرهم، وبالطبع فإن الفضل في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المذهب الذي اعتنقه أولئك الأدباء والكتاب، وهو مذهب المعتزلة القائم على أساس احترام العقل وتقديسه، والنزوع إلى الجدل، وتقصى التفاصيل، والدقة في العرض، وما إلى ذلك من خصائص تميز المتبحرين في علم الكلام، والمنطق، والفلسفة.

كل تلك الاتجاهات والنزعات انعكست على ما تركه لنا المعتزلة من آثار نشرية وأدبية فجاءت هذه الآثار مكتسبة الطابع الاعتزالي في تناول، والعرض، والتحليل على ما سنرى في الصفحات التالية.

(١) راجع ترجمته في الباب الثالث.

(٢) زج: رمى.

(٣) المنية والأمل.

• أثر النزعة الكلامية على أدب المعتزلة:

فمن آثار الاعتزال في نشر المعتزلة أننا نرى أدباءهم كثيراً ما يتحدثون في نشرهم عن موضوعات بوحى من تأثرهم بنزعتهم الكلامية، والعقلية، كالحديث مثلاً عن الشيء ونقيضه، وهى ظاهرة نراها فى آثار الكثير من أدباء المعتزلة وكتابهم وخصوصاً الجاحظ الذى قال عنه (ابن قتيبة) مشيراً إلى هذه الخصوصية التى نراها بغزارة فى مؤلفاته:

(... ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعايير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج بفضل السودان على البيضان، ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية^(١) على العثمانية وأهل السنة ومرة يفضل علياً عليه السلام ومرة يؤخره...)^(٢).

• نماذج من البخلاء للجاحظ:

وقد حفل كتاب (البخلاء) للجاحظ بصورة فنية بديعة من هذا اللون من الأدب الذى من المؤكد أن المعتزلة مالوا إليه نتيجة لتأثرهم بالفلسفة والمنطق اليونانى فى جانبه السفسطائى القائم على أساس المغالطات، وإثارة الشكوك حول القضايا المختلفة، أضف إلى ذلك أن اليونانيين كانوا يعمدون إلى التمرن على فنون القول، والمناظرة، من خلال إثبات الشيء، ثم نفيه.

وفيما نورد نموذجاً من نشر الجاحظ فى هذا المجال، وهو يصف أحد بخلائه ويدعى (تمام ابن جعفر):

(... وكان إن قال له نديم له: مافى الأرض أحد أمشى^(٣) منى، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضير^(٤) منى، قال: وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟ لا حمد الله من يحمدك فإن قال: لا والله إن^(٥) أقدر أن أمشى، لأنى أضعف الخلق عنه، وإنى لأنبهر^(٦) من مشى ثلاثين خطوة، قال: وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالاً، وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأى بطين^(٧) يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ^(٨) ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى النكير^(٩)؟

(١) وهم طائفة من الشيعة تقول بإمامة زيد بن على بن الحسين.
 (٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ج١.
 (٣) أمشى: أكثر قدرة على المشى. (٤) الحضير: العدو الركض.
 (٥) إن: حرف نفى يعمل عمل ليس.
 (٦) أنبهر: بُهر وانبهر: انقطع نفسه من السعى الشديد.
 (٧) بطين: عظيم البطن.
 (٨) الكظيظ: الممتلئ من الطعام.
 (٩) النكير: الشديد الصعب.

فإن شكاً ضرساً وقال: ما نمت البارحة من وجعه وضرباته، قال: عجبت كيف اشتكيت واحداً وكيف لم تشتك الجميع، وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكّة^(١)؟ وأى ضررس يقوى على الضررس والطحن... وإن قال: لا والله إن اشتكيت ضرساً لى قط، ولا تجلجل^(٢) لى سن عن موضعه منذ عرفت نفسى، قال: يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العمور^(٣) وتقوى الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولها، وإعفاء الأضراس من المضغ يريحها، وإنما الفم جزء من الإنسان...).

والجاحظ يبدو لنا فى النص السابق أدبياً، وفناناً قديراً، أخذاً بزمام الكلام، متمكناً من تصريفه حيث شاء وإقناع القارئ بما يريد أن يطرحه من أفكار، وهو فن شاع لدى كتاب القرن الرابع عموماً، وكتاب المعتزلة خصوصاً الغرض منه أن يبرز الكاتب مقدرته ومهارته فى تصريف وجوه الكلام إثباتاً ونفيًا من خلال ذكر الشيء ونقيضه، وهناك غرض آخر يلحظه البعض (كالجاحظ) وهو التهكم، والسخرية بواسطة ذكر المفارقات والمتناقضات وهو فن نثرى آخر أبدع فيه المعتزلة، سنأتى على ذكره فى الصفحات التالية.

• ذكر الشيء ونقيضه:

ومن النماذج الأخرى الطريفة التى ذكرتها كتب الأدب لهذا الضرب من النثر ما رواه المرتضى فى أماليه عن النظام من (أن أباه جاء به يوماً إلى الخليل بن أحمد ليتعلم منه فقال له الخليل يوماً ليمتحنه وفى يده قدحٌ زجاج: يا بنى صف لى هذه الزجاجة، فقال: أمدح أم بدم: قال بدم، قال نعم، تريك القذى، وتقيك الأذى، ولا تستر ما وراء. قال: فدمها. قال: سريع كسرهما، بطى جبرها، قال: فصف هذه النخلة، وأوماً إلى نخلة فى داره، فقال أمدح أم بدم: قال بدم، قال: حلو مجتناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها، قال: فدمها. قال: هى صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى، فقال الخليل: يا بنى لحن إلى التعلم منك أحوج^(٤)).

وهذه الأجوبة من النظام تدل على الذكاء الحاد، وسرعة البديهة، ومقدرة أدبية فائقة هلى الإتيان بالصناعات البديعية كالسجع.

(١) الحاكّة: السن.

(٢) لجلجل: تضعضع.

(٣) العمور: واحدها عمر وهو لحم ما بين الأسنان.

(٤) أمالى المرتضى ج١.

• الوصف:

ومن ضمن المجالات الثرية الأخرى التى برع فيها المعتزلة أكثر من غيرهم ، وعرفوا بها الوصف بنوعيه الحسى ، والمعنوى ؛ أى وصف الأشياء الحسية ، والمعانى والمفاهيم المعنوية . وقد تميز وصف المعتزلة بالدقة ، واستيعاب التفاصيل ، والخيال الخصب ، والصور البلاغية والبيانية البديعة ، والإطناب ، ومن ضمن الظواهر الجديدة التى أتوا بها فى مجال الوصف التى لم تكن معهودة تماماً فى النثر العربى وصفهم للمفاهيم والحقائق المعنوية كاللذة ، والألم ، والسعادة ، والشقاء والعشق ، والخوف ، والجبن ، والكرم ، والبخل ، وبالتأكيد فإن الاتجاه إلى وصف المعانى والمفاهيم يعد أثراً من آثار الاعتزال القائم على النزعة العقلية فى آثار ومؤلفات المعتزلة ، هذه النزعة التى دفعتهم إلى أن يعالجوا كل ما له صلة بعالم المعانى فى نثرهم .

وبطبيعة الحال ، فإن مثل هذا الاتجاه الوصفى لم يكن قبل ازدهار الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى شائعاً فى النثر العربى ، وإنما كان مقصوراً غالباً على الشعر ، وبذلك فقد كان للمعتزلة فضل كبير فى إدخال هذا اللون من الوصف إلى الأدب العربى فى العصور الإسلامية المتأخرة بعد القرن الثانى الهجرى .

• نماذج من وصف المعتزلة:

تصادفنا فى كتاب البخلاء ، والحيوان للجاحظ ، الكثير من النماذج الرائعة الطريفة للوصف بالمواصفات التى ذكرناها منها قطعة وصفية وصف من خلالها الجاحظ صورة معركة عنيفة حدثت بين ذبابة ملحاح ، والقاضى (عبدالله بن سوار) قاضى البصرة ، يقول الجاحظ فى تصوير هذه المعركة الطريفة :

(كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له (عبدالله بن سوار) لم ير الناس حاكماً قطّ ولا زميماً^(١) ، ولا ركيناً^(٢) ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك ، كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى^(٣) ولا يتكى ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته^(٤) ، ولا يحول رجلاً على رجلٍ ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة

(١) جميلاً وقوراً . (٢) الركين : الثابت الرزين .

(٣) احتبى بالثوب اشتمل به ، جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٤) الحبوته والحبوة : ما يحبب به .

منصوبة . . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه، وفي السماط^(١) بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق عينيه، فرام الصبر في سقوطه على المؤق^(٢)، وعلى عضه ونفاذ خرطومه، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته^(٣)، أو يغضن^(٤) وجهه، أو يذب^(٥) بإصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله، وأوجعه، وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحى ريشما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في كل مكان أوهاه قبل ذلك، فكان احتمال له أضعف، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد في شدة الحركة، وفي فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فمازال يلح عليه حتى استفرغ صبره، وبلغ مجهوده، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه، وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بقدر ما رده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم أجهأ إلى أن يذب عن وجهه بطرف كُمه، ثم أجهأ إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أن فعله كان بعين من حضره من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء، وأزهى من الغراب، وأستغفر الله، فما أكثر من أعجبتة نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً، وقد علمت أنى عند الناس من أزمّت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ وكان بين اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيباً في أصحابه، وكان أحدٌ منهم لما يطعن في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمناة^(٦).

وبعد، فإن الجاحظ يعرض لنا في النموذج السابق صور فنية طريفة رائعة مزوجة ببعض التندر والفكاهة، لمشهد طريف يصور لنا فيه معركة عنيفة حامية الوطيس بين ذبابة لجوج ملجاح وبين رجل عرف عنه الهيبة والوقار (وهذا ما يزيد الصورة طرافة ويضفي عليها أكثر الجانب الفكاهي) خصوصاً وأن الجاحظ أطنب كثيراً في مقدمة النص في وصف وقار الرجل وهيئته وعظم قدره لدى أصحابه، ولنا أن نتصور مدى طرافة الصورة الفكاهية لهذا

(٢) المؤق : مجرى الدمع من العين .

(٤) يغضن : يثنى ويجعد .

(٦) الحيوان جـ ٣ .

(١) سماط القوم صفهم والجمع سُمَط .

(٣) أرنبة الأنف : طرفه .

(٥) يذب : يدفع .

الرجل المسكين الذى يحاول جهد الإمكان أن يبدو على هيئة وقورة مهيبة أمام الناس ، وهو يدافع تلك الذبابة المزعجة التى آلت على نفسها أن تخرجه عن وقاره وسكونه المعهودين عنه .

وسواء أكانت هذه الصورة حقيقية أم من نسج خيال الجاحظ الذى عُرف بخياله الخصب ، وقدرته الفذة على ابتداع الصور والمعانى ، فإنها تدلنا على مدى قدرة أدباء وكتّاب المعتزلة على استغراق صنعة الوصف بكل مفرداتها وتفصيلاتها ، ومحاولتهم من خلال هذا الوصف الدقيق المتشعب النفوذ من الظواهر الخارجية إلى أعماق المشاعر والأحاسيس الإنسانية الكامنة وراءها .

• نماذج من وصف المعتزلة للأمور المعنوية:

ومن نماذج وصف المعتزلة للأمور المعنوية ما نقل عن أبى هذيل العلاف فى وصف حقيقة العشق ، حيث يقول فى هذا المجال :

(العشق يختم على النواظر ، ويطلع على الأفئدة ، مرتعه^(١) فى الأجسام ، ومشرعه^(٢) فى الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متفنن الأوهام ، لا يصفو له مرجو ، ولا يسلم له مدعو ، تسرع إليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع^(٣) الموت ، ونقعة^(٤) من حياض الشكل غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة توجد فى السمائل ، وصاحبه جواد لا يصغى إلى داعية المنع ، ولا يصيخ^(٥) لنزع العذل^(٦) .

• إدخال الموضوعات العلمية والفلسفية فى مجال الأدب:

ومن بين الإسهامات الأخرى التى أسهم من خلالها المعتزلة بشكل فاعل ومؤثر فى إغناء الأدب العربى ، وتنويع أغراضه وموضوعاته التى كانت مقتصرة على الأغراض التقليدية كالرسائل الإخوانية ، ورسائل الاعتذار ، والاستعطاف ، والإخوانيات وما إلى ذلك ، إدخالهم للموضوعات العلمية والفلسفية فى مجال الأدب ، وإخضاع تلك الموضوعات للأسلوب الأدبى ، والمعالجة الفنية ، وتبسيط هذه الموضوعات من خلال ذلك وتقديمها إلى عامة الناس .

(١) المرتع : المكان الخصب الذى لا يعدم الإنسان فيه شيئاً . (٢) المشرع : والجمع مشارع : مورد الشارية .

(٣) النقيع : الشراب ، أو الماء البارد العذب ، والمراد هنا السم .

(٤) نقعة : الغرفة من الماء المتجمع . (٥) يصغى ويستمع .

(٦) وفيات الأعيان ج٣ .

١ - الجاحظ :

ويبرز لنا في هذا المجال ثلاثة كتّاب من المعتزلة أغنوا الأدب العربي في هذا المجال من خلال كتاباتهم وتأليفاتهم الغزيرة في الموضوعات العلمية والفلسفية وتقديمها بأسلوب أدبي وفني رائع وجذاب، وهم الجاحظ وأبو حيان التوحيدى، والصاحب بن عباد. فمن نشر الجاحظ في هذا المصنوع، تحدّثه عن بعض القضايا الفلسفية المعقدة من مثل قضية الخير والشر، وضرورة امتزاجهما مع بعض، وتواجدهما معاً لكي تتحقق مصلحة الكون، وعمارة الأرض كقوله في كتاب (الحيوان) :

(اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدّتها، امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعفة بالرفعة، والكثرة بالقلّة، ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبيت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة، وكرب الوجوم، ولم تكن للنفس آمال، ولم تشعبها الأطماع، ومن لم يعرف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الأنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السبع والبهيمة . . . فسبحان من جعل منافعها نعمة، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين ملذوم ومؤلم وبين مؤنس وموحش، وبين صغير حقير، وجليل كبير، وبين عدو يرصدك وبين عقل يحرسك، وبين مسالم يمنحك، وبين معين يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعهما تتم النعمة وفي بطلان واحد منهما بطلان الجميع قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً . . .) (١)

إن الأسلوب الأدبي واضح في ثنايا النص السابق رغم أن الجاحظ يطرح قضية فلسفية بحثية هي قضية حقيقة امتزاج الخير بالشر، وضرورة هذا الامتزاج لتسيير أمور الكون والحياة، ولكي يجد الثواب والعقاب معناهما ومصداقهما، وتتحقق الحكمة من خلق الجنة والنار، ويجد الإنسان طعم السعادة بعد الشقاء، واللذة بعد الألم.

ومع أن هذا الموضوع يعد من الموضوعات الفلسفية المعقدة القائمة على التأملات والملاحظات الذهنية المجردة إلا أن الجاحظ وبفضل أسلوبه الأدبي والفني الشيق استطاع أن يقدم هذا الموضوع إلى القراء في حلة أدبية رائعة أبعدت الجفاف العلمي الرتيب عن الموضوع.

٢ - أبو حيان التوحيدى:

وكما عرف الجاحظ بهذا الاتجاه، فقد عُرف أيضاً به جاحظ القرن الرابع أبو حيان التوحيدى وربما بغزارة أكثر لأن أبا حيان اتجه في مؤلفاته غالباً إلى طرح القضايا الفلسفية بأسلوبه الميال إلى الروح الأدبية كما نلاحظ ذلك بوضوح في (المقابسات) و(الإمتاع والمؤانسة).

ومن النماذج في هذا المجال النص التالى الذى اقتبسناه من كتاب (المقابسات) حيث يتحدث (أبو حيان) عن موضوع فلسفى هو أن العالم من حيث هو كائن فاسد، ومن حيث هو فاسد كائن:

(العالم من حيث هو كائن فاسد، ومن حيث هو فاسد كائن، فلذلك نظمه بدد، وبدده نظم، ومتصله مفصول، ومفصوله متصل، وغفله موسوم، وموسومه غفل، ويقظته رقاد، ورقاده يقظة، وغناه فقر، وفقره غنى، وحياته موت، وموته حياة. . . ها هنا مثل ينزع إلى الحس ضرورة، ويعترف به العقل اضطراراً، انظر إلى السماء نظراً شافياً، وتأملها تأملاً بليغاً وحل في آفاقها ببحثك ونظرك ملياً، واستقر صورها استقراء تاماً، فإنك تجد نجومها منتشرة متساقطة كأن سلكها قد وهى، ونظمها قد انخرط، وعلى هذا إدراك الحس، وسابق العيان، وشهادة النظر، وظاهر الخبر والأثر، ثم إنك لا تستثبت بعد إمعان النظر، وإنعام الفحص، ومواصلة البحث أن تجدها متسقة اتساقاً ومتفقة اتفاقاً، وموزونة وزناً، ومعدلة تعديلاً، ومنظومة نظماً، ومعبأة تعبئة، ومزينة بكل زينة، ومحلاة بكل حلية حتى يقضى اختياراً واضطراراً، وانتهاراً واقتداراً أنها زالت عن حالتها المعروفة، أو حالت عن صورتها المألوفة بأقل مثقال ذرة، أو هباء تربة. . .) (١).

ويعالج التوحيدى فى النص - كما هو الحال بالنسبة إلى الجاحظ - واحداً من المواضيع الفلسفية معالجة دقيقة، متقضية بأسلوب تغلب عليه الروح الأدبية والفنية من خلال

(١) المقابسات، وسيأتى شرح غريب هذا النص فى الباب الثالث فى الفصل الذى عقدهناه لترجمة أبى حيان التوحيدى.

توظيف السجع ، واستخدام المقابلات محاولاً بذلك أن يستعرض القضايا الفلسفية التي اهتم المعتزلة بتناولها وطرحها بأسلوب أدبي مبسط يفهمه عامة الناس ، وهي - هنا - قضية اقتران الكون مع الفساد ، والظهور مع الزوال ، والنشوء مع الانتهاء في جميع ظواهر الكون فبينما هي تتكون وتظهر إلى الوجود إذا بها تسلك طريق الفساد والزوال ، وبينما هي تفسد ويتبدد نظمها إذا بها تعاود اتساقها ، وانتظامها من جديد .

ولا يكتفى (أبو حيان) بعرض الظواهر التي تؤيد فكرته ، بل يدعو قارئه إلى أن يلاحظ ويستقري ذلك بنفسه عبر التأمل الدقيق والمتمعن والعميق للظواهر الكونية ومنها السماء وما تحفل به من أبراج ونجوم تبدو متناثرة في غير منازم واتساق ، ولكن من خلال الملاحظة الدقيقة يكتشف الإنسان النظام والاتساق بينها ، واستقرارها في مواقع محددة لا تحيد عنها تحقيقاً لهدف واحد عينه لها الخالق - سبحانه - .

٣- الصاحب بن عباد

ومن نماذج نثر الصاحب بن عباد الشاعر والكاتب المعروف في القرن الرابع الهجري رسالة في الطب بعث بها إلى أحد أصدقائه وقد شكى إليه علة ألمت به :

(قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه فدلتنى جملته على بقايا في البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية ، فأما الذي يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلامرين : أحدهما أن الجسم كما قلت أنفاً لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة السابقة ، والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفيات ، ولزت بها المبردات ، وقلت الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد من أن يطفى ويغذى ، ثم يكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها . . .)^(١) .

• التهكم والسخرية والنقد:

ومن ضمن الاتجاهات الأخرى الشائعة في نثر المعتزلة مما يشكل إحدى خصوصيات نثرهم وإسهاماتهم في الأدب العربي الميل إلى التهكم والسخرية ، ومزج الجد بالدعابة والمرح ، ولعل هذه الخصوصية تعود بالدرجة الأولى إلى ما عرف عن المعتزلة من اعتداد

(١) بنيمة الدهر ج ٣ . وهي رسالة طويلة في الطب قال عنها الشعالبي : (سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذري يقول : إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادوا عليها) (إلى أن قال) ووجدتها تجمع إلى ملاحه البلاغة ، ورشاقة العبارة حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه وتدل على النبحر في علمه ، وقرة المعرفة بدقائقه) .

بأنفسهم وبمبادئهم وأفكارهم وإيمانهم بها إلى الحد الذي جعلهم يتهمون من الآخرين ويسخرون بسلوحياتهم ومعتقداتهم وأفكارهم ولكنه مع ذلك ليس من نوع التهكم الذي منشؤه الضغائن والأحقاد الشخصية والقبلية كما نرى ذلك في الهجاء، ويمكننا أن نقول في هذا المجال أن الهجاء معدوم في أدب المعتزلة، وأن التهكم والسخرية جاءا ليحلا محل الهجاء في آثارهم، وبذلك فقد أسهموا من خلال ذلك في ترسيخ دعائم لون جديد من الألوان الأدبية ألا وهو فن التهكم، والسخرية، والفكاهة الذي شاع في العصور العباسية المتأخرة.

• نماذج من نثر المعتزلة الساخر:

قال ثمامة بن أشرس للمأمون وهما بصدد الحديث عن العامة: (. . . إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، والله يا أمير المؤمنين مررت منذ أيام في شارع وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائمٌ ينادى: هذا دواءٌ لبياض العين والغشاوة والظلمة، وإن إحدى عينيه لمطموسة، والأخرى موشوكة^(١)، والناس قد اجتمعوا، فدخلت في غمار تلك العامة ثم قلت: يا هذا! إن عينك أحوج من هذه العين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء، وتخبر أنه شفاء لوجع العين، فلم لا تستعمله؟ فقال: أنا في هذا الموضوع منذ عشرين سنة فما مرَّ بي شيخٌ أجهل منك، قلت: وكيف ذلك؟ قال: يا جاهل، أتدرى أين اشتكت عيني؟ قلت: لا. فقال: اشتكت بمصر وكيف ينفعها دواء بغداد؟ قال: فأقبلت الجماعة وقالوا: صدق الرجل، أنت جاهلٌ، فقلت: لا والله ما علمت أن عينيه اشتكت بمصر، فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة، فضحك المأمون وقال: ما لقيت العامة منكم؟ قلت: ما لقيت من الله أكبر، قال: أجل^(٢).

إن ثمامة يسخر في قصته التي رواها للمأمون من جهل دهماء الناس وعامتهم، وسذاجتهم، وتصديقهم ادعاء كل مدَّع، فهذا النثر يمكننا أن ندرجه تحت عنوان الأدب الساخر من المجتمع وما يشيع فيه من معتقدات وقناعات لا تستند إلى دليل، ولا تعتمد على برهان وحجة منطقية، ثم حماس هؤلاء العامة، ودفاعهم الأعمى عن تلك المعتقدات.

(١) لم نعر لهذه الكلمة على معنى يناسب السياق، وربما كان أصلها (مشاكة) بمعنى دخل فيها الشوك.

(٢) المنية والأمل.

• التهكم من الخرافات:

ولذلك فقد شاع بين المعتزلة لونٌ من السخرية ينصبُّ على التهكم من الخرافات والخزعبلات المنتشرة بين عامة الناس، وهو لونٌ ينضوي تحت عنوان الأدب الساخر والتهكم مصدره الرئيسى النزعة العقلية للمعتزلة، وإيمانهم بضرورة وجود الأسباب والمقدمات والعلل للظواهر المختلفة والأسباب المنطقية المؤدية إليها، ولذلك فليس من العجيب أن نرى المعتزلة يخصصون جزءاً من آثارهم النثرية للسخرية من الخرافات ومحاربتها، كقول الجاحظ فى كتاب (الحيوان) ساخراً من ادعاء البعض أن من الممكن أن تنعقد صلة بين الإنسان والجن:

(وللناس فى هذا الضرب ضروبٌ من الدعوى، وعلماء السوء يظهرن تجويزها وتحقيقها؛ كالذى يدعون من أولاد السعالى^(١) من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروى أبو زيد النحوى عن السعلاة التى أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت إليهم فقال شاعرهم:

أتوا نارى فقلت منون أنتم^(٢) فقالوا الجنُّ، قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيمٌ نحسدُ الإنسانَ الطعاما

ولم أعب الرواية وإنما عبتُ الإيمان بها والتوكيد لمعانيها، فما أكثر من يروى هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرواية له سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله)^(٣).

وللنظام تفسير علمى طريف لظاهرة الاعتقاد بوجود تلك الكائنات الأسطورية بين الأعراب يدل على عظم ثقافة المعتزلة، ووعيهم، وتفكيرهم العلمى، فالنظام يفسر هذه الظاهرة فى النص التالى تفسيراً علمياً يرجعها إلى أسباب نفسية تتعلق بطبيعة البيئة التى يعيش فيها الإنسان البدوى والتى تفرض عليه أن يعيش حالة الوحدة والوحشة التى تملى عليه أن يتصور كائنات غريبة لا وجود لها أساساً، وكثرة أوقات الفراغ التى تعتبر عاملاً يهين له الأرضية لاختلاق الأوهام، وتصوير الأخييلة فى صورة الواقع، يقول النظام فى هذا النص:

(١) السعلاء، والسعلاة، والسعالى: أنثى الغول أو الغول والجمع: سعالى وسعليات.

(٢) منون: من على لغة بنى تميم.

(٣) الحيوان ج١.

(. . . أصلُ هذا الأمر وابتدأؤه أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، وعملت فيهم الوحشة ، ومن انفراد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد من الأنس استوحش ولاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . . وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتفضت أخلاطه فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل ، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فزادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربى عليه الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيطان^(١) في الليالي الحنادس^(٢) ، فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ، وربما كان في أصل الطبيعة كذاباً نفاقاً^(٣) ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها ، قال عبيد بن أيوب :

فله در الغول أي رفيقة لصاحب قفر خائف متقتر^(٤)

. . . ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ، ومدَّ لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا عامياً لم يأخذ نفسه قطّ بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط . . .)^(٥)

إننا نقف في النص السابق إزاء رجل نور العلم عقله ، ورفع إيمانه بالأسباب والقواعد المنطقية والعقلية من مستوى وعيه ، فأراد أن يؤمن بالدين خالصاً ، بريئاً من الخرافات والأساطير والأباطيل التي أضافتها العامة إلى الدين وما هي من الدين في شيء ، صحيح أن الدين طلب منا أن نؤمن بالجن وغيره من المغيبات ، إلا أن عامة الناس أضافت إلى هذه

(١) الغيطان مفردة . غيط : المظمن الراسع من الأرض .

(٢) الحنادس : مفردة الحندس : الظلمة ، الليل الشديد الظلمة .

(٣) النفاق : المتكبر ، والذي يفخر بما ليس عنده .

(٤) تقتر فلان : غضب وتهايا للمخاصمة ، وتقتر للصيد : استتر في القتر ليخدعه ويصيده ، وتقتر عنه : تنحى ،

وتقتر فلاناً : حاول خداعه عن غفلة ، والمراد في البيت (المستجير من الخوف) .

(٥) الحيوان ج ٦ .

المعتقدات من عندها الكثير من الخرافات والمبالغات كالادعاء الذي نفاه المعتزلة والمتمثل في إمكانية حدوث الاتصال بين الجن والإنس ، وأن هناك مخلوقات من نوع الجن والعفاريت استطاع البعض أن يراها، ويتحدث معها، بل وأن يتزوج منها!!

وبالإضافة إلى كتاب البخلاء ، والنصوص الأخرى التي وردت عن المعتزلة في فن الأدب التهكمى الساخر ، هناك رسالة التبريع والتدوير للجاحظ والتي تعتبر نموذجاً راقياً ومتطوراً ومستقلاً للأدب الساخر ، وهي رسالة خصصها للتهكم من شخص يدعى (أحمد بن عبد الوهاب) أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات^(١) ، وهي رسالة طويلة تبلغ نحو خمسين ومائة صفحة بدأها بمقدمة بسط فيها موضوع هذه الرسالة^(٢) .

• نموذج من رسالة التبريع والتدوير:

(كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرتة^(٣) واستفاضة خاصرته مُدوراً، وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعى السباطة^(٤)، والرشاقة، وأنه عتيق^(٥) الوجه، أحمص البطن^(٦)، معتدل القامة، تام العظم وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد^(٧)، رفيع العماد عادي^(٨) القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم، وكان كبير السن، متقادم^(٩) الميلاد، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد...)^(١٠)

فالجاحظ يرسم لنا في النص السابق صورة كاريكاتيرية ساخرة لأحمد بن عبد الوهاب ويستخدم كل ما أوتى من قدرة ومهارة عرف بهما للتهكم من هذا الشخص، والإمعان في السخرية منه سواء من ناحية شكله، ومظهره الخارجى، أو من ناحية أفكاره، وطريقته في التفكير كما نلاحظ في النص التالى:

(١) الأغاني (طبع الساسى) ج ٢١ .

(٢) البخلاء، والزيات (ت ٢٣٣هـ) أديب وشاعر، ووزير المعتصم والرائق العباسيين، عمل ضد المتوكل فانتقم منه هذا بعد توليه الخلافة، له ديوان شعر [المتجد في الأعلام].

(٣) الجفرة: جوف الصدر. (٤) السباطة: اعتدال القامة. (٥) العتيق: الجميل هنا.

(٦) أحمص: ضامر. (٧) الباد: باطن الفخذ. (٨) عادي: مرتفع.

(٩) متقادم الميلاد أى بعيد عهده عن يوم ولادته أى طويل العمل.

(١٠) الفن ومذاهبه فى النثر العربى، شوفى ضيف، نقلًا عن رسائل الجاحظ تحقيق شارل بلات ، أورد الرسالة بأكملها.

(وبعد فأنت - أبقاك الله - فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حدٌ لا يفل وغرب^(١) لا يثنى ، وهو قياسك الذى إليه تنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أن تقول : وما على أن يرانى الناس عريضاً ، وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود^(٢) رشيق ، وقد علموا - أبقاك الله - أن لك مع طول الباد ركباً ، طول الظهر جالساً^(٣) ، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، ويديع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجفيرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض^(٤) الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض^(٥) ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول . . .)^(٦) .

ومن خلال تأملنا لهذه النصوص وغيرها يظهر لنا أنها من نوع الأدب الساخر البحت الذى لا يقصد منه الجاحظ الهجاء والنيل من شخصية الآخرين ، وإنما يهدف من ورائه التندر والتفكه والتسلية وإظهار المهارة فى تصريح وجوه الكلام ، والإتيان بها على حسب ما يريده الأديب ، ومن المعلوم أن الجاحظ كان معروفًا بشخصيته الميالة إلى المرح ، والمزاح ، والتفكه ، وهذه الشخصية تتجلى لنا فى أغلب مؤلفاته إلى درجة أنه كان - فى بعض الأحيان - يوجه سهام سخريته ، وتهكمه حتى إلى نفسه كما فعل ذلك فى القصة التالية التى رواها عن نفسه :

(ما أخرجنى أحدٌ مثل امرأتين رأيت إحداهما فى المعسكر ، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت : انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا ، وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى ، فقممت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها أتت إلى بفص ، وأمرتني أن أنقش لها صورة شيطان ، فقلت : يا ستى^(٧) ما رأيت الشيطان ، فأنت بك ، وقالت ما سمعت) .

(١) غرب : حد . (٢) مقدود : حسن القد والقوام .

(٣) أى تجمع بين طول باطن الفخذ فى حالة ركوبك وبين طول الظهر فى حال جلوسك .

(٤) مستفيض : مملوء . (٥) الأعاريض : أوزان وبحور الشعر .

(٦) المصدر السابق نقلاً عن رسائل الجاحظ .

(٧) أى يا سيدنى . والجمع سنات وهى كلمة مولدة .

• خلاصة ونتائج:

وبذلك يتبين لنا أن إسهامات المعتزلة في الأدب العربي تجلت أكثر ما تجلت في مؤلفاتهم، وآثارهم الثرية، وأن المذهب المعتزلي باتجاهاته، ونزعاته، وأصوله التي عرفت عنه، والتي قامت في الأساس على الثقافة العقلية التي تأثروا فيها بالثقافة اليونانية قد انعكس بوضوح على مؤلفاتهم وآثارهم تلك وخصوصاً الأدبية منها فجاء نثرهم متميزاً تطفئ عليه روح الاعتزال من الناحيتين، الشكلية والمضمونية؛ فمن الناحية الشكلية ابتدعت أو طورت أقلام المعتزلة أغراضاً وموضوعات جديدة في الأدب العربي كإسهامهم الفاعل والمؤثر في تأسيس علم البيان والبلاغة من خلال بحوثهم ودراساتهم المتعمقة في الألفاظ والمعاني والعلاقة بينهما، وتأليفهم العديدة في الإعجاز القرآني؛ هذا الموضوع الذي استعرضناه وبحثناه بشكل مستقل في هذا الباب.

ومن ضمن الإسهامات الأخرى للمعتزلة في إغناء الناحية الشكلية من الأدب العربي ابتكارهم لموضوعات أدبية جديدة كالأدب الساخر والتهكم، وطرح الموضوعات العلمية والفلسفية في كتاباتهم كالحديث عن الشيء ونقيضه، ووصف الحقائق والمفاهيم المعنوية. وقد عُرف المعتزلة أيضاً بمقدرتهم الفذة على الجدل وخروجهم متصرين منه في أغلب الحالات نتيجة لثقافتهم العقلية والمنطقية الواسعة، وتمرسهم في قواعد وأساليب الجدل التي اقتبسوها من اليونانيين بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى الذكاء، وحضور البديهة اللذين كان زعماؤهم يتميزون بها.

وفي باب الوصف كان المعتزلة من أمهر الأدباء والناثرين في تقديم أوصاف دقيقة مستوعبة لجميع تفاصيل الموضوعات سواء أكانت مادية محسوسة أم معنوية مجردة، كما رأينا ذلك لدى الجاحظ، والنظام، وثمانية بن أشرس، وأبي حيان التوحيدى وغيرهم، وذكرنا أن الخصائص التي تجدها في وصفهم من دقة وشمولية إنما هي أثر من آثار المذهب الاعتزالي الذي يدعو صاحبه إلى التأمل، والتدقيق وتفصي الأشياء والظواهر المحيطة به.

كما سبقت الإشارة إلى أن المعتزلة لعبوا دوراً كبيراً في تبسيط الموضوعات العلمية والفلسفية المعقدة والشائكة، وتقديمها إلى عامة الجمهور بأسلوب سهل مبسط جذاب يتميز بالطابع الأدبي والفني في الطرح والتناول كما لاحظنا ذلك لدى مؤلفات الجاحظ، وأبي حيان التوحيدى، وذكرنا أن هذه الخصوصية (أي إخضاع الموضوعات العلمية للأسلوب

الأدبي) تمثل إحدى الخدمات الكبرى التي قدمها المعتزلة إلى الأدب العربي بعد أن كان نثره مقصوراً على الموضوعات والأغراض التقليدية .

وذكرنا أيضاً أن من بين الموضوعات الجديدة في نثر المعتزلة والتي تدل على ثقافتهم العقلية والراقية ، وسبقهم لعصرهم في طريقة تفكيرهم ومحاربتهم للخرافات ، والأوهام ، والأباطيل التي شاعت بين العامة ونسبوها إلى الدين ، كما لحظنا ذلك في النصوص التي أوردناها آنفاً لثمامة بن أشرس ، والجاحظ والنظام .

شعر المعتزلة

أثر عن المعتزلة - كما هو الحال بالنسبة إلى الفرق والمدارس الإسلامية الأخرى - قدر لا يستهان به من الأشعار في الموضوعات والأغراض المختلفة يقف في مقدمتها الدفاع عن عقيدة الاعتزال نظراً إلى أننا آلبنا على أنفسنا في هذا الكتاب أن نستقرئ ونتقصى آثار الاعتزال فيما خلفه زعماءه وأدباؤه وشعراؤه في المجال الأدبي ، وفي الأدب العربي بصورة عامة .

وكما بدت آثار الاعتزال واضحة على المؤلفات النثرية للمعتزلة - وهو الجانب الذي برع فيه المعتزلة أكثر - أي الجانب النثري - فقد بدت واضحة أيضاً على ما أثر عنهم من قصائد وأشعار روتها لنا المصادر التاريخية بشكل مبعثر ومتفرق .

وفي مقدمة هذه الآثار التي نلاحظها في شعر المعتزلة - كما هو الحال بالنسبة إلى نثرهم - النزعة العقلية والفلسفية والمنطقية التي عرفوا بها ، صحيح أنهم نظموا في نفس الأغراض والموضوعات التقليدية للشعر العربي إلا أن الاتجاه العقلي كان واضحاً في ثنايا أشعارهم ، معبراً عن نفسه في كثير من الأحيان في استخدام المصطلحات والتعابير والمعاني الفلسفية والكلامية أو استخدام التشبيهات والعلاقات الجدلية والمنطقية ونقلها إلى الموضوعات الوجدانية للشعر .

• الغزل وآثار الاعتزال فيه:

روى عن بعض زعماء المعتزلة وأدبائهم وشعرائهم كالنظام ، والقاضي الجرجاني . والصاحب بن عباد بعض الأشعار الغزلية بدا فيها الاتجاه الاعتزالي في التفكير واضحاً وخصوصاً بالنسبة إلى النظام الذي عُرف كأحد أبرز زعماء المعتزلة الذين تعمقوا في

الدراسات الفلسفية والمنطقية والكلامية إلى حد بعيد حتى أثر اتجاهه هذا على شعره أيضاً،
فمن شعره في الغزل :

توهمه طرفي فألم خدّه فصار مكان الوهم من نظري أثر (١)
وصافحه قلبي فألم كفه فمن صفح قلبي في أنامله عقر
ومرّ بقلبي خاطراً فجرحتُه ولم أر جسمًا قطُّ يجرحُه الفكرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحسنٍ وتعطفٍ يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ (٢)

وواضح لما لدراسات المعتزلة وبحوثهم في العدل والتوحيد وتنزيه الخالق - تعالى - من
الصفات من أثر في المعاني والتشبيهات والاستعارات التي استخدمها النظام في الأبيات
السابقة ، كما تلاحظ ذلك أيضاً في الأبيات التالية المروية عن النظام كذلك :

وشادن (٣) ينطق بالطرف يقصر عنه منتهى الوصف
رقّ فلو بزت (٤) سـرابيله علقه الجوُّ من اللطف
يجرحه اللفظ بتكراره ويشتكى الإيماء (٥) بالطرف
أفديه من مغري بما ساءني فإنه يعلم ما أخفى (٦)

ويعتبر الصاحب بن عباد أحد أعلام المعتزلة الآخرين الذين نظموا في الغزل متأثرين
بنزعتهم العقلية الاعتزالية كقوله :

كنت دهرًا أقول بالاستطاعة وأرى الجبر ضلة وشناعة
ففقدت استطاعتي في هوى ظبي فسمعاً للمجبرين وطاعة (٧)

فالصاحب يقدم لنا من خلال البيتين السابقين صورة فنية طريفة في الغزل عبر الإشارة
إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن العبد حرّ مختار في أفعاله ، وإلى مذهب الجبرية الذين
يقولون بأن الإنسان مجبر غير مختار في أفعاله .

ومن غزله أيضاً :

ولما تناءت بالأحبة دارهم وصرنا جميعاً من عيان إلى وهم
تمكن مني الشوق غير سامح كمعتزلي قد تمكن من خصم (٨)

(٢) أمالي المرتضى ج١ .

(٤) بزت : سبت ونزعت .

(٦) سرح العيون ، تاريخ بغداد ج٦ .

(٨) يتيمة الدهر ج٣ .

(١) الأثر والأثر : أثر الجراح بعد البرء .

(٣) الشادن : ولد الظبية والجمع : شوادن .

(٥) الإيماء : الإشارة

(٧) زهر الآداب ج٤ .

ففى البيت الأول يستخدم الصاحب فى غزله مصطلحين من المصطلحات الفلسفية ، وهما (العيان) و(الوهم) ، وفى البيت الثانى لا ينسى أن يكيّل المدح للمعتزلة من خلال وصفهم بأنهم أقوياء الحجّة متمكنون من خصومهم فى المناظرات .

ومن أبياته الغزلية الأخرى التى نلاحظ فيها آثار التفكير المعتزلى واضحة ، قوله :

على كالغزال وكالغزالة رأيت به هلالاً فى غلاله
 كأن بياض عُرتة^(١) رشاد كأن سواد طُرتة ضلاله
 كأن الله أرسله نبياً وصيّر حسنه أقوى دلاله^(٢)

• المدح :

وفى موضوع المدح لا نكاد نظفر من شعر المعتزلة بشيء ذى بال يدل على تأثرهم بمذهبهم فى هذا اللون من الشعر أو تجديدهم فيه ، فالغالبية العظمى من الأشعار التى رويت للمعتزلة فى هذا الباب - أى باب المدح - هى من نوع الأشعار التقليدية ، التكسبية العدمية الحظ من الابتكار والإبداع والتجديد .

والشعر الوحيد الذى عثرنا عليه فى المدح والذى نظمته فى إطار تأثره بالأفكار المعتزلية ، بيتان للنظام يمدح فيهما تلميذه الجاحظ :

حبنى لعمر و جوهر ثابتٌ وحبه لى عَرَضٌ زائلٌ
 به جهاتى الست مشغولةٌ وهو إلى غيرى بها مائلٌ^(٣)

• الفخر :

وهو من الأغراض الهامة التى تناولها شعراء المعتزلة وتجلّت فيها نزعتهم التجديدية ذلك لأن فخرهم - خلافاً للشعراء الآخرين - انصبّ على مذهبهم ورجالهم معرضين عن الموضوعات التقليدية للفخر ، كالاftخار بالأحساب والأنساب والجلود وما إلى ذلك من موضوعات يتطرق إليها شعراء الفخر عادةً .

وهكذا ، فقد طرح شعراء المعتزلة موضوعات جديدة فى الفخر ، فإذا بنا نراهم يفتخرون بمذهبهم ، ويزعماء هذا المذهب ، ودفاعهم المخلص عن مبادئهم ومعتقداتهم ، وتحمّسهم اللا محدود فى نشر هذه المبادئ والمعتقدات ، حتى قال عنهم الخوارزمى : (إنّ

(١) الغرة فى كل شيء أوله وأكرمه ، وهى بياض فى جبهة الفرس ، والغرة من الرجل وجهه .

(٢) بيتمة الدهر جـ٣ ، وقد أورد صاحب البيتمة أشعاراً للصاحب بن عباد جـ٣ .

(٣) الجاحظ : حسن السندوبى .

اعتداد المعتزلة بالمعتزلي كاعتداد الشيعة بالوصي ، والإمامية بالمهدي^(١) ، وقال الجاحظ :
(إنه لو لا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولو لا مكان المعتزلة لهلكت
العوام من جميع النحل)^(٢) .

• نماذج من فخر المعتزلة:

قال بشر بن المعتمر يمدح المعتزلة ويفخر بهم ويصفهم بأنهم أهل الرئاسة في العلم ،
والمدافعون عن الدين :

إن كنت تعلم ما أقول	وما تقول فأنت عالم
أو كنت تجهلُ ذا وذا	ك فكن لأهل العلم لازم
أهل الرياسة من بنا	زعمهم رياستهم فظالم
سهرتُ عيونهم وأنت	من الذي قاسوه حالم
لا تطلبن رياسة	بالجهل أنت لها مخاصم
لو لا مقامهم رأيت	الدين مضطرب الدعائم ^(٣)

ومن النماذج الأخرى لفخر المعتزلة ، قصيدة طويلة لشاعرهم (صفوان الأنصاري) يردّ
فيها على بشار بن برد بعد أن انقلب عليهم ، ويذكر فيها فضائل ومناقب المعتزلة وما يبذلونه
من جهود ومساعٍ في سبيل نصره الدين وإعلاء كلمته ، نذكر منها الأبيات التالية :

متى كان غزال له يا ابن حوشب ^(٤)	غلام كعمرو أو كعيسى بن حاضر ^(٥)
أما كان عثمان الطويل بن خالد	أو القرم حفص نهبة للمخاطر ^(٦)
له خلف شعب الصين في كل ثغرة	إلى سوسها ^(٧) الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفلّ عزمهم	تهكم جبار ولا كيد ماكر

(١) رسائل الخوارزمي .

(٢) الحيوان ج ٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ، وانظر المنية والأمل .

(٤) كنية بشار .

(٥) يرد صفوان في هذا البيت على بشار بن برد الذي خرج من مذهب المعتزلة وهجا شيخهم واصل بن عطاء قائلاً :

مالي أشايح غزالا له عنق كتنقق الدوان ولي وإن مثالا

وعمر بن عبيد وعيسى بن حاضر من رجال المعتزلة ، والتنقق : ذكر النعام الجمع : نقانق ، والدو : الفلاة
الواسعة والمستوى من الأرض وبشار يعيب في هذا البيت على واصل عمله في الغزل .

(٦) عثمان بن خالد وحفص من رجال المعتزلة أيضاً . القرم من الرجال السيد المعظم الجمع : قروم .

(٧) سوس : نهر في المغرب بشمال إفريقيا .

إذا قال: مرو في الشتاء تطاوعوا
 بهجرة أوطان وبذل وكلفة
 فأنجح مسعاهم وأثقب زندهم^(٢)
 وأوتاد أرض الله في كل بلقع^(٤)
 وما كان سبحانه^(٥) يشقُّ غبارهم
 ولا الناطق النخار والشيخ دغفل^(٧)
 ولا القالة الأعلون رهط مكحل
 بجمع من (الجفّين) راض وساخط
 تلقّب بالغزال واحدٌ عصره
 ومن لحرورى وأخر رافض
 وأمر بمعروف وإنكار منكر
 يُصيّبون فصل القول في كل منطق
 تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم
 وسيماهمو معروفة في وجوههم
 وفي كل ركعة تأتي على الليل . . كله

وإن كان صيفًا لم يخف شهر ناجر^(١)
 وشدة أخطار وكد المسافر
 وأورى بفلج للمخاصم قاهر^(٣)
 وموضع فتياها وعلم النشاجر
 ولا الشدق^(٦) من حى هلال بن عامر
 إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر^(٨)
 إذا نطقوا بالصلح بين العشائر^(٩)
 وقد زحفت براؤهم للمحاضر^(١٠)
 فمن لليتامي والقبيل المكائر^(١١)
 وآخر مرجى وآخر حائر^(١٢)
 وتخصين دين الله من كل كافر
 كما طبقت في العظم مدية جازر^(١٣)
 على عمّة معروفة في المعاشر^(١٤)
 وفي المشى حجاجًا وفوق الأباعر^(١٥)
 وظاهر قول في مثال الضمائر

- (١) شهر ناجر: من شهور الصيف الشديدة الحرارة لدى العرب.
 (٢) أخرج الشرارة من زندهم، والزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار.
 (٣) أورى بفلج: أضاء بالظفر والغلبة. (٤) بلقع: أى الخالى من كل شيء.
 (٥) سبحانه وائل: أحد الخطباء العرب الفصحاء الذين ضرب بهم المثل.
 (٦) الشدق: جانب الفم مما تحت الخد، وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدالتها على جهازة الصوت.
 (٧) و(٨) النخار بن أوس العذرى، ودغفل بن حنظلة السدوسى، من مشاهير خطباء العرب، وكانا إذا قبضا على عصيها ووصلا أيمانها بمخاصرها أفحما كل ناطق.
 (٩) القالة الأعلون: الخطباء فى الشئون الرفيعة. رهط مكحل: هم قوم عمرو بن الأهم.
 (١٠) الجفان: هما بكر وتغلب.
 (١١) القبيل المكائر: من كائر بعياله وليس له مال.
 (١٢) يريد من الحرورى الخارجى نسبة إلى قرية بالقرب من الكوفة اجتمع فيها الخوارج بعد خروجهم على الإمام على. الرافض: الغالى من الشيعة. المرجى: من اتبع مذهب المرجئة.
 (١٣) المدية هنا: الشفرة الكبيرة الجمع: مدى. الجازر: الناحر الذابح.
 (١٤) المعاشر جمع معشر: كل جماعة أمرهم واحد.
 (١٥) حجاج المفرد: الحججة: الدليل والبرهان والعالم الثبت. الأباعر: الجمال.

وفى قصّ أهّداب وإحفاء شارب
وعنفقة مصلومة ولنعله
فتلك علامات تحيط بوصفهم
وكُور على شيب يُضىء لناظر^(١)
قُبْلان فى رُدن رحيب الخواطر^(٢)
وليس جهول القوم فى جرم خامر^(٣)

• تقديس العقل والعلم:

وبالإضافة إلى الأغراض والموضوعات السابقة، فقد روى عن المعتزلة شىء من الشعر فى أغراض مختلفة كان لمذهبهم القائم على تقديس العقل والعلم الأثر الأكبر فى التوجه إليها، ومنها مثلاً بيان فضل العلم ومنزلته السامية كقول الجاحظ:

يطيبُ العيش إن تلقى حكيمًا
فيكشفُ عنك حيرة كلّ جهل
سقام الحرص ليس له شفاء
وداء الجهل ليس له طبيب^(٤)
غداه العلم والظن المصيبُ
وقضل العلم يعرفه الأريب^(٥)

ومن ذلك أيضاً قول القاضى الجرجانى:

ما تطعمت لذة العيش حتى
ليس شىء أعزُّ عندى من العلم
إنما الذلُّ فى مخالطة الناس
صرت للبيت والكتاب جليسا
فما أتغنى سواه أنيسا
فدعهم وعش عزيزاً رئيسا^(٦)

وللشاعر السابق أبيات أخرى فى الاعتزاز بالعلم والإعراض عن مخالطة الناس فى سبيل تحصيله وبيان أن العلم رسالة مقدسة ينبغى للإنسان أن يحافظ على قدسيّتها من خلال صيانة هذه الرسالة وعدم اتخاذها وسيلة لتحقيق الأطماع الدنيوية، وهذه الأبيات تعدّ من الأبيات الرائعة فى الأدب العربى ذات المضامين الأخلاقية السامية، حيث يقول القاضى الجرجانى:

(١) أهّداب من الثوب: الخيوط التى تبقى فى طرفه دون أن يكمل نسجها، ومن النخل سعفه. إحفاء الشارب:

تقصيره من الأسفل والكور: يريد هنا العمائم.

(٢) العنفقة: شعيرات بين الشفة السفلى والذقن لحفة شعرها الجمع: عنافق. مصلومة: مقطوعة مستأصلة.

(٣) أورد الفصيحة كاملة الجاحظ فى البيان والتبيين ج ١.

(٤) الأريب: ذو الفطنة والبصر فى الأمور.

(٥) تاريخ بغداد ج ١٢، مسرح العيون.

(٦) وفيات الأعيان ج ٢.

يقولون لى فيك انقباض وإنما
ومازلتُ منحازاً بعرضى جانباً
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قد أرى
ولم أقض حقَّ العلم إن كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنبه ذلةً
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أذلوه فهان ودنسوا
ولبشر بن المعتز فى إحدى قصيدتيه الطويلتين اللتين يتحدث فيهما عن عالم الحيوان
أبيات فى الإشادة بالعقل ، وتقديسه وبيان أنه المعول عليه فى تمييز الحسن من القبح يقول
فيها :

لله در العـقل من رائد
وحاكم يقضى على غائب
وإن شيئاً بعض أفعاله
بذى قوى قد خصه ربه
وصاحب فى العسر واليسر
قضية الشاهد للأمر^(٦)
أن يفصل الخير من الشر
بخالص التقديس والظهر

وفى الحكمة أثرت عن المعتزلة بعض الأشعار المتفرقة التى سجلتوا فيها خلاصة تجاربهم
وخبراتهم فى الحياة، كقول واصل بن عطاء رئيسهم :

- (١) أحجم : أعرض .
(٢) يريد : إنى إذا استغليت المطامع وجعلتها لى سلماً لتحقيق مآربى فإننى فى هذه الحالة سوف لا أعطى العلم
حقه .
(٣) يقول : هل من المعقول أن أشقى فى طلب العلم ونأسيه ثم أجنى نتاجه بعد ذلك ذلاً ومهانة ، وإذا كان الأمر
كذلك فإن اتباع الجهل يعتبر أقرب إلى التدبير والحزم .
(٤) تعظم : صار عظيماً .
(٥) بريمة الدهر جد ، المنية والأمل ، هان : صار هيناً . دنسوا : لوثوا . محياه : وجهه . تجهم : صار جهماً أى
عبوساً .
(٦) أى إن فطرة العقل على الحكم على الأمور تبلغ حدّاً تجعله يصدر حكمه على الغائب بنفس القوة التى يصدر
فيها حكمه على الشاهد للأمر .

تحامقُ مع الحمقى إذا ما لقيتهم ولا تلقهم بالعقل إن كنتَ ذا عقل (١)
فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل (٢)
وفي الحقيقة فإن هذين البيتين يذكرنا ببيتين آخرين أحدهما للمتنبى والآخر لأبي العلاء
المعري عليهما أخذنا معناهما من بيتي واصل ، إذ يقول المتنبى :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ
ويقول أبو العلاء :

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً تجاهلتُ حتى قيل إنى جاهلُ
ولللجاحظ - وإن لم يُعرفُ كشاعر - بعض الأشعار الحكيمة أوردها له صاحب كتاب
وفيات الأعيان ، منها قوله :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوبُ دريس كالجديد من الثياب (٣)
وقوله في الزهد وذكر الموت :

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنون فمات الصديقُ ومات العدو (٤)
وقوله في ذم الدهر ، وذكر صروفه وتقلباته وتنكره للإنسان الفاضل :

لئن قُدمت قبلي رجالُ فطالما مشيتُ على رَسلي فكنت المقدماً (٥)
ولكن هذا الدهر تأتي صروفُه فتبرمُ منقوضاً وتنقضُ مبرماً (٥)
والبيت الأول يذكرنا ببيت الطغرائي في لاميته حيث يقول :

تقدمني أناسٌ كان خطوهمُ وراء خطوى إذ أمشى على مهلٍ

• التطرق إلى الموضوعات العلمية والفلسفية:

وهناك أغراض أخرى طرفها المعتزلة في أشعارهم كالموضوعات العلمية التي أرادوا من
بسطها إثبات وجود الخالق - تعالى - ، وبيان قدرته مثل قصيدتي (بشر بن المعتمر) في

(١) تحامق : أي تظاهر بالحمق . (٢) معجم الأدباء ج١٩ .

(٣) وفيات الأعيان ج٣ . (٤) على رَسلي : أي على مهلي .

(٥) أورد الفصيحة كاملة الجاحظ في البيان والنبين ج١ ، صروف الدهر : أحداثه وتقلباته ، أي أن صروف الدهر
تلم ما تشتت وتبعثر من الأمور تارة ، ثم تعود لتشتتها وتبعثرها فطبيعتها عدم ترك الأشياء على حالة الثبات
والاستقرار .

الحيوان، علماً أننا سنورد في ترجمتنا له في الباب الثالث نماذج من هاتين القصيدتين والذي يهمننا منهما إيراد الأبيات التي يفخر فيها بشر باعتزاله، ويهجو ويذم أصحاب المذاهب الأخرى، ويبين عقيدته وأفكاره، فهو يقول في قصيدته الأولى:

لست إباضياً غيبياً ولا	كرافضياً غرّة الجفّر (١)
كما يغرُّ الآلُ في سبب	سفرأ فأودي عنده السفر (٢)
كلاهما وسع في جهل ما	فعاله عندهم ما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الألى	عابوا الذي عابوا ولم يدروا
إن غبت لم يُسلمك من تهمة	وإن رنا فلحظه شزر (٣)
يعرض إن سألته مُدبراً	كأتما يلسبه الدبّر (٤)
أبلسه خبّ ضغن قلبه	له احتيال... وله مكر (٥)
وانتحلوا جماعة باسمها	وفارقوها فهم اليعر (٦)
وأهوج أعرج ذو لوثة	ليس له رأى ولا قدر (٧)
قد غرّة في نفسه مثله	وغيرهم أيضاً كما غرّوا
لا تنجع الحكمة فيهم كما	ينبو عن الجرولة القطر (٨)
قلوبهم شتى فما منهم	ثلاثة يجمعهم أمر
إلا الأذى أو بهت أهل التقى	وإنهم أعينهم خزر (٩)
أولئك الداء العُضالُ الذي	أعبا لديه الصّاب والمقر (١٠)
حيلة من ليست له حيلة	حسنُ عزاء النفس والصبر

(١) الإباضى: المنسوب إلى الإباضية وهي فرقة من الخوارج. الجفر: ولد الشاء إذا عظم واستكشر، والمراد جلد الجفر حيث يقول الرافضة (والمراد بالرافضة هنا غلاة الشيعة لا الشيعة الإثني عشرية) إن الإمام كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة.

(٢) الآل: السراب، والسفر: جمع المسافرين، أودي: هلك، والسبب: الصحراء القاحلة.

(٣) الشزر: النظر بمؤخرة العين غضبا وحنقا. رنا: أدام النظر في سكون طرف، واللحظ: النظر بمؤخرة العين.

(٤) يلسبه: يلسعه. الدبّر: النحل والزنانير. (٥) الخب: المحتال الماكر.

(٦) اليعر: للشاة أو الجدى [اللسان] وفسرها الجاحظ بصغار الغنم.

(٧) اللوثة: الاسترخاء والحمق. والأهوج: الطويل في حمق.

(٨) الجرولة: واحدة الجرول وهي الحجارة، القطر: المطر.

(٩) خزر: جمع أخزر وخزراء وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه، ويقال: عدو أخزر العين، أى ينظر عن معارضة.

(١٠) الصاب والمقر: نباتان مران.

ومن هجاء بشر لأصحاب الفرق الأخرى ، وبيانه - فى نفس الوقت - لمبادئ المعتزلة ، قوله فى إحدى أراجيزه :

لسنا من الراضة الغلاة ولا من المرجئة الجفافة
لا مُفرطين بل نرى الصديقا مقدمًا والمرضى الفاروقا
نبراً من عمرو ومن معاوية^(١)

فهو فى المقطوعة السابقة يوجه سهام نقده وهجومه لكل من الراضة - على حدّ تعبيره - الذين اتخذوا موقفاً سلبياً من الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر لأنهم رأوا أنهما اغتصبا الخلافة من على رضي الله عنهما ، والمرجئة الذين اتخذوا هم أيضاً موقفاً سلبياً بإرجائهم الحكم على الناس - ومن بينهم الصحابة - إلى يوم القيامة ، ثم يبين عقيدته بهذا الخصوص ، فيقول إننا نرى تقديم أبى بكر وعمر ، ونبراً فى نفس الوقت من عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان لأنهما كانا السبب فى الفتنة التى حدثت بين المسلمين متمثلة فى حادثة التحكيم .

• الهجو العقائدى :

ومن هذا اللون من الشعر - أى الشعر الذى يهاجم فيه المعتزلة أعداءهم ، ويبينون مبادئهم ومعتقداتهم ويدافعون عنها ، بعرض الأدلة والبراهين ، ويخلصون من ذلك إلى إثبات حقانية مذهبهم إن كانوا يناقشون أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى ، أو إثبات وجود الخالق - تعالى - وأنه واحد أحد طبقاً للنظرة الإسلامية إن كانوا فى معرض الدفاع عن الإسلام إزاء الزنادقة ، وأصحاب المذاهب والديانات المشركة والملحدة - موضوع هذه القصيدة التى نحن بصدد إيراد نماذج منها ، وهى لشاعر المعتزلة (صفوان الأنصارى) يرد فيها على (بشار بن برد) عندما تزندق واعتنق مذهب الديصانية من المجوس الذين يذهبون إلى أن العالم قائم على أساسين هما (الظلمة ، والنور) ، وأن النار خيرٌ من الطين ، وأن إبليساً كان محقاً فى موقفه ، فتصدى صفوان له ولمذبه فى هذه القصيدة مستعرضاً للأدلة والبراهين التى تثبت بما لا يقبل الشك أن الأرض خيرٌ من النار بما تحويه من الآيات والدلائل العجيبة على قدرة الخالق - تعالى - أنه الواحد الفرد الأحد الذى لا شريك له ، لا كما تدعى الديصانية من وجود قوتين تشتركان فى تدبير العالم هما قوة النور ، وقوة الظلام^(٢) .

(٢) (انظر : الانتصار لأبى الحسين الخياط) .

(١) المنبة والأمل .

وبالجملة فإن قصيدة صفوان هذه تعتبر من نوع الشعر الدينى أو المذهبى الذى قلما نجد له نظيراً فى الأدب العربى ، فهو بذلك يعتبر من نوع الأشعار التى أسهم المعتزلة فى تجديدها وإغنائها والتوسع فيها .

وفيما يلى نورد نماذج منها مع شرح لغريب ومشكل مفرداتها^(١) :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً	وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند ^(٢)
ويخلق فى أرحامها وأرومها	أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد ^(٣)
وفى القعر من لُج البحار منافع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد ^(٤)
كذلك سر الأرض فى البحر كله	وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد ^(٥)
ولا بد من أرض لكل مطهر	وكل سبوح فى الغمائر من حد ^(٦)
كذاك وما ينسأح فى الأرض ماشياً	على بطنه مشى المجانب للقصد ^(٧)
ويسرى على جلد يُقيم حُزوزه	تعمج ماء السيل فى صلب حرد ^(٨)
وفى قُلل الأجبال خلف مُقطم	زبر جد أملاك الورى ساعة الحشد ^(٩)

وبعد أن يعدد (صفوان) على هذا السياق الآيات والعجائب التى تحفل بها الأرض من حيوان وجماد وكون هذه الآيات والعجائب تدل دلالة قاطعة على أن الطين خير من النار ، وأن وراءها خالقاً واحداً فرداً يخلص إلى القول :

مفاخر للطين الذى كان أصلنا ونحن بنوه غير شك ولا جحد

(١) أورد الجاحظ النص الكامل لهذه القصيدة فى البيان والتبيين ج١ .

(٢) الزند : العود الذى تقدح به النار . يريد أن يشارا ادعى أن الحياة إنما أساسها النار .

(٣) الأروم : أصول الأشجار .

(٤) لُج جمع لجة : معظم الماء . اللؤلؤ المكنون : أى اللؤلؤ الكامن والمستتر فى البحار .

(٥) الغيضة : الأرض التى غاص فيها الماء وكثرت الأشجار . الصلد : الصلب .

(٦) مطهر : هكذا ورد البيت فى البيان والتبيين والأرجح أنه تصحيف والأصح أن يقال (مُطير) أى الحيوانات التى وهبها الله - تعالى - القدرة على الطيران أى : الطيور . الغمائر : جمع غمرة : الماء الكثير ، الحد (هنا) شاطئ النهر ووضفته .

(٧) المجانب : المباعد ، ينسأح : يذهب ويسير فى الأرض .

(٨) تعمج وتعمج : تلوى . حرد : غير مستقيم فى النحداره . الحز : الفرض فى العود ونحوه الجمع : حوزوز . الصيب : ما انحدر من الأرض .

(٩) قُلل جمع قلة : قمة الجبل ، الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد ، المقطم : جبل فى مصر . الورى : الخلق .

فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ وأوضحُ برهانٍ على الواحد الفرد
ثم يتقل (صفوان) بعد ذلك إلى الموضوع الرئيسي للقصيصة وهو هجو وذمّ بشار ومن
تبع مذهبه، وتسفيه آرائهم وعقائدهم المشركة الملحدة، والردّ عليهم لهجائهم المعتزلة،
وتهجمهم على الخلفاء، فيقول:

أَتَجْعَلُ عَمْرًا وَالنَّطَاسِيَّ وَاصِلًا
وَتَفْخِرُ بِالْمِيلَادِ وَالْعُلُجِ عَاصِمًا
وَتَحْكِي لَدَى الْأَقْوَامِ شُنْعَةَ رَأْيِهِ
وَسَمِيَّتَهُ الْغِزَالَ فِي الشَّعْرِ مُطْنَبًا
فِيَا ابْنَ حَلِيفِ الطَّيْنِ وَاللُّؤْمِ وَالْعَمَى
أَتَهْجُو أَبَا بَكْرٍ وَتَخْلَعُ بَعْدَهُ
كَأَنَّكَ غَضَبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
رَجَعْتَ إِلَى الْأَمْصَارِ مِنْ بَعْدِ وَاصِلِ
أَتَجْعَلُ لَيْلَى النَّاعِطِيَّةَ نَحْلَةَ
عَلَيْكَ بِدَعْدِ وَالصَّدُوفِ وَفَرْتَنِي
تَوَاتِبَ أَقْمَارًا وَأَنْتَ مَشْهُوهُ

كَاتَّبَعَ دَيْصَانَ وَهَمْ قُمْشُ الْمَدِّ (١) ؟
وَتَضْحَكُ مِنْ جَيْدِ الرَّئِيسِ أَبِي جَعْدِ (٢)
لِتَصْرِفَ أَهْوَاءَ النَّفُوسِ إِلَى الرَّدِّ (٣) ؟
وَمَوْلَاكَ عِنْدَ الظُّلْمِ قِصَّتَهُ مُرْدِي (٤)
وَأَبْعَدَ خَلْقَ اللَّهِ مِنْ طُرُقِ الرُّشْدِ (٥)
عَلِيًّا وَتَعَزَّوْا كُلَّ ذَاكَ إِلَى بُرْدِ (٦)
وَطَالِبِ دَخَلِ لَا يَبِيْتُ عَلَى حَقْدِ (٧)
وَكَنتَ شَرِيدًا فِي التَّهَائِمِ وَالنَّجْدِ (٨)
وَكَلَّ عَرِيْقَ فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِ (٩)
وَحَاضَتِي كَسَفِ وَزَامَلْتِي هِنْدَ (١٠)
وَاقْرَبِ خَلْقَ اللَّهِ مِنْ شَبْهِ الْقَرْدِ (١١)

- (١) النطاسي: العالم الحافظ، ديسان: مؤسس مذهب الديسانية المجوسى، وعمرو: هو عمرو بن عبيد، قمش المد: الذرات الصغيرة التافهة التى تتلاشى فى الماء ساعة المد.
(٢) العلج: كل جاف شديد من الرجال الجمع: علوج وأعلاج. أبى جعد: كنية واصل بن عطاء، يشير إلى أن بشارا عاب على واصل طول عنقه.
(٣) شنعة: قبح. الرد: أى لتدعو الآخرين إلى رفض ورد آرائه.
(٤) مردى: عصا أو خشية طويلة يدفع بها الزورق أو السفينة بالاستناد إلى الأرض الجمع: مرادى يريد أن مولاه ملاح لأن الملاحين إذا نظلموا: رفعوا المرادى.
(٥) حليف الطين: يعنى أن برد أبى بشار كان طيناً.
(٦) يقصد (برد) أبى بشار. (٧) الدخل: الثأر.
(٨) النجد: ما ارتفع من الأرض وصلب، واسم أرض فى بلاد العرب. التهائم جمع: تهامة: أرض منخفضة فى بلاد العرب.
(٩) ليلى الناعطية: امرأة من نساء الغالية كانت ذات عقل وتدبير وحرص شديد، يريد أن يقول لبشار: أتزعم أن ليلى بعقلها وتدبيرها تحمل روح نحلة من طريق التناسخ: عقيدة تقول بانتقال الروح من جسد إلى آخر بعد الموت. وقد يكون جسداً لإنسان أو لحيوان، وتعيين الجسد الذى تحل فيه ثانية رهن بسلوكها فى حياتها الأولى (الموسوعة العربية المبصرة)
(١٠) أسماء الأعلام المذكورة فى هذا البيت لنساء من الغالية، الزملة: مؤنث الزامل، وما يحمل عليه من الإبل وغيره الجمع: زوامل، وتسد إلى العقلاء، على التشبيه فى التحمل وعدم الدراية.
(١١) البيان والتبيين ج ١.

شيوخ الأدباء المعتزلة

شيوخ الأدباء المعتزلة

عمرو بن عبيد^(١) ٨٠ - ١٤٤هـ

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب المتكلم الزاهد المشهور، كان شيخ المعتزلة في عصره.

قال عنه الحسن البصرى فى جوابه لسائل سأله عن عمرو بن عبيد:

(لقد سألتنى عن رجل كان الملائكة أدبته، وكان الأنبياء ربه، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به^(٢))، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبهه بباطن، ولا باطناً أشبهه بظاهر منه).

ويبدو من الأخبار التى ذكرت عنه أنه كان مشهوراً بالزهد، والتقوى، والإعراض عن الدنيا، والجرأة فى قول الحق وإطلاق المواعظ، وعدم مدهانة الحكام، روى أنه دخل يوماً على أبى جعفر المنصور فى خلافته، وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار، فقربه وأجلسه، ثم قال له: عظنى، فوعظه بمواعظ، منها: إن هذا الأمر الذى أصبح فى يدك لو بقى فى يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك، فأحذرك ليلة تمخض^(٣) بيوم لا ليلة بعده، فلما أراد النهوض، قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، قال: لا حاجة لى فيها، قال: والله تأخذها، قال: والله لا أخذها، وكان المهدي ولد المنصور حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال: من

(١) (انظر: فى ترجمته تاريخ بغداد ج١٢، مروج الذهب ج٣، أمالى المرتضى ج١، طبقات المعتزلة، البداية والنهاية، وقد اعتمدنا فى ترجمته وذكر أخباره على وفيات الأعيان ج٣، وتاريخ بغداد ج١٢، علماً أن تاريخ بغداد ذكر أخباره بشكل مفصل).

(٢) يريد أنه كان ينهك بجد فى الأعمال التى يقوم بها ولا يترك شيئاً منها.

(٣) تمخض: أصلها تمخض أى تأتى بالمخاض يقال: تمخضت الليلة عن يوم سوء إذا كان صباحها صباح سوء.

هذا الفتى؟ قال : هذا المهدي ولدى وولى عهدي ، فقال : أما لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار ، وسميته باسم ما استحقه ، ومهدت له أمراً متع ما يكون به أشغل ما يكون عنه ، ثم التفت عمرو إلى المهدي وقال : نعم يا ابن أخي ، إذا حلف أبوك أحثه^(١) عمك لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك ، فقال له المنصور : هل من حاجة؟ قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، قال : إذا لا تلقني ، قال : هي حاجتي ، ومضى ، فأتبعه المنصور طرفة . وقال :

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ولعمرو بن عبيد رسائل وخطب ، وكتاب التفسير عن الحسن البصري ، وكتاب الرد على القدرية ، وكلام كثير في العدل والتوحيد .

كانت ولادته سنة ثمانين للهجرة ، ووفاته سنة أربع وأربعين ومائة ، وقيل اثنتين ، وقيل ثلاث ، وقيل ثمان ، بموضع يقال له (مران) وهو موضع بين مكة والبصرة على ليلتين من مكة .

وذكر له الخطيب البغدادي شعراً في الوعظ ، أنشده في حضرة أبي جعفر المنصور ، وهو :

يا أيها الذي قد غره الأمل	ودون ما يأملُ التنغيص والأجل ^(٢)
ألا ترى إنما الدنيا وزينتها	كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا ^(٣)
حتوفها رصد وعيشها نكد	وصفوها كدرٌ وملكها دول ^(٤)
تظلُ تفزع بالروعات ساكنها	فما يسوغ له لين ولا جذل ^(٥)
كأنه للمنايا والردى غرض	تظل فيها بنات الدهر تتضل ^(٦)
تُدِيرُهُ - مَـا أَرَادَتَهُ - دَوَائِرُهَا	منها المصيب ومنها المخطئ الزلل ^(٧)
والنفس هاربة والموت يرصدُها	فكلُّ عثرة رجل عندها جلل ^(٨)
والمرءُ يسعى بما يسعى لوارثه	والقبرُ وارثُ ما يسعى الرجل ^(٩)

(١) أحثه : جعله يحث أي لا يبر في يمينه ويأثم .

(٢) الأجل : جمع الراكبين .

(٣) الركب : جمع الركاب .

(٤) يسوغ : يصفو ويروق . الجذل : الفرح والسروح .

(٥) الردى : الموت ، غرض : هدف . تتضل : تخرج السهام . (٧) الدوائر : الأحداث والتقلبات .

(٨) يرصدُها : يترصد بها .

(٩) تاريخ بغداد ج ١ ، هكذا جاء البيت في المصدر ، والظاهر أن هناك كلمة بين (يسعى) و(الرجل) سقطت فجاء

ويعتبر كما أسلفنا في الفصل الذي خصصناه لاستعراض نشأة المعتزلة المؤسس الأول لمذهب الاعتزال استناداً إلى الرواية الشهيرة حول مخالفته لأستاذه الحسن البصرى في الرأي بشأن مرتكب الكبيرة .

وهو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى المعروف بالغزال، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً^(١) .

اشتهر واصل من بين أئمة المعتزلة بالخطابة والبراعة في الكلام وتصريف وجوهه، والبلاغة، والمقدرة الفائقة على الإتيان بالكلام ارتجالاً ودون توقف، ومما رفع من منزلته في الفصاحة والبلاغة والتمكن من الكلام، أنه قد بلغ ما بلغه من شأن رفيع في بلاغة القول رغم أنه كان ألثغ؛ أي يجعل الراء غيناً، فأخذ على نفسه أن لا يستعمل الراء مطلقاً في كلامه، يقول أبو العباس المبرد عنه في هذا المجال :

(كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة كلامه . . .)^(٢) .

وأشار الجاحظ إلى مقدرة (واصل) على تجنب الراء في كلامه قائلاً: (. . . ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإسقاطها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولو لا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحالة حتى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له، ولست أعنى خطبه المحفوظة، ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم، ومناقلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان . . .)^(٣) .

(١) لثغ : اللثغة أن تعدل الحرف إلى حرف غيره، والألثغ : الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء، وقيل : هو الذي يجعل الراء غيناً، أو لاما أو يجعل الراء في طرف لسانه، أو يجعل الصاد فاء، وقيل : هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى الشاء، وقيل : هو الذي لا يبين الكلام، وقيل : هو الذي قصر لسانه عن موضع الحرف وحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذي يعبر لسانه عنه، والمصدر : اللثغ، ولثغ لسان فلان إذا صيره ألثغ، لثغ بالكسر يلثغ لثغاً، والاسم : اللثغة . والمرأة اللثغاء، وفي النوادر : ما أشد لثغته وما أقبج لثغته ! فاللثغة الفم . واللثغة نقل اللسان بالكلام، وهو ألثغ بين اللثغة ولا يقال بين اللثغة) . لسان العرب ج١ فصل اللام .

(٢) الكامل للمبرد ج٣ .

(٣) البيان والتبيين ج١ .

وقد اشتهر واصل في الأدب العربي وبين الشعراء بمقدرته العجيبة على عدم الإتيان في كلامه بحرف الراء دون أن يؤثر ذلك شيئاً في فصاحته وبلاغته ورويت عنه الكثير من الأخبار الطريفة في هذا المجال حتى غدا مضرب الأمثال في ذلك^(١) ، ومن ذلك ما قاله الشاعر المعتزلي أبو الطروق الضبي في حقه :

عليمٌ يبادل الحروف وقامعٌ لكل خطيب يغلب الحق باطله^(٢)

وقال آخر :

ويجعلُ البرَّ قمحاً في تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يُطق مطراً والقولُ يعجسه فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر^(٣)

ويبدو أن لشعة واصل وتجنبه إياها في الكلام غدت مضرباً للمثل في الشعر العربي ، وفيما يلي نورد بعض النماذج الشعرية التي أشار فيها الشعراء إلى تجنب استخدام واصل للراء في كلامه ، فمن ذلك قول أبي محمد الخازن :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لفضة الراء

وقال شاعر آخر :

أجعلت وصلی الراء لم تنطق به وقطعتني حتى كأنك واصل^(٤)

وفيما يتعلق بنوادره التي رويت عنه في استغناؤه عن الراء في الكلام فقد حفلت كتب الأدب بالكثير من الأخبار والروايات في هذا المجال ، منها ما أورده صاحب وفيات الأعيان في قوله عندما تتابعت عليه أخبار زندقة بشار بن برد الشاعر الذي كان صديقه : (أما لهذا الأعمى المكتنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لو ان الغيلة^(٤) خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبيع بطنه على مضجعه ثم لا يكون سدوسياً أو عقيلياً .

فقال هذا الأعمى ولم يقل بشار ولا ابن برد ولا الضرير ، وقال : من أخلاق الغالية ولم

(١) الوفيات ج٦ .

(٢) الوفيات ج٦ ، يقول إنه يمتلك مهارة فائقة في استعمال كلمات أخرى مترادفة مكان الكلمات التي فيها الراء كما يستطيع بقوة أن يفحم جميع الخطباء حتى وإن كانوا قادرين على تصوير الباطل بصورة الحق .

(٣) الكامل للمبرد ج١ ، البيان والتبيين ج١ ، يريد أن من جملة مظاهر قدرة واصل على التصرف في الكلام استعماله لكلمة (القمح) بدلاً من البر لاشتمالها على حرف الراء وكذلك الحال بالنسبة إلى كلمة (الغيث) واستعماله إياها بدلاً من (المطر) رغم أن الإنسان يبادر إلى استعمالها .

(٤) الغيلة : الاغتتيال . يقال : قتلته غيلة : قتلته على غفلة منه .

يقول المغيرة ولا المنصورية^(١) ، وقال : لبعثتُ ، ولم يقل : لأرسلت ، وقال : على مضجعه ، ولم يقل على مرقده ، وعلى فراشه ، وقال : يبعج ولم يقل يقرر . . . (٢) .
وروى المرتضى فى أماليه : (أن رجلاً قال لو اصل : كيف تقول أسرج الفرس؟ قال : ألبد الجواد ، وقال له آخر : كيف تقول ركب فرسه ، وجر رمحه؟ قال : استوى على جواده ، وسحب عامله) (٣) .

إن كل هذه الأخبار والروايات الغزيرة التى وردت فى بيان المبلغ العظيم الذى بلغه واصل فى الفصاحة والبلاغة وامتلاك ناصية الكلام^(٤) ، لتدل دلالة واضحة أننا ازاء رجل حاد الذكاء واسع الثقافة ، تبهر فى علوم عصره وخصوصاً الأدبية واللغوية منها مع تبهره بالدرجة الأولى فى العلوم الدينية والفلسفة والمنطق وعلم الكلام بحيث أهله ذلك الذكاء الحاد والاطلاع الثقافى والفكرى الواسع لأن يبلغ هذه الدرجة من التمكن من تصريف فنون القول والكلام ، وليس هذا بغريب فهو زعيم مدرسة فكرية عظيمة ، وحركة كان لها أثر كبير على تطور الحضارة الإسلامية ونموها فى الجانب الفكرى ، ولذلك كان من الضرورى أن يزود بتلك الثقافة الواسعة خصوصاً إذا علمنا أن حركته الفكرية واجهت معتركا هائلا من التيارات والظواهر الفكرية المختلفة ، فكان من اللزام عليه وعلى أتباعه أن يتسلح بسلاح الفصاحة والبلاغة وفن المناظرة والكلام ، كما أشار إلى ذلك الجاحظ فى قوله :

(كان - أى واصل - داعية مقالة ورئيس نحلة وإنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وإنه لا بد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وإن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وإن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزين به المعانى) (٥) .

(١) يريد هنا فرقة المغيرة والمنصورية المعتزليتين .

(٢) الوفيات ج٦ .

(٣) أمالى المرتضى ج١ .

(٤) راجع من أجل الاطلاع أكثر على أخباره ونوادره (البيان والتبيين ج١ ، والكامل للمبرد ج١ ، ووفيات الأعيان

ج٦ ، والمنية والأمل .

(٥) البيان والتبيين ج١ .

والجاحظ يشير في كلامه هذا - بالإضافة إلى ما قررناه قبل أن نورد كلامه - إلى أحد العوامل الهامة التي حدثت بالمتكلمين إلى أن العناية بالكلام، وإيراده على الوجهة الصحيحة وهو ضرورة الاهتمام بالجانب الشكلى والظاهرى من الكلام بنفس مقدار العناية به من ناحية المحتوى والمضمون، ومن ضمن مظاهر العناية بهذه الناحية سلامة النطق، وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وتجنب عيوب التلقظ؛ وهو مذهب أولاه المتكلمون ومن بينهم المعتزلة اهتماماً بالغاً^(١).

• نموذج من خطبة واصل التي أخرج منها الراء:

(الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية الذى علا فى دنوه، ودنا فى علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده^(٢) حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سابق، بل أنشأه ابتداءً، وعدله اصطناعاً، فأحسن كل شىء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شىء لعظمته، وذل كل شىء لسلطانه، ووسع كل شىء فضله. لا يعزب^(٣) عنه مثال حبة وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له^(٤)، إلهاً تقدرت أسماؤه وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول والأفهام، يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون، وأشهد شهادة حق وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية^(٥) أن محمد بن عبدالله عبده ونبيه وخالصته ووصفيته... (٦).

(١) انظر: البلاغة تطور وتاريخ - شوقي ضيف).

(٢) يؤوده: أى ينقله ويجهدده أو حناه من ثقله.

(٣) يعزب: يبعد ويخفى.

(٤) قال: لا مثيل له، بدلاً من لا شريك له تخلصاً من الراء.

(٥) الطوية الضمير والجمع: طوايا.

(٦) يوجد نص الخطبة كاملة فى المجموعة الثانية من نوادر المحفوظات، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، ومفتاح الأفكار وجمهرة خطب العرب زكى صفوت ج١.

بشر بن المعتمر الهلالي - ت ٢١٠هـ

وهو أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالي رأس معتزلة بغداد^(١) وهو من أدبائهم وشعرائهم المعروفين .

ينحدر فيما يبدو من الكوفة، ولكنه استوطن بغداد^(٢) .

• تاريخ الولادة :

يكتسب بشر بن المعتمر أهميته في أدب المعتزلة من حيث كونه صاحب الصحيفة المشهورة التي وضع فيها القواعد الأساسية لعلم البلاغة العربية، وقد أثبت الجاحظ هذه الصحيفة كاملة في البيان والتبيين^(٣)، مع تعليقات وشروح عليها وتحليلات لها، وكذلك نقل مقاطع منها صاحب الصناعتين^(٤)، وكذلك من حيث كونه أحد شعراء المعتزلة المعروفين في القرن الثالث، بل لعله أكثرهم وأغزرهم وأنضجهم إنتاجاً، قال عنه الجاحظ: (لم أر أحداً أقوى على الخمس^(٥) والمزدوج ما أقوى عليه بشر)^(٥)، وقال عنه ابن النديم في فهرسته: (كان شاعراً يهتم على الأخص بأشعار الخمس والمسمط^(٦) والمزدوج).

• صحيفة بشر وقيمتها الأدبية:

تمتلك هذه الصحيفة قيمة مزدوجة في ذاتها من حيث كونها جمعت آراء ناضجة في البلاغة والخطابة، وأساليب الكلام الصحيحة بحيث إنها تعتبر خير ما أثر عن المعتزلة في البلاغة حتى أوائل القرن الثالث.

وصحيفة بشر تمتلك أيضاً قيمة تاريخية؛ فهي تصور لنا مدى استغلال المعتزلة لملاحظات العرب والأجانب في البلاغة، وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذ من ملاحظات الطرفين إلى تبين قواعدها السليمة محتكمين في ذلك إلى عقولهم الناضجة وبصائرهم النافذة .

(١) مقالات الإسلاميين ج ٢ . (٢) بروكلمان ج ١ .

(٣) بروكلمان ج ١ . (٤) التخميس عند الشعراء أن يضاف ثلاثة أشطر إلى شطري البيت .

(٥) المنية والأمل .

(٦) المسمط من الفصائد: ما يؤتى فيه بأشطار مفقاة بقافية ثم يؤتى بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة، ويستمر على هذا النهج مع التزام القافية المخالفة في القصيدة حتى تنتهي .

ونظراً إلى أهمية هذه الصحيفة من النواحي التي ذكرناها فيما سبق فإننا سنورد فيما يلي مقاطع منها مع بعض التعليقات والشروح وبيان مواطن الأهمية فيها مستنديين في ذلك إلى النص الكامل الذي نقله الجاحظ في كتاب البيان والتبيين^(١).

(خُذْ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك^(٢)، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا وأشرف حسبًا^(٣) وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين، وغرة^(٤) من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى^(٥) عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة^(٦)، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . . .)^(٧).

ويحذر بشر في موضع آخر من صحيفته الخطيب والبليغ من أن يسلك سبيل التعقيد في ألفاظه، وأن يلائم بين المعاني والألفاظ فيختار للمعاني ما تستحقه من الألفاظ وخصوصاً إذا كانت المعاني شريفة، فيقول:

(وإياك والتوعر^(٨) فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين^(٩) ألفاظك، ومن أراد معنىً كريماً فليتمس له لفظاً كريماً فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما . . .)^(١٠).

وينصح (بشر) الأديب أن يكون همه أن يحرز الصواب في كلامه، وأن يوافق الحال والمقام في الألفاظ والمعاني التي يتخيرها، وهو يرى أن البليغ الكامل هو الذي يمتلك المقدرة على أن يخاطب كلاً من الخاصة والعامة، بمعنى أن يكون بمقدوره إفهام العامة موضوعات الخاصة من خلال تبسيط هذه الموضوعات:

(١) ج١ ص ٨٦ وما بعدها، وانظر أيضاً الصناعتين.

(٢) أي: بادر إلى اغتنام ساعات النشاط وفراغ البال وتجاوب النفس معك في كلامك.

(٣) حسب الشيء: قدره وعدده، وما يعده المرء من مناقبه أو شرف آياته.

(٤) الغرة: الكرم من كل شيء.

(٥) أجدى: أكثر فائدة.

(٦) المعاودة: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه.

(٧) يقول إن ما يخرج منك من كلام أثناء فراغ البال وإقبال النفس أنفع وأكثر فائدة لك من الكلام الذي تخرجه وأنت غير مستعد ومهيأ له؛ لأن الكلام الأول سيكون سهلاً بربطاً من التكلف كالحالة التي خرج فيها وهي حالة النشاط وفراغ البال.

(٨) التوعر في الكلام التحير وإيقاع الغير في الحيرة.

(٩) يشين: يعيب.

(١٠) يهجن: يفسد ويغيب.

(فكن في ثلاثة منازل ، فإن أولى الثلاثة أن يكون لفظك رشيقيًا عذبًا وفخمًا سهلاً ، ويكون معنك ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من المعانى الخاصة وكذلك ليس يتضع^(١) بأن يكون من معانى العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسعة^(٢) التى لا تلتطف^(٣) عن الدهماء^(٤) ولا تجفو^(٥) عن الأكفاء^(٦) فأنت البليغ التام . . .)^(٧) .

ومن مظاهر تأثر (بشر) بالبلاغة اليونانية تأكيده على أن المتكلم البليغ ينبغي له أن يلائم بين المعانى والألفاظ التى يستخلمها وبين أحوال المستمعين وأقدارهم ، ونفسياتهم ، وهى فكرة يونانية تتردد بكثرة فيما أثر عن اليونانيين فى علم البلاغة ، فعندما يخاطب المتكلم عامة الناس فإن عليه أن ينزل إلى مستواهم من خلال استخدام الأساليب والألفاظ والمعانى القريبة من أذهانهم ، وأن يبتعد عن التعقيد والتشعب ، وعلى العكس من ذلك ينبغي له أن يسلك سبيل أمثاله من المتكلمين عندما يوجه حديثه إليهم بواسطة استعمال الألفاظ والأساليب التى يأنسون إليها ، يقول فى هذا الصدد :

(وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار^(٨) المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ، ولكل حالة من ذلك مقامًا ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلمًا تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما إنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام واصفًا أو مجيبًا أو سائلًا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحن وبها أشغف . . .)^(٨) .

(١) يتضع : يصبح وضيعًا .

(٢) يريد من الألفاظ الواسطة الألفاظ المتوسطة والمعتدلة المعنى التى يفهمها الجميع .

(٣) تلتطف : تخفى .

(٤) الدهماء : عامة الناس .

(٥) تجفو : تعرض .

(٦) الأكفاء : جمع كفاء ، المثل والنظير .

(٧) البيان والتبيين ج ١ .

(٨) يقصد بشر من الأقدار هنا منازل الكلام ومكاناته من ناحية الجودة ، وشرف الألفاظ والمعانى .

• بشر الشاعر:

سبقت الإشارة إلى أن بشراً يعدّ أحد شعراء المعتزلة الذين تجلّى مذهب الاعتزال في أشعارهم، ومن مظاهر هذا التجلّى أنه ضمن شعره الكثير من الإشارات المذهبية، والحكم والمواعظ، والدفاع عن مذهب الاعتزال، أمام المذاهب الأخرى، كما أن له قصيدتين طويلتين أثبتتهما الجاحظ في كتاب الحيوان^(١)، موضوعها بيان عجائب وأسرار عالم الحيوان وما تشتمل عليه هذه العجائب والأسرار من دلالات وآيات باهرة على وجود الخالق - تعالى - وقدرته، وهو موضوع جديد لم يسبق للأدب العربي ناهيك عن الشعر إن تطرق إليه

من هذا المدخل العلمى الدقيق ذى الطابع الأدبى، إذ يقول فى مقدمة قصيدته الأولى:

الناس دأباً فى طلاب الغنى	وكلُّهم من شأنه الخنثى ^(٢)
كأذوب تنهشُها أذوبٌ	لهاء عواء ولها زفر ^(٣)
تراهم فوضى وأيدى سبأ	كلُّ له فى نفثه سحر ^(٤)
تبارك الله سبحانه	بين يديه النفعُ والضرُّ
من خلقه فى رزقه كلهم	الذيخُ والثيتل والغفر ^(٥)

ثم يستطرد بشر فى ذكر الحيوانات وصفاتها وأحوالها، فيقول:

وساكنُ الجوّ إذا ما علا	فيه ومن مسكنه القفر
والصدعُ الأعصم فى شاهق	وجأبة مسكنها الوعر ^(٦)
والحيّة الصماء فى جحرها	والتنفل الرائغ والذر ^(٧)
جرادة تخرقُ متن الصفا	وأبغث يصطاده صقر ^(٨)

(١) الحيوان ج٦. (٢) الدأب والدأب: العادة. الشأن: الجد، التعب. الخنثى: الغدر.

(٣) أذوب جمع ذئب، زفر يزفر زفرًا النار: سمع صوت توقدها، ويقصد هنا الصوت الذى يصدره الذئب عندما يريد أن ينقض على فريسته.

(٤) النفث: النفخ. ويشير فى عبارة (أيدى سبأ) إلى مكان مأرب فى اليمن الذين تفرقوا وتشتتوا بعد انهدام سدّهم فضرب بهم المثل فقيل: تفرق القوم أيدى سبأ وأيدى سبأ.

(٥) الحيوان ج١، الذيخ: ذكر الضباع. الثيتل: شبيه بالوعل، والغفر: ولد الأرية، والأرية واحدة الأروى وهى جماعة من إناث الوعل.

(٦) الصدع من الأوعال والظباء والحمر والإبل: الفتى الشاب القوى.

(٧) التنفل: الثعلب الرائغ الماكر. الذر: صغار النمل.

(٨) أبغث: ملأه أصغر من الرخم بقلبي الطيران.

سلاحه رمحٌ فما عذرُهُ
والدبُّ والقردُ إذا علما
يحتجم عن فرط أعاجيبها
وقد عراه دونه الذعر^(١)
والفيل والكلبة واليعر^(٢)
وعن مدى غاياتها السحر^(٣)

ومن القصيدة الثانية^(٤) التي يبسط فيها (بشر) ذات الموضوع، أى: موضوع الحيوان وأسراره وعجائبه ودلالته على وجود الخالق - سبحانه - وقدرته التي لا يحدها شيء، ندرج الأبيات التالية:

لو فكر العاقل في نفسه
لم ير إلا عجباً شاملاً
فكم ترى في الخلق من آية
أبرزها الفكرُ على فكرة
مدّة هذا الخلق في العمر
أو حجةً تنقش في الصخر
خفية الجسمان في قعر^(٥)
يحرارُ فيها وضح الفجر

وفى أبيات أخرى تبرز لنا النزعة المعتزلية فى تقديس العقل، والاحتكام إليه، والاعتماد عليه فى استنباط الأحكام الشرعية، والتوصل إلى معرفة الخالق من خلال القياس العقلى، ونبذ التقليد جانباً:

لله درُّ العقل من راند
وحاكم يقضى على غائب
وإن شيئاً بعضُ أفعاله
بذى قوى قد خصّه ربه
والعبدُ كالحرِّ وإن ساءه
لكنهم فى الدين أيدي سَبا
قد غمر التقليدُ أحلامهم
فافهم كلامى واصطبر ساعةً
وانظر إلى الدنيا بعين امرئ
وصاحب فى العسر واليسر
قضية الشاهد للأمر
أن يفصل الخير من الشر
بخالص التقديس والطهر
والأبغث الأغر كالصقر^(٦)
تفاوتوا فى الرأى والقدر
فناصربوا القياس ذا السبر^(٧)
فإنما النجح مع الصبر
يكره أن يجرى ولا يدرى

(١) عراه: اعتراه. (٢) اليعر: الشاه أو الجدى كذا فى اللسان، وفسرها الجاحظ بصغار الغنم.

(٣) أى يعجز السحر عن مجاراتها ومباراتها.

(٤) أوردتها الجاحظ فى كتاب الحيوان ج ٦، وهى تبلغ سبعين بيتاً.

(٥) الجسمان: الجسم (٦) الأغر: ما لونه الغثرة والغثرة لون من غبرة وحمرة إلى خضرة.

(٧) الأحلام: العقول. السبر: الغوص والعمق.

ويشر في الأبيات الأربعة الأخيرة يشير إلى الفرق والمذاهب الأخرى وخصوصاً أهل السنة وكيف أنهم - حسب رأيه - جمدوا على التقليد وتعبدوا بالنصوص ولم يحتكموا إلى العقل وتفكيرهم الحرّ في حل الإشكالات والشبهات التي تواجههم.

وهكذا فإن أدب بشر؛ نثره وشعره يدلنا على لون من الأدب المذهبي الخالص الذي يكرس فيه الأديب أو الشاعر نفسه للدفاع بإخلاص وصدق عن مذهبه، فالالتجارات والأفكار الاعتزالية شديدة الوضوح فيما خلفه بشر من آثار من حيث تقديسه للعقل، ودفاعه عن عقيدته، وردّه على المخالفين لهذه العقيدة، ومن حيث ما تتضمنه هذه الآثار - خصوصاً النثرية - من دلائل على التأثير بالفكر اليوناني الذي لعب المعتزلة الدور الأكبر في نقله إلى الحضارة الإسلامية.

ومن الناحية الأدبية تدلنا آثار بشر على تبهر واسع، واطلاع عميق على اللغة ومفرداتها، وهو اطلاع تميز به المعتزلة عن غيرهم نظراً إلى أن اللغة وأساليبها كانت تمثل بالنسبة إليهم السلاح الرئيس لمواجهة أعدائهم من جهة، وأعداء الإسلام من جهة أخرى، ولذلك لم يكن لهم بدّ من أن ينهلوا من الأدب واللغة، ويتعمقوا في أساليبها وتعبيراتها ليكون بإمكانهم الدفاع عن معتقداتهم وأفكارهم بتمكن واقتدار.

كلثوم بن عمرو العتابي^(١)

..... - ٥٢٢٠هـ

هو كلثوم بن عمرو، من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر المعروف الذي قتل عمرو ابن هند، ويكنى أبا عمرو من أهل قنسرين. كان من لسنة المعتزلة، كما كان شاعراً أديباً مجيداً مقتدرًا على الشعر، عذب الكلام، وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً.

قال عنه جعفر المالكى: ما سمعت كلاماً قطُّ لأحدٍ من المتكلمين أحسن من كلام

(١) اعتمدنا في ترجمة العتابي وذكر أخباره على طبقات الشعراء لابن المعتز، وكتاب الصناعتين، والبيان والتبيين، وراجع أيضاً في ترجمته الأغانى ج١٣، ومعجم الأديباء والشعر والشعراء.

العتابي ، وما رأيتُ كاتباً تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدتهُ ضعيف الشعر غيره ، فإنه كان فحل الشعر ، جيد الكلام (١) .

وبذلك فقد كان العتابي شاعراً مجيداً في نفس الوقت الذي كان فيه كاتباً وناثراً قال عنه ابن المعتز : (وأشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت ساقط) (١) .

• نماذج من أشعاره:

أنشد في الاستعطاف قائلاً:

ردت إليك ندامتي أملى وثنى إليك عنانه شكري
وجعلتُ عتبك عتب موعظة ورجاء عفوك منتهى عذري

ومن بديع ما روى له أيضاً قوله في مدح النبي ﷺ :

ماذا عسى قائلُ يثنى عليك وقد ناجاك في الوحي تقديس وتطهيرُ
فت المدائح إلا أن ألسنتنا مُستنطقات بما تخفي الضمائر (٢)

ومما يستحسن له قوله في الغزل على طريقة الشعراء الجاهليين :

تجنب دار العامرية إنها تكلفه (٣) عهد الصبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العين نظرةً فتقلع إلا عن دموع سواكب
ولا وصل إلا أن تُعاج مطيةً على دارس (٤) الأعلام عافى الملاعب (٥)

وقد ذكرنا أن (العتابي) كان أيضاً كاتباً مجيداً ، ونذكر هنا أيضاً أن له آراء ووجهات نظر في مجال البلاغة والنقد الأدبي ذكر طائفة منها صاحب كتاب الصناعتين ، والجاحظ في البيان والتبيين ، فمن آرائه في النقد الأدبي ، قوله :

(الألفاظ أجسادٌ ، والمعاني أرواحٌ ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا ، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة ، وغيرت المعنى ، كما لو حول رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقه ، وتغيرت الحلية (٦) . . .) (٧) .

(١) طبقات الشعراء .

(٢) فت في ساعده : أى أضعفه ، ويقال فت في عضده : أى كسر قوته وفرق عند أعوانه ، يريد أن النبي ﷺ أعجز وأضعف كل المدائح فلا تستطيع وصفه ، والضمائر : الضمائر .

(٣) تكلفه : أى تذكره بعهد الصبا وتجعله يكلف به .

(٤) تعاج : يمال بها . دارس : مندرس . عافى : مهجور .

(٥) طبقات الشعراء . (٦) حلية الإنسان : ما يرى من لونه وظاهره وهيبته .

(٧) الصناعتين .

ومن آرائه في البلاغة ما نقله الجاحظ من قوله :
(كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة^(١) ولا استعانة فهو بليغٌ، فإذا أردت
اللسان الذي يروق الألسنة^(٢)، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير
الباطل في صورة الحق^(٣) . . .)^(٤)

إبراهيم بن سيار النظام

..... - ٢٣١هـ

هو إبراهيم بن سيار بن هاني البصرى، أبو إسحاق النظام من أئمة المعتزلة، اشتهر
بالنظام واختلف في سبب إطلاق هذا اللقب عليه، فأشياعه يقولون: إنه من إجادته لنظم
الكلام، وخصومه يعلمون ذلك بأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة^(٥).
كان أحد أكبر رجالات المعتزلة، والمساهمين في تأسيس مذهب الاعتزال، ودمج
الفلسفة اليونانية بالفكر الإسلامى، فقد تبحر في علوم الفلسفة، واطلع على آراء الفلاسفة
من طبيعيين وإلهيين^(٦).
ذكر له المؤرخون وكتاب التراجم أنه قد ألف كتباً كثيرة في الفلسفة والاعتزال^(٧)، إلا
أن أيّاً من تلك الكتب لم يصل إلينا كما هو الحال بالنسبة إلى سائر مؤلفات ومصنفات
المعتزلة التي طالت أغلبها يد الضياع.
وقد انفرد النظام بأراء خاصة في الاعتزال تابعته فيها فرقة من المعتزلة عُرفت بـ
(النظامية).

(١) الحبسة: ثقل في اللسان يمنع من الإبانة. (٢) يروق: يعجب.

(٣) يقول: إن من يمتلك المقدرة على إظهار ما خفى من الحق في كلامه، وتزويق الباطل وإيثاره لباس الحق حيث
يتصوره الآخرون حقاً فهو البليغ البالغ أعلى درجات البلاغة، وبالطبع فإن العتائى لا يقصد من كلامه هنا
الحث على تصوير الحق في صورة الباطل، وإنما يريد أن البليغ يفترض فيه أن يمتلك مثل هذه المقدرة لكي يكون
حاضر الجواب، متفتناً في الكلام، معداً لكل مقام مقاله.

(٤) البيان والتبيين ج ١.

(٥) الأعلام للزركلى ج ١، الخرز الواحدة خرزة ما ينظم في السلط من الجزع والودع.

(٦) الزركلى ج ١.

(٧) انظر: الزركلى ج ١، والمنية والأمل، والانتصار.

وكان النظام أعظم تلاميذ الهذيل ، ترك البصرة - موطن نشأته - إلى بغداد بعد مدة ، وتوفى بها في عتفوان شبابه بين سنتي (٢٢٠ - ٢٣٠هـ)^(١) .

وذكر ذلك أيضاً المرتضى في أماليه قائلاً : إنه ورد بغداد ، وكان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة ، وله في ذلك تصانيف عدة^(٢) .

والذي يهمننا من شخصية النظام هو جانبها الأدبي ، والآثار التي تركها الاعتزال على أعماله الأدبية ، وتأثيرها على الأدب العربي ، فمن المعلوم أن النظام كان أديباً ، وكان ينظم الشعر وإن كان الجانب الفلسفي والكلامي هو الطاغى على شخصيته ، فقد ذكر عنه الخطيب البغدادي أنه كان متأدباً ، وله شعر دقيق المعاني على طريقة المتكلمين^(٣) ، وذكر صاحب لسان الميزان أنه كان شاعراً أديباً بليغاً^(٤) ، وأكد (كارل بروكلمان) أنه لتمكنه في اللغة لم يبرع في الجدل فحسب ، بل برع أيضاً في قول الشعر . وقال عنه الخطيب البغدادي في تاريخه : إنه كان متقدماً في العلم بالكلام ، حسن الخاطر ، شديد التدقيق والغوص على المعاني^(٥) .

وعلى هذا فإن من الثابت تاريخياً أن النظام كان بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية والعقلية والكلامية الواسعة ، ومقدرته على الجدل والمناظرة ، متميزاً في الجانب الأدبي بشطريه الثرى والشعري .

ولعل الذي يلفت أنظارنا فيما روى عن النظام من أشعار ، وقطع أدبية الآثار البارزة والشديدة للعلوم العقلية والفلسفية والمنطقية عليها ، وقد روى لنا الخطيب البغدادي والمرتضى في أماليه طائفة مما أثر عن النظام من أشعار وأقوال ونوادير يتجلى لنا فيها المنحى الفلسفي والكلامي بشكل واضح وخصوصاً في الجانب التشبيهي والوصفي ، حيث أشار البغدادي إلى أن شعره دقيق المعاني سار فيه على طريقة المتكلمين^(٦) ، وذكر الدكتور شوقي ضيف : أنه كان لا يبارى في المناظرة وفي إيراد الحجج وتفريع المعاني وتوليدها^(٧) . ولعل أبا عبد الله المرزباني كان أكثر تحديداً لمذهب النظام في نظم الشعر وأثر علوم الكلام فيه ، وكونه من أوائل الشعراء الذين أدخلوا في الشعر المصطلحات والأساليب الكلامية والفلسفية ، فقد ذكر في هذا المجال قائلاً :

(١) بروكلمان ج٤ . (٢) الأمالي ج١ . (٣) تاريخ بغداد ج٦ .

(٤) الزركلي ج١ . (٥) شوقي ضيف : البلاغة .

(كان لإبراهيم مذهب في ترفيق الشعر، وتدقيق المعانى لم يسبق إليه، ذهب فيه مذاهب أصحاب الكلام المدققين . . .) (١)، وذكر الخطيب البغدادي نماذج من أشعاره التي يتجلى فيها ذلك الأسلوب، منها قوله في الغزل ووصف المحبوب:

وشادن ينطقُ بالطرف	يقصر عنه منتهى الوصف
رقّ فلو بزّت سـرابيله	علقه الجوُّ من اللطف
يجرحه اللحظ بتكراره	ويشـتكي الإيماء بالطرف
أفديه من مغرى بما ساءنى	كأنه يعلم ما أخفى (٢)

وروى المرتضى في أماليه طائفة من أشعار النظام سار فيها على منوال الأبيات السابقة، كقوله:

توهمه طرفى فآلم خدّه	فصار مكان الوهم من نظرى أثرُ
وصافحه قلبى فآلم كفه	فمن صفح قلبى فى أنامله عُقرُ
ومرّ بقلبي خاطراً فجرحته	ولم أر جسمًا قط يجرحه الفكرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحسن تعطفٍ	يقالُ به سُكر وليس به سكر (٣)

وواضح ما فى الأبيات السابقة من تأثر ملموس بالبحوث الفلسفية والكلامية وخصوصاً فيما يتعلق بالتوحيد الذى تشدد فيه المعتزلة (٤)، ونفوا على ضوئه أن تكون الصفات جزءاً من الذات الإلهية، وقالوا بكون القرآن مخلوقاً تنزيهاً لله تعالى من أن يساويه شىء آخر فى القدم بالإضافة إلى القضايا والموضوعات التى أثاروها فى مجال العدل الإلهى الذى آمنوا به على أساس مبدأ العدل الإلهى المطلق بالقول بحرية الإرادة، وبالمنزلة بين المنزلتين (٤).

وبالجمله فإن تأكيد المعتزلة على تنزيه الخالق تعالى حتى من صفاته، وصياغتهم لأصولهم ومبادئهم على أساس الحساسية الشديدة التى كانوا يبدونها فى مسألة التوحيد،

(١) تاريخ بغداد ج ٦، ترفيق الشعر: تحسينه.

(٢) المصدر السابق. وقد سبق شرح هذه الأبيات فى الباب الثانى، فصل (شعر المعتزلة).

(٣) أمالى المرتضى ج ١.

(٤) راجع الفصل الخالص ببحث أصول الاعتزال.

كل ذلك أوحى للنظام أن يصوغ أشعاره تلك على ضوء تأثره بتلك المبادئ والأفكار، ومن جملة الأشعار الأخرى التي رويت للنظام، قوله في الغزل أيضاً:

يا تاركى جسداً بغير فؤاد أسرفت في الهجران والإبعاد
 إن كان يمنعك الزيارة أعينٌ فادخلْ على بعلة العوآد^(١)
 كيما أراك وتلك أعظم نعمة ملكت يداك بها منيع قيادي^(٢)
 إن العيون على القلوب إذا جنتُ كانت بليتها على الأجساد^(٣)

وبالإضافة إلى ذلك، فقد حفلت الكتب التي أرخت للمعتزلة بالكثير من الأخبار والروايات التي تدلنا على براعة النظام في النثر، وموهبته الأدبية البارزة منذ طفولته، وبداهته وحضور ذهنه في المواقف المختلفة، ومن ذلك ما رواه المرتضى قائلاً:

(حكى أن أبا النظام جاء به وهو حدث^(٤) إلى الخليل بن أحمد ليعلمه، فقال له الخليل يوماً ليمتحنه وفي يده قدحٌ زجاج: يا بني صف لي هذه الزجاجية، فقال: أمدح أم ذم؟ فقال: بمدح، قال: نعم، ثريك القذى^(٥)، وتقيك الأذى، ولا تستر ما ورا^(٦)، قال: فذمها، قال: سريع كسرهما، بطيء جبرها، قال: فصف هذه النخلة وأوماً إلى نخلة في داره، فقال: أمدح أم بدم، قال: بمدح، قال: حلومجتهاها^(٧)، باسق^(٨) منتهاها، ناصر^(٩) أعلاها، قال: فذمها، قال: هي صعبة المرتقى^(١٠)، بعيدة المجتنى، فقال الخليل، يا بني نحن إلى التعلم منك أحوج^(١١) . . . (١٢).

وروى عنه الخطيب البغدادي، أنه قال في العلم: (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلُّك، فإذا أعطيته كلُّك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر^(١٣)) (١٤).

- (١) العواد جمع عائد: الذي يزور المريض . (٢) القيادة: الزمام .
 (٣) الأماي جأ . (٤) الحدث: الجمع أحداث وحدثان: الشباب .
 (٥) القذى: ما يقع في العين والشراب من تينة وغيرها .
 (٦) هكذا وردت في الأصل . ونرى أنها قد تكون (ماورا) أصلها (ماوراها) فحذف الضمير والهمزة مراعاة للسجع .
 (٧) المجتنى: ما يجنى من الثمر . (٨) باسق: عال .
 (٩) ناصر: الحسن الناعم . (١٠) المرتقى: الصعود ومكان الصعود .
 (١١) يريد أننا نحن الذين نحتاج إلى التعلم منك لا أنت .
 (١٢) الأماي جأ . (١٣) يقول: إن العلم خطير ذو منزلة سامية وإن كان قليلاً .
 (١٤) الأماي جأ .

(وقيل له ما الاختصار؟ فقال: الذي اختصاره فساد)^(١).
وروى المسعودي: أن يحيى بن خالد البرمكي سأل النظام^(٢) في أحد مجالسه أن يصف له العشق، فقال:
(أيها الوزير: العشق أرق من السراب، وأدب^(٣) من الشراب، وهو من طينة عطرة عُجنت في إناء الجلالة، حلواً المجتنى ما اقتصد^(٤)، فإذا أفرط عاد خبيلاً قاتلاً^(٥)، وفساداً معضلاً^(٦)، لا يُطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمي^(٧) على القلوب، فتعشب شعفاً^(٨)، وتثمر كلفاً^(٩)، وصريعه دائم اللوعة، ضيقُ المتنفس مُشارف الزمن، طويلُ الفكر، إذا أجنحه^(١٠) الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى)^(١١).

أبو الهذيل العلاف

١٣١ - ٢٣٥ هـ

أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي المعروف بالعلاف المتكلم، كان شيخ البصريين في الاعتزال، ومن أكبر علمائهم، وصاحب مقالات في مذهبهم ومجالس ومناظرات^(١٢).

وكان حسن الجدل، قوى الحججة، كثير الاستعمال للأدلة، والإلزامات، حكى أنه لقي صالح بن عبدالقدوس، وقد مات وله ولد، وهو شديد الجزع عليه، فقال له أبو الهذيل:

(١) الأملى ج١.

(٢) ورد اسمه في مروج الذهب (إبراهيم بن يسار) وهو خطأ واضح، إذ أن الثابت أن اسمه إبراهيم بن يسار.

(٣) الدبيب: السير والحركة البطيئة الخفية.

(٤) أي أن العشق حلواً وعذب ما اقتصد فيه العاشق ولم يفرط.

(٥) عاد: أصبح الخبل فساد العقل والجنون.

(٦) المعضل: المعنى المشكل.

(٧) تهمي: تمطر بغزارة.

(٨) الشغف: الوله من شدة الحب.

(٩) الكلف: التعلق الشديد بالشيء من حب ورغبة فيه.

(١٠) أجنحه: خيم عليه.

(١١) مروج الذهب ج٣.

(١٢) الروفيات ج٤.

أبو سلوم المعتزلي

(لا أعرف لجزعك^(١) عليه وجهًا، إذ كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل إنما أجزعُ عليه لأنه لم يقرأ كتاب (الشكوك)، فقال له: كتاب (الشكوك) ما هو يا صالح؟ قال: هو كتابٌ قد وضعتُه من قرأه يشكُّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، ويشكُّ فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشكَّ أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يميت، وإن كان قد مات، وشكَّ أيضاً في قراءته كتاب (الشكوك) وإن لم يقرأه^(٢) (٣).

كانت ولادته سنة ١٣١ هـ، وقيل أربع وقيل خمس، وتوفي سنة ٢٣٥ هـ بسرّ من رأى^(٤).

يروى عنه في بلاغته وتصرفه في فنون القول، أنه اجتمع عند يحيى بن خالد البرمكي جماعة من أرباب الكلام، فسألهم عن حقيقة العشق، فتكلّم كل واحد بشيء، وكان أبو الهذيل في جملتهم، فقال: (أيها الوزير، العشق يختم^(٥) على النواظر، ويطيع^(٦) على الأفتدة مرتعه في الأجسام ومشرعه في الأكباد^(٧))، وصاحبه متصرف الظنون، متفنن الأوهام، لا يصفو له مرجو، ولا يسلم له موعودٌ، تسرع إليه النوائب^(٨)، وهو جرعة من نقيع الموت^(٩)، ونقعة من حياض الشكل^(١٠)، غير أنه من أريحية^(١١)، تكون في الطبع، وطلاوة توجد في الشمائل^(١٢)، وصاحبه جوادٌ لا يصغى إلى داعية المنع، ولا يصيخ لنازع العذل^(١٣) (١٤).

(١) جزع منه: لم يصبر عليه فأظهر الحزن أو الكدر، وجزع عليه: أشفق منه.
(٢) ويمكننا درج هذا النص أيضاً تحت عنوان الأدب الساخر لدى المعتزلة لما يشتمل عليه من سخرية وتهكم من طريقة تفكير صالح بن عبد القدوس.

(٣) الوفيات ج ٤، (٤) المصدر السابق.

(٥) ختم على قلبه: جعله لا يفهم.

(٦) طبع: دنس في جسمه أو حلقه يعيب، وطبع السيف: علاه الصدا.

(٧) المرنع: محل الإقامة. المشرع: المورد.

(٨) النوائب: ج نائبة: المصيبة.

(٩) النقيع (هنا) السم.

(١٠) الشكل: فقدان الأم لولدها.

(١١) الأريحية: سعة الخلق، والمبادرة إلى المعروف.

(١٢) الطلاوة: الحسن والبهجة والشمائل جمع: شميلة: الطبع.

(١٣) يصغى ويصيخ: يستمع إلى. العذل: اللوم.

(١٤) الوفيات ج ٣ اعتمدنا في ترجمة أبي الهذيل على الوفيات ج ٤، وجاءت ترجمته أيضاً في تاريخ بغداد، ومروج الذهب، وأمالى المرتضى.

القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي^(١)

١٦٠ - ٢٤٠ هـ

هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي القاضي، كان معروفًا بالمروءة والعصبية وله مع المعتصم في ذلك أخبار ماثورة^(٢).

ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب (المرشد في أخبار المتكلمين)، فقال: قيل: إن أصلهم من قرية بقنبرين، واتجر أبوه إلى الشام، وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال^(٣).

وقال أبو العيناء عنه: ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد... وكان شاعراً مجيداً فصيحاً.

وقال المرزباني: وقد ذكره دعبل بن علي الخزاعي في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتاً حسناً.

وقال لازون بن إسماعيل عنه: ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد، وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله، وفي أهل الثغور وفي الحرمين، وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب، فيجيبه إلى كل ما يريد^(٤).

عاصر ابن أبي دؤاد المأمون والمعتصم، والوائق وكان مقرباً إليهم، أثيراً عندهم، صاحب نفوذ وكلمة مسموعة في بلاطهم، إلى درجة أن المأمون عندما أسند وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم قال بشأن ابن أبي دؤاد: (وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر، فإنه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدى وزيراً)^(٥).

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، وعزل يحيى بن أكثم، وخص به أحمد حتى كان لا يفعل باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، وامتنح ابن أبي دؤاد الإمام أحمد بن حنبل، وألزمه القول بخلق القرآن الكريم وذلك في شهر رمضان سنة عشرين ومائتين، ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق حسنت حال ابن أبي دؤاد عنده^(٦).

كان لابن أبي دؤاد أخبار ومواقف كثيرة من الشعراء والأدباء، مما يدل على أنه كان متذوقاً للأدب، نقاداً للشعر، مقدراً ومكرماً لأهله، ولذلك فقد مدحه الكثير من شعراء

(١ - ٦) (المصدر: وفيات الأعيان ج ١).

عصره، قال على الرازي: رأيت أبا تمام الطائي عند ابن أبي دؤاد ومعه رجل ينشد عنه قصيدة منها:

لقد أنست مساوي كل دهر محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك^(١) راحلتى وزادى

فقال له ابن أبي دؤاد: هذا المعنى تفرّدت به أو أخذته؟ فقال: هو لى، وقد ألمت فيه بقول أبي نواس:

وإن جرت الألفاظ منّا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذى نعنى^(٢)
ومدحه أبو تمام أيضاً بقصيدة قال فيها:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عُرف العود

وكان ابن أبي دؤاد كثيراً ما ينشد الشعر، ومن ذلك قوله:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطيب لشدة الأوصاب^(٣)

وهجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضى أحمد، فقال:

أحسن من سبعين بيتاً هجاً جمعك معناهن فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت^(٤)

توفى القاضى أحمد بمرض الفالج فى محرم سنة أربعين ومائتين على اختلاف فى الروايات بعد أن غضب عليه المتوكل وعزله ونكب المعتزلة منتصراً لأهل السنة بزعامه أحمد بن حنبل، ونقل عنه أنه قال: ولدت بالبصرة سنة ستين ومائة.

قال أبو بكر بن دريد عنه: كان ابن أبي دؤاد مؤلفاً لأهل الأدب من أى بلد كانوا، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم فلما مات حضر بيابه جماعة منهم، وقالوا:

(١) الجدوى: العطية. (٢) المصدر السابق.

(٣) الأوصاب المفرد: الرصب: المرض والوجع الدائم ونحول الجسم.

(٤) الوضر الجمع أوضار: وسخ الدسم غسالة الفصعة ونحوها، أثر الطعام فى القصة.

يدفن من كان ساقه^(١) الكرم، وتاريخ الأدب، ولا يتكلم فيه؟ إن هذا وهن وتقصير، فلما
طلع سريره^(٢) قام إليه ثلاثة منهم، فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ومات من كان يستعدي^(٣) على الزمن
وأظلمت سبيل الآداب إذ حجبت شمس المكارم في غيم من الكفن
وتقدم الثاني فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعاً وله منابر لو يشأ و سرير^(٤)
ولغيره يجبي الخراج وإنما يجبي إليه محامد وأجور
وتقدم الثالث وقال:

وليس فتيق المسك ريح حنوطه^(٥) ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصفوا^(٦)

الجاحظ ١٥٩ - ٢٥٥ هـ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بـ (الجاحظ) و(الحدقي) لجحوظ عينيه وبروز
حدقتيه، وهو كما يعلم الجميع من أساطين الأدب العربي ورأس المدرسة النثرية في العصر
العباسي، وأحد أشهر متكلمي المعتزلة، إذ كان له مذهب خاص في الاعتزال عُرف بـ
(الجاحظية). وهي فرع من المعتزلة، وقد صنف الجاحظ في هذا المذهب كتاباً خاصاً أيده
بالبراهين، وعضده بالأدلة والاحتجاجات لمذهبه^(٧).

وكان له أثر عظيم كأديب وعالم من علماء الكلام وإليه يتنسب الجاحظية، وهم فرقة
من المعتزلة أتبعته تعاليمه^(٨).

(١) الساقه: الموكب، مؤخر الجيش. (٢) السرير (هنا): النعش الذي يحمل عليه الميت.

(٣) يستعدي: يستعان به. (٤) السرير (هنا): التخت والعرش.

(٥) الحنوط والحناط: كل طيب يمنع الفساد تحشى به جثة الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلاً، والفتيق: ما
يعيق من رائحة المسك.

(٦) للاطلاع أكثر على ترجمة ابن أبي دؤاد يراجع: تاريخ الطبري ج٧، وطبقات المعتزلة، الوافي، الورقة،
الشدرات، الصرير (هنا) صوت تمایل الخشب، تقصف: تكسر.

(٧) راجع مروج الذهب ج٣. (٨) تاريخ العرب لفيليب حتى.

قال عنه الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) في معرض حديثه عن مذهب العثمانية :
(كان من فضلاء المعتزلة ، والمصنفين لهم ، وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط
وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة وحسن براعته اللطيفة)^(١) .

وفي هذا القول ما يدل على أثر الاعتزال ، والمنحى الكلامي الجدلي على أدب الجاحظ
ونماجاته ، حيث استطاع أن يمزج مزجاً رائعاً النزعة الكلامية والفلسفية بالأسلوب الأدبي ،
فجاءت مؤلفاته على هذا المنحى ، فقد كانت روح الاعتزال تدفع أصحابها إلى تناول كل
فروع المعرفة ، فكان من أثر ذلك على الجاحظ أن اتسعت آفاقه العقلية ، فتجسدت نزعة
الجدل والمناظرة بشكل واضح على كتاباته .

• أساتذة الجاحظ:

جدُّ الجاحظ في طلب العلم منذ حداثة سنه ، حيث بدأ عهده بتلقى العلم من الكتاب في
البصرة ، وكان يعاني من الفقر والخصاصة ، فاضطر إلى أن يعمل في دكاكين الوراقين
نهاراً ، ويقضى ليله في قراءة ومطالعة الكتب الموجودة فيها ، فلم يقع في يده كتاب إلا
استوفى قراءته .

وما لبث أن اتصل بشيوخ العلم والأدب في عصره فأخذ عن أبي عبيدة ، والأصمعي ،
وأبي زيد الأنصاري ، وأبي الحسن الأخفش ، وكان يتردد على (المريد) ويسمع اللغة من
الأعراب شفاهاً ، وأما أستاذه في الكلام والاعتزال فهو أبو إسحاق النظم .
حدّث عن جماعة من الفقهاء كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ويزيد بن هارون ،
والسري بن عبدويه .

وروى عنه المبرد ، وابن أخته يموت بن المزرع ، وأبو بكر السجستاني وغيرهم .

• علومه:

وعلى عادة العلماء في عصره كان الجاحظ موسوعياً شمولياً في العلوم والمعارف التي
نظر فيها ؛ فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعيات والرياضيات ، والتاريخ والسياسة
والأخلاق والفراسة حتى اكتملت آلاته وأدواته العلمية ، كما دأب على ذلك شيوخ
المتكلمين والمعتزلين ، فكان فقيهاً ، متكلماً ، متفلسفاً ، متمنطقاً ، محدثاً ، بارعاً أشد
البراعة في اللغة والأدب حتى تفوق على أقرانه ، وبز أدباء عصره من الكتاب ، وعُداركناً

(١) الملل والنحل ج١ .

مبيعاً من أركان الأدب العربي والبلاغة ربما في جميع عصور الأدب العربي، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للجاحظ اهتمامات علمية في الطبيعيات كما نرى ذلك بوضوح في كتابه الشهير (الحيوان) الذي طرح وبحث فيه موضوعات علمية تتعلق بعالم الحيوان وخصائصه وصفاته مع مزج لهذه الموضوعات بالأغراض والأساليب الأدبية والفنية، وهي خصوصية تميز بها شيوخ المعتزلة في الأدب، كما رأينا في الفصل الذي عقدناه في الباب الثالث لدراسة نثر المعتزلة.

• اعتزال الجاحظ، ونزعته الحرّة في التفكير:

سبق وأن ذكرنا أن أبا عثمان الجاحظ تلقى الاعتزال عن أبي إسحاق النظام الذي مرت ترجمته، فكان بطبيعة الحال يتميز - كأى معتزلي آخر وربما بشدة أكثر - بحرية التفكير، والاعتماد على العقل إماماً، ومعياراً أساسياً في الشرع، واستنباط الأحكام، والمعتقدات دون الاطمئنان إلى الحديث والنقل على نهج المعتزلين، بل أنه تجاوز ذلك إلى رد الكثير من الأحاديث، وهاجم في كتاباته بشدة الفقهاء، والمفسرين ونقله الأحاديث من المذاهب والاتجاهات المختلفة (عدا المعتزلة طبعاً) كالسنة، والشيعية، والغالية، والمتصوفة، كما نرى ذلك بوضوح في كتاب الحيوان حيث نلاحظ فيه مقالات كثيرة هاجمهم فيها، وناظرهم وجادلهم بعنف ودون هوادة.

• نماذج من نقده للعلماء من المذاهب الأخرى:

من ذلك قوله في كتاب الحيوان: (وقال الله عز وجل: ﴿والتين والزيتون...﴾ فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق، والزيتون فلسطين... والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وإنما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما أشبه ذلك^(١).

فها هنا يرد الجاحظ على زيد بن أسلم ويأخذ عليه أخذه بظاهر الألفاظ، في حين أن الله تعالى - يريد من ذكر هذه الثمرات والإقسام بها بيان عظمة النعم التي أنعم بها على عباده.

وفي موضع آخر من كتاب الحيوان يقول الجاحظ راداً على جماعة من المتصوفة: (وفي القرآن قول الله عز وجل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل...﴾، فقد زعم ابن حائظ وناس

(١) الحيوان ج١.

من جهال الصوفية أن في النحل أنبياء لقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ ، وما خالف أن يكون في النحل أنبياء^(١) بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله على المخرج العام^(٢) : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب^(٣) بل أطلق القول إطلاقاً^(٤) .

فالجاحظ ينتقد في النص السابق بعضاً من المتصوفة الذين تعسفوا في تفسير آيات القرآن الكريم وبالغوا فيه مستندين إلى دلائل ، وقياسات لا تنسجم مع العقل والمنطق . ويخرج الجاحظ - على عادته - نقده هذا بشيء من التهكم والسخرية حيث نراه يجارى في نهاية النص المتصوفة في هذا التفسير فينتهى - طبقاً لقياساتهم واستدلالاتهم - إلى أن النحل أنبياء كلها ! .

ونراه في موضع آخر يسخر من بعض المفسرين وأصحاب الأخبار ، فيقول : (وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسةً ، فرمى من منخريه بزوج سنانير^(٥) فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد وسلح^(٦) الفيل زوج خنازير أشبه شيء بالفيل ، قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها ، وضحك القوم)^(٧) .

• اعتزال الجاحظ

كان الجاحظ علماً معروفاً من أعلام الاعتزال ، وإليه تنسب الفرقة المعتزلية التي عرفت به حيث يطلق عليها اسم (الجاحظية) ، وهي فرقة انفرد بها الجاحظ عن فرق المعتزلة الأخرى ببعض الآراء التي ذكر بعضاً منها الشهر ستاني في (الملل والنحل) ، والبغدادى في (الفرق بين الفرق) ، ومن هذه الآراء أن المعارف ضرورية مركبة في طباع العباد ، وليست من أفعالهم ، وليس للعباد كسب سوى الإرادة لأنها جنس من الأعراض ، وأما الأفعال فجبورية تحصل على العباد طباعاً ، ومنها أن أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعة النار ، وأن الله لا يدخل أحداً في النار بل إن النار تجذب أهلها إليها .

(١) بقول ما أخطأ في قوله إن في النحل أنبياء وذلك على سبيل التهكم والاستهزاء .

(٢) أى على سبيل التعميم .

(٣) اليعاسيب : ج يعسوب وهو ذكر النحل . (٤) الحيوان ج ٥ .

(٥) السنور : الهر ، الجمع سنانير

(٦) سلح : تغوط وهو خاص بالصبر والبهائم

(٧) الحيوان ج ١ .

وبالجمللة فإن الجاحظ في مذهبه هو عينه مذهب الفلاسفة، إلا أنه يميل إلى الطبيعيين أكثر من الإلهيين كما يقول الشهرستاني .

• خصائص الجاحظ في نثره:

نرى في ما خلفه الجاحظ من آثار ومؤلفات تجسداً واضحاً وغموضياً لجميع النزعات والاتجاهات الاعتزالية في التفكير مع نضج أكثر، وغزارة وتوسعاً أكبر، فهو يشكل النموذج الأمثل والأكمل للباحث الأدبي لكي يدرس ويتقصى آثار الاعتزال في الأدب العربي، ولذلك فقد خصصنا هذا الفصل الطويل نسبياً لدراسة مؤلفاته وخصائصه الأسلوبية، وتوسعنا بعض الشيء في استعراضها وبحثها، ذلك لأن دراسة آثار الجاحظ من شأنها أن تسلط الكثير من الأضواء، وتكشف الكثير من مجاهل إسهامات المعتزلة في الأدب العربي .

ولعل أول ما يستوقفنا في آثار الجاحظ وكتاباته خصائص النزعة الأدبية والفنية الواضحة الغالبة على أسلوبه في جميع ما تطرق إليه قلمه، يقول عنه الشهرستاني مشيراً إلى هذه الخصوصية:

(كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم، وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة، وخط وروح^(١) بعباراته البليغة، وحسن براعته اللطيفة . . .)^(٢) .

ونحن نجد هذه النزعة الفنية واضحة كل الوضوح في كتابه الشهير (البخلاء) وهو كتاب أدبي قصصي إخباري يتناول بالوصف الفني الدقيق والمتشعب للحالات الجسدية والنفسية للبخلاء وطرق معاشهم، وحرصهم، وأساليبهم، وحيلهم لدفع الضيوف، ونواديرهم وطبائعهم، بأسلوب أدبي وفني أخذ مزوج بالدعابة والسخرية، والتهكم .

وقد استعرض الجاحظ في كتابه هذا مقدرته الفذة على التصرف في فنون الكلام، والتلاعب بالعبارات والألفاظ، حتى أنه كثيراً ما يعتمد في كتابه هذا إلى إثبات المواضيع المختلفة والاستدلال لها، ثم إذا به يبادر إلى نفيها ونقضها بإيراد جملة أدلة وبراهين أخرى، وهدفه من ذلك عرض قدرته على الإمساك بزمام الكلام وتصريفه حيث يشاء وهي خصوصية يتميز بها أدباء المعتزلة متأثرين بثقافتهم الميالة إلى الجدل والاستفاضة في ذكر التفاصيل .

(١) روح فلان كلامه : زبه وأهمه فلا تعلم حقيقته .

(٢) الملل والنحل ج ١ .

وفيما يلي ندرج نموذجًا من هذا الكتاب ليتسنى لنا التعرف عن كثب على هذه
الخصوصية:

(زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غاية، وصار إمامًا، وأنه كان إذا صار في يده
الدرهم، خاطبه، وناجاه، وفداه^(١) واستبطأه^(٢)، وكان مما يقول له: (كم من أرض قد
قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل قد رفعت، ومن رفيع قد خملت، لك
عندي أن لا تعرى ولا تضحى)^(٣)، ثم يلقيه في كيسه ويقول له: (اسكن على اسم الله
في مكان لا تهان ولا تذلل ولا تزعج^(٤) منه)، وأنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه.
وإن أهله ألحوا عليه في شهوة^(٥))، وأكثروا عليه في إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكن
ذلك، ثم حمل درهماً فقط، فبيناه^(٦) ذاهب إذ رأى حواء^(٧) قد أرسل أفعى لدرهم
يأخذه، فقال في نفسه: (أتلف شيئاً تبذل فيه النفس بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا
موعظة من الله)، فرجع إلى أهله وردَّ الدرهم إلى كيسه، فكانوا منه في بلاء، وكانوا
يتمنون الخلاص منه بالموت والحياة بدونه.

فلما مات، وظنوا أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره، ثم قال:
(ما كان آدم^(٨) أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام)، قالوا: (كان يتأدم^(٩) بجبنة
عنده)، قال: (أرونيها) فإذا فيها حزٌ كالجدول من أثر مسح اللقمة، قال: (ما هذه الحفرة؟)
قالوا: (كان لا يقطع الجبن إنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى)، قال: (فبهذا
أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد، لو علمت ذلك ما صليت عليه!)، قالوا له: (فأنت
كيف تريد أن تصنع)، قال: (أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة!)^(١٠).

(١) فداه: قال له: فذاك نفسي.

(٢) استبطأه: استطال بعده عنه، وقال: أبطأت في مجيئك إلى.

(٣) يضحى: يتعرض لنور الشمس، والضواحي من الشجر: ما لا ورق له،

(٤) تزعج منه: ترغم على تركه.

(٥) يريد أن أهله اشتبهوا شيئاً فألحوا عليه في شرائه.

(٦) بيناه: فينما هو.

(٧) الحواء: مدرب الحيات.

(٨) الأدم والإدم: ما يؤخذ من الطعام بالخبز.

(٩) يتناول لقمة من الطعام.

(١٠) البخلاء ص ١٣١.

وبعد فإننا فى النص السابق نقف إزاء أديب بارع فى التصوير ، ماهر فى تشويق القارئ ، واستدراجه إلى النتيجة التى يريد أن يلقيها إليه ، وهو بالإضافة إلى ذلك قدير على السخرية والتهكم والاستهزاء . وانتزاع الابتسامة وربما الضحكة من المستمعين إليه ، إلا أنه لا يلقي مزحته إلقاء دون مقدمات ، ودون تمهيد ، ودون إيهام القارئ فى البدء بأن الابن سيخالف سيرة أبيه ، وسيكون جواداً ، منفاقاً يعرض عن ما بدر من والده من بخل ، وتقدير على أهله ، إلا أن النتيجة جاءت معاكسة لذلك تماماً ؛ فقد عمد الجاحظ بقدرة ومهارة فى نهاية النص إلى الكشف عن حقيقة هذا الابن ، فإذا هو أشد بخلًا ، وأمعن فى التقدير من أبيه وذلك من خلال قوله فى ختام النص جواباً على سؤال أهله : (أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة!) .

• عرض الحقائق والظواهر العلمية بأسلوب أدبي :

وهى خصوصية أخرى من خصائص المعتزلة عموماً والجاحظ خصوصاً ؛ فالعلم والأدب قرينان فى كل ما كتب الجاحظ ؛ تلقى الحقيقة العلمية فى الكتاب الأدبي ، والطفرة الأدبية فى الكتاب العلمى ، ونحن نلمس التعبير الأدبي حتى فى كتب العلم ، ويطالعنا المنهج العلمى فى عرض الفكرة ومعالجتها ، وهو دائماً يذهب من المقدمات إلى النتائج ، ومن الخاص إلى العام ، متبعاً طريق الجدل المنطقى ، متناولاً كل أمر من جميع نواحيه حتى يستوفى حقه شأنه فى ذلك شأن العلماء وهم يسجلون الحقائق والظواهر فى مختبراتهم ويثبتون كل شاردة وواردة عنها .

ورغم صعوبة وجفاف الموضوعات العلمية والفلسفية التى تطرق إليها الجاحظ فى كتاباته إلا أنه رفض أن يكتب للخاصة من المفكرين والعلماء والمثقفين ، وأصر على جعل الفكر ملكاً لعامة الناس ، فكتب بلغة بسيطة مجردة فى معظم الأحيان من المصطلحات العلمية الخاصة .

ولعل ذلك هو السبب فى اعتماده على بساطة اللفظ والتعبير ، وبعدهما عن الغريب والحوشى ، وعلى وضوح الدلالة ، ودقة الصلة بين اللفظ والمعنى .

• نموذج من التناول الأدبي للموضوعات العلمية من كتاب الحيوان:

(حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى، وأخوه روح الكاتب، ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر^(١) حية تتصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد. زعموا أنها إذا انتصف النهار، واشتد الحر فى رمال بلعنبر، وامتنعت الأرض على الحافى والمتعل^(٢)، ورمض الجندب^(٣)، غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركز^(٤) أو عود ثابت، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه، فإن كان جرادة أو جعلاً^(٥) أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعتة وبقيت على انتصابها، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله، أكلته وانصرفت، وإن كان ذلك دأبها^(٦) ما منع الرمل جانبه^(٧)، فى الصيف والقيظ^(٨)، فى انتصاف النهار والهاجرة^(٩)، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود، وأنه سيكون له مقام الجذل^(١٠) للجرباء، إلى أن يسكن الحر، ووهج الرمل.

وفى هذا الحديث من العجب أن تكون الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود، وفيه قلة اكتراث^(١١) الحية للرمل الذى عاد كالجمر، وصلاح أن يكون ملة وموضعاً للخبزة^(١٢)، ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية^(١٣) ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة، فهذه أعجوبة من أعاجيب ما فى الحيات^(١٤).

- (١) بلعنبر: أصلها بنو العنبر. (٢) يريد أن كلا من الحافى والمتعل لا يستطيعان الوقوف على الأرض لشدة حرهما.
(٣) رمض: رمض الطائر: احتر جوفه من شدة العطش، ورمض الرجل: أحرقت الرمضاء قدميه. الجندب والجندب من الجرادة جمع جنادب.
(٤) مركز: مغرور فى الأرض (٥) الجعل: نوع من الخنفساء.
(٦) الدأب: العادة (٧) ما منع الرمل جانبه: أى ما دامت حرارته بالغة مبلغاً لا يستطيع لمسه.
(٨) القَيْظ: الحرارة الشديدة الحارقة. (٩) الهاجرة: الوقت الذى يبلغ فيه الحر ذروته وهو منتصف النهار.
(١٠) الجذل من الشجرة: أصلها الباقي بعد ذهاب فروعها، وعوده ينصب للإبل الجربى لتحتك به تصغيره (الجذيل) ومنه قول القائل (أن جذبيها المحكك) أى الذى يحتك به كثيراً وهو مثل لمن يتجأ إليه، ويستغنى برأيه جمع جذال، وجذل، وجذول، وجذولة.
(١١) اكتراث: اهتمام.
(١٢) الملة: الجمر، الرماد الحار خبز الملة هو الذى يخبز فيها يقول: إن حرارة الرمل تبلغ حداً بحيث يصلح أن يخبز عليه الخبز مبالغة فى تشبيه شدة الحرارة بالجمر.
(١٣) يشير إلى ما سبق أن قاله فى مطلع هذا النص من أن الحية تغرز ذنبها فى الرمل عند اشتداد الحرارة وهو هنا يتعجب من احتمالها هذه الحرارة لساعات من النهار، وهى على هذه الحالة.
(١٤) الحيوان: جء

• الاستفاضة والإطناب:

وهما خصوصية أخرى من خصوصيات أدب المعتزلة عموماً، والجاحظ خصوصاً أملت لها عليه نزعة الاعتزالية الكلامية التي تحدو بصاحبها إلى الإطناب، واستيعاب التفاصيل، والوصف الدقيق المتشعب للجوانب المختلفة للموضوع الذي يتناوله لأن مثل هذا التناول يتطلب إيراد الأدلة المختلفة، وهذا الإيراد يقتضى بدوره الإطناب فى الحديث، والتوسع فى الطرح، ثم إن المعتزلة - ومنهم الجاحظ - عرفوا بالقدرة على المناظرة، والنقاش، والجدل، ومن المعلوم أن هذه الأساليب الكلامية تستوجب من صاحبها الشرح، والتفصيل، والتطرق إلى المواضيع المختلفة، ومحاولة إقناع الخصم والرد عليه بشتى الأساليب وبذكر مختلف المواضيع.

ونحن نستطيع أن نقول إن جميع كتابات الجاحظ تقريباً تعتبر نموذجاً لنزعة الاستفاضة والإطناب فى الكتابة، فلا حاجة بنا هنا إلى إيراد نموذج لهذه الخصوصية.

• السخرية والتهكم:

وهى خصوصية عرف بها الجاحظ، ولازمته فى أغلب آثاره ومنها كتاب البخلاء، ورسالة الترييع والتدوير، وقد برع الجاحظ أياً براعة فى هذا اللون من الأدب نظراً إلى أنه هو نفسه كان ميالاً بطبعه إلى اللهو، والمزاح، والسخرية، خفيف الروح، ظريف الحديث، طيب النكتة، مطبوعاً على السخر والتهكم.

على أن أدباء المعتزلة كانوا - بصورة عامة - ميالين إلى هذا اللون من الأساليب كما لاحظنا ذلك لدى بشر بن المعتمر، وأبى الهذيل العلاف، والنظام، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى اعتدادهم بمذهبهم، وتصورهم أن هذا المذهب القائم على تقديس العقل والمنطق هو أفضل المذاهب على الإطلاق، وأنهم على ضوء ذلك يمثلون نخبة أبناء مجتمعهم، وأكثرهم وعياً وفهماً للأمور، ولذلك فإنهم كثيراً ما كانوا يسخرون ويتهكمون من العقائد والأفكار الأخرى وخصوصاً تلك المنتشرة بين عامة الناس.

• نموذج من رسالة الترييع والتدوير:

وضع الجاحظ هذه الرسالة فى هجاء شخص يدعى (أحمد بن عبد الوهاب) كان - على ما يبدو - من طبقة كتاب الأمراء، وقد عاصر محمد بن عبد الملك الزيات وكان أحد أصحابه المقربين إليه^(١).

(١) الأغاني ج ١٢.

وتكمن أهمية هذه الرسالة في كونها تنطوي على طريقة فنية في السخرية لا تجارى ، فأبو عثمان ينتقل بمهجوه من حقل إلى حقل ويزدر به فلا يصغره في عيون الناس فقط ، بل في عين نفسه حتى ليود لو أن الأرض خسفت به خوفاً من أن تقع عليه عين^(١) . وإذا كانت رسالة الترييح والتدوير معرضاً للمسائل الثقافية التي شغلت عقول الناس في عصره ، فهي نموذج لأدب الجاحظ تمثلت فيه خصائصه الفنية خير تمثيل . . . ومن تلك الخصائص مزج الجدل بالهزل ، وقد احتج لهذا الأسلوب بقوله إن لكل منهما فوائد ، وقد أراد من المزج بينهما طرد السامة عن نفس القراء . . .^(٢) .

• النموذج :

قال الجاحظ في جانب من رسالته ساخراً ومتهكماً من قبح هيئة أحمد بن عبد الوهاب على سبيل الذم بما يشبه المدح .
(. . .) ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً ، وحلواً مليحاً ، وعتيقاً^(٣) رشيقاً ، وفخماً نبيلاً ثم لا يكون موزون الأعضاء ، ولا مقدور الأجزاء ، وقد تكون أيضاً الأقدار متساوية غير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصداً^(٤) ومقداراً عدلاً وإن كانت هناك دقائق خفية لا يراها إلا الألعى ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكى ، فأما الوزن المحقق^(٥) والتعديل المصحح والتركيب الذى لا يفضحه التفرس^(٦) ، ولا يحصره التعنت^(٧) ، ولا يتعلل جاذبه ، ولا يطمع فى التمويه^(٨) ناعته فهو الذى خصصت به دون الأنام ، ودام لك على الأيام ، وكذا الحسن إذا كان حراً مرسلأ ، وعتيقاً مطبقاً^(٩) لا يتحكم عليه الدهر ، ولا يديله^(١٠) الزمان ، ولا يحتاج إلى تعليق التماثل ، ولا إلى الصون والسكن ، ولا إلى المناقش^(١١) والكحل ، ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سهل فى العيون تسهيلاً ،

(١) الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره . جميل جبر ، وأيضاً الجاحظ حياته وأثاره .

(٢) رسائل الجاحظ - الرسائل الأدبية . (٣) العتيق (هنا) الجميل ج : عتقاء وعتق .

(٤) القصد : المعتدل والوسط والفاعل فى (يكون) يعود إلى الرجل .

(٥) المحقق : الثابت والمتحقق منه .

(٦) التفرس : تفرس فى نظر وثبت نظره فيه وتفرس فيه الخير : نومه .

(٧) التعنت : إدخال الأذى ، وطلب الزلة والمشقة .

(٨) التمويه : موه عليه الأمر أو الخير : زوره عليه وزخرفه ولبسه أو بلغه خلاف ما هو .

(٩) عتيقاً مطبقاً : كرمياً شاملاً . (١٠) لا يديله : لا يحوله ولا يغيره .

(١١) المناقش ما ينقش به .

وحبب إلى القلوب تحبيبا، وقرب إلى النفوس تقريبا حتى امتزج بالأرواح وخالط الدماء
وجرى في العروق، وتمشى في العظم بحيث لا يبلغه السم^(١) ولا الوهم ولا السرور
الشديد ولا الشراب الرقيق، لكان في ذلك المزية الظاهرة، والفضيلة البينة...^(٢).

• إسهامات الجاحظ في البلاغة:

يعتبر الجاحظ أحد أساطين وأركان البلاغة في الأدب العربي، ويعتبر كتابه (البيان
والتبيين) أحد الأركان والأعمدة الأساسية للبلاغة والنقد في الأدب العربي، قال عنه
المسعودي:

(وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها لأنه جمع بين المنشور
والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبلغ الخطب مالم يقتصر عليه مقتصر
لاكتفى به... ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه)^(٣).
وقال عنه ابن خلدون:

(سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (أي علم الأدب) وأركانه
أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان
والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع
لها وفروع عنها...)^(٤).

وكتاب البيان والتبيين يقع في ثلاثة أجزاء يهتم الجاحظ في الجزء الأول بالخطابة والبيان
وما يتصل بهما من موضوعات كعيوب النطق مثل الحصر والمعنى^(٥)، وأنواع الدلالات،
ثم ينتقل إلى الخطباء ومشاهيرهم، وأساليبهم، ويورد مقاطع من الخطب والأشعار، ثم
يبين الصلة بين المعاني والألفاظ ذاكراً آراءه في هذا المجال الحيوي من مجالات البلاغة.
وينتهي من ذلك إلى ذكر البلاغة ورأي العرب والأعاجم فيها، وكيف يكون الشعر أو
الشعر بليغاً، ويذكر الأسس التي تقوم عليها البلاغة.

(١) يقول: إن جمالك بلغ حداً من النفوذ في الأرواح بحيث إن السم على قدرته على النفوذ في أدق أجزاء الجسم
لا يستطيع أن يبلغ ذلك الحد.

(٢) رسائل الجاحظ - الرسائل الأدبية. (٣) مروج الذهب ج٤.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٥) حصر يحصر حصرأ: معنى في النطق وأصله من الحصر أي الضيق. ومعنى عبا - في النطق - حصر فهو عى
ومعنى.

ويرد على خصومه الذين حسنوا من العي، ويبطل حججهم، ثم ينتهي إلى نصح من يزعم لنفسه الشعر أو الأدب، ويقول إن كليهما موهبة وفطرة، ولا يكون المرء شاعراً أو أديباً دونهما.

وهو ينصح بتهديب الشعر وتنقيحه، وعدم الإطالة والتكرار وخاصة في الهجاء ويدعو إلى اختيار اللفظ، ووضوح التعبير، وترك الحوشى والغريب لأنه يباعد بين أفهام الناس وبين المعانى.

ويشيد بالصمت حين تكون فيه السلامة ويذكر رأى الحكماء والأدباء فيه، ويحدد مواضع الصمت والكلام.

ويتحدث فى فصل آخر عن المتكسبين بالشعر، ويورد مقطوعات من شعرهم، وينتقل إلى بعض المختارات من الخطب والحكم والأمثال السائرة.

وبالجملة فقد أورد الجاحظ فى (البيان والتبيين) آراء ناضجة يعتدُّ بها فى البلاغة والنقد الأدبى كان لها الأثر فى إرساء دعائم علوم البلاغة، وصياغة الآراء النقدية التى ظهرت بعده وخصوصاً فيما يتعلق بالمباحث المرتبطة بالكيفية التى يجب أن تكون عليها العلاقة بين اللفظ والمعنى، وتعريف البلاغة والبليغ، وعيوب النطق ومحاسنه، ومواصفات الخطيب وما إلى ذلك من موضوعات تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم البلاغة والنقد الأدبى اللذين اهتم بهما شيوخ المعتزلة فى الأدب اهتماماً خاصاً وأفردوا لدراستها الفصول والأبواب والمؤلفات كما رأينا فى الفصل الذى خصصناه لدراسة نثر المعتزلة.

• نموذج من البحوث البلاغية والنقدية من كتاب (البيان والتبيين):

(قال بعض جهابذة^(١) الألفاظ ونقاد المعانى: المعانى القائمة فى صدور العباد، المتصورة فى أذهانهم المتخلجة^(٢) فى نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم^(٣) مستورة مخفية وبعيدة وحشية^(٤)، ومحجوبة مكنونة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه^(٥)، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها،

(١) الجهابذة ج جهيد الناقد العارف بتميز الجيد من الردى.

(٢) المتخلجة: المضطربة. (٣) فكرهم: تفكيرهم.

(٤) وحشية: يعنى غير مانوسة ومألوفة.

(٥) الخليط: المخالط والمعاشر.

واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلبها للعقل، وتجعل الخفى منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تخلص^(١) الملتبس^(٢)، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل^(٣) مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشى مألوفاً، والغفل موسوماً^(٤)، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع^(٥)، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذي سمعت الله - تبارك وتعالى - يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم... (٦).

وهكذا يرى الجاحظ في النص السابق أن ما يضطرب في الذات من المشاعر والأفكار والخواطر لا سبيل إلى حصره، فإذا استبقاها المرء في أعماقه، وحجبها عن الآخرين لم تكن لها قيمة تذكر لديهم لأنهم لا يستطيعون الحكم الصحيح على مجهول، ولم تكن ذات وزن فني مهما كانت من الرفعة والعمق، لأن الفن غير قادر على إدراك صلتها به إن لم توضع في إطار من التعبير.

أما التعبير فيجب أن يكون فصيحاً واضح الدلالة بأن تكافئ الألفاظ المعاني، فتقلها نقلاً دقيقاً في صيغ موجزة مختصرة ما أمكن الاختصار ليعم نفعها وتشمل فائدتها، وهذا هو البيان الذي حبه الله - تعالى - إلى الناس، وأشار إليه القرآن الكريم، وتفاخرت به الشعوب.

وبذلك نخلص من كل ما سبق إلى أن الجاحظ يعتبر مدرسة أدبية قائمة بحد ذاتها، وأنه يمثل خير تمثيل الاتجاه الاعتزالي العقلي في النثر، فنحن نجد جميع خصائص ومميزات رجال الاعتزال مجتمعة بشكل نموذجي في آثاره، من استفاضة وعمق في الوصف، وإطناب وتطويل في الشرح والتفصيل، ونزعة أدبية وفنية في الحديث عن الموضوعات العلمية والفلسفية البحتة، وميل إلى التهكم والسخرية والنقد في التعامل مع الخصوم، والمذاهب والمعتقدات التي لا تنسجم مع المنطق العقلي للمعتزلة، واهتمام ببحث ودراسة وطرح المباحث البلاغية، والبيانية والنقدية، ودقة في وصف الحالات الروحية والنفسية

(١) تخلص : تصفى وتميز .

(٢) الملتبس : المختلط والمشتبه به .

(٣) المهمل من الكلام خلاف المستعمل .

(٤) الغفل : المجهول . الموسوم : المعلم بعلامة .

(٥) أنجع : أنفع وأجدى .

(٦) البيان والتبيين ج ٦ .

إلى آخر ذلك من موضوعات واتجاهات عرف بها أدباء المعتزلة، وبرعوا فيها، وأثروا من خلالها الأدب العربي.

• إسهامات الجاحظ في الأدب العربي:

لا ريب في أن الجاحظ كان له الفضل الأكبر على الأدب العربي من خلال مؤلفاته وكتابه ومصنفاته المعروفة في هذا الأدب، فقد كان صاحب مذهب خاص في الكتابة عرف به، وكان يعرف - كما أسلفنا - بأنه رأس المدرسة النثرية الثانية في العصر العباسي. ومما لا شك فيه أن النزعة الكلامية التي كان الجاحظ يميل إليها، واطلاعه الواسع على علم الكلام، والفلسفة وأصول الجدال والاحتجاج كل ذلك كان له أثر كبير على الأسلوب الكتابي الذي تميز به، فجاء هذا الأسلوب ميالاً إلى التوسع في بسط المواضيع، واستقصاء الدقائق والجزئيات، والانتقال من موضوع إلى آخر مع الاسترسال والاستطراد، فلقد مزج الجاحظ في كتاباته أروع مزج بين علم الكلام والفلسفة والكتابة الأدبية، فأخرج هذا العلم من الجفاف، وهكذا فإن الصفة الكلامية صادفت في الجاحظ روحاً فنية قوية حتى أصبح علماً من هذا الباب، فجاء أدبه على طراز فريد من نوعه، وطوع الأدب لأساليب وطرق المحاجة، والمجادلة كما نلاحظ ذلك بشكل جلي في كتابه الشهير (البخلاء) والذي ستحدث عنه فيما يأتي.

وهكذا يمكننا القول أن أدب الجاحظ هو أدب عقلي يعتمد إلى حد ما على الترتيب العقلي، والتقسيم المنطقي^(١).

على أن التأثير الواضح للجاحظ بمذهب الاعتزال وما يحفل به من محاججات عقلية، ومباحث كلامية ومنطقية لا يعنى أبداً أن أسلوبه جاء جافاً، معقداً، بعيداً عن روح الفن والأدب، بل إن الأمر على العكس من ذلك تماماً، وهنا تكمن عبقرية الجاحظ، وقدرته اللا محدودة على الخلق والإبداع والابتكار، فعلى الرغم من عقليته الميالة إلى البحث، والاستقصاء، وربط الأسباب والمقدمات بالنتائج، نجد أن أسلوبه جاء سمحاً طبعاً شيقاً يستهوى القارئ، ويجتذبه، نتيجة لابتعاده عن التكلف والتعسف، ولا ريب في أنه - أي الجاحظ - يعتبر بحق أول من مكن لهذا التطور وهياً له، وأقوى من ظفر للنثر العربي بهذه المنزلة، فلقد استطاع أن يلبس المعارف والنظريات والمناقشات والمجادلات ثوباً فنياً جميلاً،

(١) البخلاء ص ٢٥.

وأن يبرزها في صورة أدبية معجبة تظهر في سياقه السهل ، وألفاظه الجميلة المناسبة إلى غير ذلك من مظاهر الروح الأدبية حتى ليكاد القارئ ينسى أنه يقرأ مواضيع علمية مأخوذاً بتلك الروعة الفنية الظاهرة .

● إسهامات الجاحظ في النقد الأدبي:

وكان للجاحظ مذهب متميز ومتجدد في النقد الأدبي كما يظهر لنا ذلك واضحاً في كتابه الشهير (البيان والتبيين) الذي خصصه لنقد الشعر ، وعرض آرائه النقدية ، فقد كان من دعاة التجديد في نقد الشعر بمعنى أنه لم يكن يتبع المذهب الكلاسيكي المحافظ في نقد الشعر فيفضل المتقدمين على المتأخرين لمجرد كونهم من السابقين ، بل كان يقيم الأثر الأدبي على أساس جماليته الفنية والأدبية لا على أساس شهرة الشاعر^(١) .

يقول الجاحظ في مقدمة (كتاب البيان والتبيين) مشيراً إلى أسسه ومقاييسه في النقد، واختيار الشعر والنثر الأفضل:

(وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع^(٢) والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون السغب^(٣) ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث^(٤) . . . والعامّة ربما استخفت^(٥) أقل اللغتين وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر)^(٦) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الجاحظ من مؤسسي منهج (الوضع الفني) في الأدب العربي ومن أوائل من شقّه لمن بعده من الأدباء وخصوصاً في القرن الرابع الهجري^(٧) ، ونقصد بـ (الوضع الفني) تلك النزعة التي دفعت الرواة ، ومؤرخي الأدب إلى إضافة اللمسات الفنية والجمالية على الروايات والحكايات التي يروونها من خلال التصرف فيها ،

(١) راجع كتاب البخلاء - المقدمة ، وكتاب البيان والتبيين ج١ .

(٢) المدقع : الشديد . (٣) السغب : الجوع .

(٤) أي لا يفرقون بين موضع استعمال المطر وبين موضع استعمال الغيث .

(٥) استخفت : وجدتها خفيفة سهلة التلغظ .

(٦) البيان والتبيين ج١ . (٧) البخلاء ص ٤٨ .

وعدم روايتها كما هي لكي تخرج من طابعها الجاف الممل ، وتستهوئ القارئ عبر إضافة عنصر الإثارة إليها، وهو فن يشبه إلى حد كبير الفن الروائي والقصصي في الوقت الحاضر .

ويعتبر كتاب البخلاء من أكثر مؤلفات الجاحظ اشتمالاً على هذا الاتجاه في الكتابة والرواية ، كما سنرى ذلك في الموضوع الذي خصصناه لاستعراض هذا الكتاب . وكان للجاحظ الفضل الكبير في ظهور نوع من الأدب يمكننا أن نسميه بالأدب الاجتماعي الساخر ، حيث استطاع وبراعة أن يوظف معلوماته الاجتماعية والمفصلة حول أبناء عصره (وخصوصاً في البصرة) في تقديم أدب من نوع جديد يعتمد على العرض والوصف الدقيق لنفسيات وطبائع وأخلاق شخصياته ممزوجاً بالسخرية ، والمدح والذم في آن واحد^(١) .

أبو علي الجبائي^(٢) ٢٣٥ - ٣٠٣هـ^(٣)

محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، أبو علي : من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبة الطائفة الجبائية من المعتزلة ، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب ، نسبته إلى جبِّي (من قرى البصرة) ، اشتهر في البصرة ، ودفن بجبِّي ، له تفسير حافل مطول ، رد عليه الأشعري^(٤) .

وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري شيخ السنة علم الكلام ، وله معه مناظرة روتها العلماء وعلى أثرها تخلى الأشعري عن آراء المعتزلة الكلامية ليؤسس المذهب الشهير الذي نسب إليه وهو (المذهب الأشعري) ، فيقال إن أبا الحسن سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن

(١) راجع البخلاء ورسالة التريب والتدوير في كتاب رسائل الجاحظ - الرسائل الأدبية .

(٢) ومن رؤساء المعتزلة أيضاً ابنه أبو هاشم عبد السلام (ت ٣٢١هـ) ولد بالبصرة وعاش في بغداد وتلمذ له الكثيرون أخصهم الصاحب بن عباد ، عرف خاصة بنظرية الأحوال التي يرد إليها صفات البراءة جميعاً ، عُرف تلامذته بتفلسفهم ويسمون (البهشمية) . وقد فقدت كتبه الكثيرة في علم الكلام والجدل [الموسوعة العربية الميسرة] .

(٣) انظر : في ترجمته المقرئ ، وفيات الأعيان ، البداية والنهاية ، اللباب ، مفتاح السعادة دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) الأعلام للزركلي ج ٧ .

ثلاثة أخوة؛ أحدهم كان مؤمناً براً تقياً، والثاني كان كافراً فاسقاً شقيماً، والثالث كان صغيراً، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الأخ الأكبر: يا إله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي فلم راعيت مصلحته دوني، فانقطع الجبائي^(١).

وذكر الشيخ فخر الدين الرازي في تفسير القرآن العظيم في معرض تفسيره لسورة الأنعام: أن الأشعري لما فارق مجلس الأستاذ الجبائي وترك مذهبه، وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما، فاتفق يوماً أن الجبائي عقد مجلس التذكير، وحضر عنده عالم من الناس، فذهب الأشعري إلى ذلك المجلس، وجلس في بعض النواحي مختفياً عن الجبائي، وقال لبعض من حضره من النساء: أنا أعلمك مسألة فاذكرها لهذا الشيخ، ثم علمها سؤالاً بعد سؤال، فلما انقطع الجبائي في الأخير رأى الأشعري، فعلم أن المسألة منه لا من العجوز^(١).

كانت ولادة الجبائي سنة خمس وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة ثلاث وثلاثمائة^(٢).

الرماني ٢٩٦ - ٣٨٤ هـ

هو علي بن عيسى بن علي بن عبدالله أبو الحسن الرماني^(٣) المتوفى سنة (٣٨٦) للهجرة، أحد أعلام المعتزلة في عصره. له مصنفات وتآليف كثيرة في التفسير، واللغة، والنحو، وعلم الكلام.

(١) وفيات ج٤

(٢) اعتمدت في ترجمة الجبائي على الأعلام للزركلي ج٧، وفيات ج٤، وطبقات المعتزلة، والأنساب، وروضات الجنات، والشذرات.

(٣) انظر: في ترجمته: تاريخ بغداد ١١/١٦، والأنساب للسمعاني، ومعجم الأدباء لباقوت.

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان نحوياً معروفاً، وكان من أهل المعرفة، مفتناً في علوم كثيرة من الفقه والقرآن والنحو واللغة والكلام على مذهب المعتزلة .

كان مولده سنة ست وتسعين ومائتين، وتوفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة^(١) .
وقال عنه صاحب الوفيات: أحد الأئمة المشاهير، جمع بين الكلام والعربية، وله تفسير القرآن الكريم، أخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد، وأبي بكر بن السراج، وروى عنه أبو القاسم التنوخي، وأبو محمد الجوهري وغيرهما^(٢) .

الصاحب بن عباد ٣٢٦ - ٣٨٥هـ^(٣)

الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان واحد زمانه علماً وفضلاً وتديراً وجودة رأي وكرماً، عالماً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة وموادها، ورسائله مشهورة مدونة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره حتى إنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعمئة جمل على ما قيل . . . وانتقل الصاحب بعد ذلك إلى أصبهان . . . وكان قد أحسن إلى القاضي عبدالجبار بن أحمد المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري وأعمالها^(٤) .
أخذ الأدب عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي صاحب كتاب (المجمل) في اللغة، وأخذ عن أبي الفضل بن العميد وغيرهما^(٥) .
وقال أبو المنصور الثعالبي في كتابه (اليتيمة) في حقه: (ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب . . .)^(٥) .

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقبل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة، وبقي علماً عليه^(٦) .
واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، ومدحوه بغرائر المدح^(٦)، وصنف في اللغة كتاباً سماه (المحيط) وهو في سبعة مجلدات رتبته على حروف المعجم، كثر فيه الألفاظ، وقلل الشواهد، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر، وكتاب (الكافي) في

(١) تاريخ بغداد ج٢ . (٢) الوفيات ج٣ . (٣) ترجمته في معجم الأدباء ج٦ .

(٤) الكامل لابن الأثير ج٧ (وفي الحاشية أخبار كثيرة عنه) .

(٥) اليتيمة . (٦) وفيات الأعيان .

الرسائل، وكتاب (الكشف عن مساوي شعر المتنبي) وكتاب (أسماء الله تعالى وصفاته)^(١).

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي أن نوح بن منصور أحد ملوك بني ساسان كتب إليه ورقة في السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته، وتدير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه الخاصة إلى أربعمئة جمل، فما الظن بما يليق بها من التجميل^(٢).

له رسائل بديعة، ونظم جيد منه قوله في الغزل:

وشادن^(٣) جماله تقصر عنه صفتي
أهوى^(٤) لتقبيل يدي فقلت قبل شفتي

وله في رقة الخمر:

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر^(٥)
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وله يرثي كثير بن أحمد الوزير وكنيته أبو علي:

يقولون لي أودي كثير بن أحمد وذلك مرزوءٌ عليّ جليل^(٦)
فقلت دعوني والعلائبكه معاً فمثل كثير في الرجال قليل

كان مولده سنة ست وعشرين وثلاثمائة باصطخر، وقيل: بالطالقان، وتوفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالري، ثم نقل إلى أصبهان^(٧).

رثاه أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصهباني قائلاً:

ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة ليأنس كل منهما بأخيه
هما اصطحبا حين ثم تعانقا ضجيعين في لحد بياب ذرية^(٧)
إذا ارتحل الشاوون عن مستقرهم أقاما إلى يوم القيامة فيه^(٨)

(١) المصدر السابق، وله كتب ومؤلفات أخرى ذكرها صاحب الوفيات ولم نذكرها لأنها لا تتصل بالأدب.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٧. (٣) الشادن: ولد الظبي.

(٤) أهوى: هوت يدي له: امتدت وارتفعت، يقال: أهوى إليه بيده لياخذه أي مد يده إليه.

(٥) تشاكل الأمر: اختلط والتبس ولم يعد بالمقدور تحديد وجه الصواب فيه.

(٦) أودي: مات وهلك مرزوء من الرزء وهو المصيبة.

(٧) يريد من (باب ذرية) المحلة التي دفن فيها الصاحب بأصفهان وتعرف بهذا الاسم.

(٨) اعتمادنا في ترجمة الصاحب على الكامل لابن الأثير ج٧ وفيات الأعيان ج١ ومعجم الأدباء لياقوت ج٦، وكتاب أخلاق الوزيرين / المقدمة.

أبو حيان التوحيدى

..... - بعد سنة ٤٠٠هـ

هو على بن محمد بن العباس . كنيته أبو حيان ، وغلب عليه لقب التوحيدى^(١) ؛ لأن أباه كان يبيع نوعاً من التمر يطلق عليه اسم (التوحيد) ، أو لأنه كان من المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد كما يرى ذلك ابن حجر العسقلانى^(٢) .

تاريخ ولادته غير معروف بالضبط ، وقد تكون بين ٣١٠ و ٣٢٠هـ^(٣) ، وهكذا الحال بالنسبة إلى تاريخ وفاته ، والرأى الأقرب إلى الصواب فى هذا المجال أن وفاته كانت بعد سنة ٤٠٠هـ ، كما ذهب إلى ذلك (كارل بروكلمان) فى تاريخه^(٤) ، والقزوينى فى مقدمة كتاب الهوامل والشوامل ، وأبو العباس أحمد زركوب^(٥) اللذين ذهبا إلى أن سنة وفاته كانت (٤١٤هـ) .

أما أصله فقد ذكروا أنه شيرازى ، أو نيسابورى ، وقيل هو عربى من واسط^(٦) .
تلمذ أبو حيان فى بغداد على السيرافى ، ثم على أبى سليمان بن طاهر المنطقى السجستانى^(٧) .

يعد أبو حيان التوحيدى من أبرز الفلاسفة والمتكلمين والأدباء فى القرن الرابع الهجرى ، قال عنه ياقوت : (شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء . . . فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية)^(٨) .
وقال عنه ابن النجار فى الذيل : (كان أبو حيان فاضلاً لغوياً نحوياً شاعراً له مصنفات حسنة . . .)^(٩) .

ويقول عنه آدم متز فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : (ربما كان أعظم كتاب النثر العربى على الإطلاق)^(١٠) .

(١) معجم الأدباء ج ١٥ . (٢) انظر : لسان الميزان ج ٦ . (٣) المقابسات ص ٤ .

(٤) بروكلمان ج ٤ . (٥) شيرازنامه - ١٠٨ .

(٦) انظر : معجم الأدباء ج ١٥ ، ومقدمة المقابسات ص ٨ ، وأمراء البيان ج ٢ .

(٧) بروكلمان ج ٤ (٨) معجم البلدان ج ١٥ . (٩) لسان الميزان ج ٦ . (١٠) ج ١ ص ٣٩٣ .

كان أبو حيان متميزاً بثقافته الموسوعية الهائلة، فقد كان غزير الاطلاع على أغلب فروع المعرفة التي كانت سائدة في عصره كالفلسفة التي درسها على أبي زكريا يحيى بن عدى المنطقي، وأبي سليمان المنطقي الذي كان أكبر علماء بغداد في الفلسفة والمنطق، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان وعلى يدته درس أبو حيان كتاب النفس لأرسطو سنة ٣٧١هـ (١).

وكان على صلة بنقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية في القرن الرابع، كما كان وثيق الصلة بمؤلفات المناطقة والفلاسفة، فكثيراً ما نقل عنهم، وذكر أسماءهم في المقابسات والإمتاع والمؤانسة.

وكان أبو حيان من المتبحرين أيضاً في اللغة والنحو كما تدلنا على ذلك كتبه (٢)، وقد كان أبو سعيد السيرافي من ضمن العلماء الذين درس عليهم أبو حيان وتأثر بهم إلى حد كبير (٣)، كما درس على علي بن عيسى الرماني ويونس، وقرأ ما كتبه نحاة عصره، وعرف آراءهم حتى أن السيوطي عدّه من النحاة وترجم له (٤).

والآراء والنقاشات النحوية التي نراها مبثوثة في كتبه تحكي لنا اطلاعه الواسع على علم النحو والمسائل المتصلة به كتخطئة الفقهاء في قولهم (عين بين العنة) (٥) ذاهباً إلى أن الصواب أن نقول (بين التعنين) (٦).

وقد حدثنا أبو حيان نفسه أنه قال: قال الصاحب بن عباد يوماً: فعل وأفعل قليل، وزعم النحويون أنه ما جاء إلا: زند وأزناد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً (٧) كلها فعل وأفعل، فقال: هات يا مدعي (٨)، فسردت الحروف، ودلت على مواضعها من الكتب، ثم قلت: ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم (٩) إلا

(١) المقابسات ص ٢٤٦. (٢) انظر: البصائر والذخائر ج٣.

(٣) الإمتاع والمؤانسة ج١٢، والمصدر السابق ج٨. (٤) بغية الوعاة في طبقات النحاة ج٢.

(٥) عن الرجل عنة: عجز عن الجماع لمرض يصيبه فهو معنون، وعنين، ويقال: امرأة عنية: لا تشتهي الرجال.

(٦) البصائر والذخائر ص ٢٣. (٧) الحرف هنا: الكلمة.

(٨) كان بين الصاحب وأبي حيان جفوة وتباغض، وكان الصاحب يؤذي أبا حيان ويحاول النيل منه دائماً ولذلك خاطبه بهذه اللهجة والسبب في هذا الجفاء أن أبا حيان كان معتاداً بنفسه لا يرتضى لها أن تخضع وتتملق الوزراء والحكام.

(٩) يلزم الحكم: أي يعمده ويروجه ويجعله قاعدة.

بعد التبهر والسماح الواسع ، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة ، والقياس مطرداً ، وهذا كقولهم (فعيل) على عشرة أوجه ، وقد وجدت أنا ما يزيد على أكثر من عشرين وجهاً ، وما انتهت في التبع إلى أقصاه . . . (١)

● الفلسفة:

كان أبو حيان يبدى ميلاً خاصاً للفلسفة ، ويفضلها على علم الكلام ، ولذلك حفلت مؤلفاته بالمباحث الفلسفية ، ونقل فيها الكثير من الآراء والتيارات الفلسفية التي كانت سائدة في عصره بحيث إننا نستطيع أن نقول إنه قد أسهم من خلال مؤلفاته في تبسيط الفلسفة ، وتقريبها إلى أفهام عامة الناس بحيث إنه خلق في عصره الرغبة بين الناس في الإقبال على الفلسفة بفضل الأسلوب الأدبي الشيق والممتع الذي شرح به الآراء الفلسفية . إذ (لما عبر أبو حيان عن قضايا الفلسفة بأسلوب بليغ ، وصاغ مسألها صياغة أدبية مشرقة تسربت إلى جمهور المثقفين والأدباء ، وقربت من تناول أفهامهم . . .) (٢)

وقد كان كتاب (المقاسبات) نموذجاً رائعاً للأسلوب الأدبي والفني الشيق الذي بسط من خلاله أبو حيان القضايا والمسائل الفلسفية المعقدة ، وفيما يلي نورد نموذجاً من كتاب المقاسبات لكي يتسنى للقارئ التعرف عن كسب على الأسلوب الأدبي الذي التزم به أبو حيان في عرض المسائل الفلسفية :

(العالم من حيث هو كائن فاسد ، ومن حيث هو فاسد كائن (٣) ، فلذلك نظمه بدد ، وبدده نظم ، ومتصله مفصول ، ومفصوله متصل ، وغفله (٤) مرسوم ، ومرسومه غفل ، ويقظته رقاد ، ورقاده يقظة ، وغناه فقر ، وفقره غنى ، وحياته موت ، وموته حياة ، ها هنا مثل ينزع (٥) إلى الحس ضرورة ، ويعترف به العقل اضطراراً ، انظر إلى السماء نظراً شافياً ، وتأملها بليغاً وجل في أفاقها يبحثك ونظرك ملياً ، واستقرئ (٦) صورها استقراء تاماً ، فإنك تجد نجومها منشرة متساقطة كأن سلكها قد وهى ونظمها قد انخرط (٧) ، وعلى هذا

(١) معجم الأدباء ج ١٥ . (٢) المقاسبات - ص ١٧ .

(٣) يريد أن العالم في حالة نشوء وزوال مستمرة في ذات الوقت الذي تنشأ فيه ظاهرة ما تراها تتجه نحو الزوال والفساد بمعنى أن لها عمراً محدداً ، وأجلاً محدوداً لا تتعداه .

(٤) الغفل : المجهول وهو عكس المرسوم أي المعلم بعلامة .

(٥) ينزع : يذهب . يميل : يتجه .

(٦) استقراء الأمور : تتبعها لمعرفة أحوالها .

(٧) انخرط : تبعثر .

إدراك الحس، وسابق العيان، وشهادة النظر، وظاهر الخبر والأثر، ثم إنك لا تستثبت بعد إمعان النظر، وإنعام^(١) الفحص، ومواصلة البحث أن تجدها متسقة اتساقاً، ومتفقة اتفاقاً، وموزونة وزناً، ومعدلة تعديلاً، ومنظومة نظماً، ومعبأة تعبئة^(٢)، ومزينة بكل زينة، ومحلاة بكل حلية، حتى يقضى اختياراً واضطراراً وانتهاراً واقتداراً أنها زالت عن حالتها المعروفة، أو حالت عن صورتها المألوفة بأقل مثقال ذرة أو هباء تربة^(٣) . . . (٤).

وهكذا يعد أبو حيان التوحيدى الشخصية الأكثر بروزاً في العلم والأدب والمعرفة من شخصيات المعتزلة في القرن الرابع الهجرى حتى عده البعض جاحظ هذا القرن، نظراً إلى تأثيره الكبير بشخصية الجاحظ بحيث دفعه هذا التأثير إلى أن يسلك مسلك الجاحظ في الأسلوب، وغزارة التأليف، وتنوع الموضوعات ودقة الوصف، وجمعه قدرًا هائلاً من المعلومات حول عصره وحول فروع المعرفة المختلفة السائدة في عصره في مؤلفاته، كما أشار إلى ذلك ياقوت في قوله:

(وكان - أى أبو حيان التوحيدى - متفنناً في جميع العلوم من النحو، واللغة، والشعر، والأدب، والفقه، والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهى أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء . . .)^(٥).

• خصائص أبى حيان الأدبية وإسهاماته فى الأدب العربى:

يكتسب أبو حيان أهميته ومنزلته فى الأدب العربى وخصوصاً فى القرن الرابع الهجرى من كونه قد تميز عن كتاب هذا العصر بعدم الاحتفاء بالمحسنات، والتزويقات، والبهارج اللفظية على حساب المعنى خلافاً للنزعة الغالبة على كتاب هذا العصر مثل ابن العميد، وبديع الزمان، والخوارزمى، وابن عباد، هذا بالإضافة إلى أن أبى حيان قد تميز عنهم بالموضوعات التى تطرق إليها فى نثره، فبينما كانت الغالبية العظمى من كتاب عصره صابة اهتمامها على موضوعات مثل الرسائل الديوانية، والإخوانية، والمقامات، والعهود، ركز

(١) إمعان النظر وإنعامه: التعمق والدقة فيه.

(٢) التعبئة: التهيئة وجعل المناع بعضه فوق بعض.

(٣) الهباء: التراب الذى تطيره الريح ويلتزم بالأشياء أو يثبت فى الهواء فلا يبدو إلا فى ضوء الشمس، والهباء:

القطعة من الهباء.

(٤) ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٥) معجم الأدباء ج ١٥.

هو اهتمامه على موضوعات جادة كالفلسفة، ورواية الأخبار، وتسجيل أحداث عصره بدقة متناهية، كما أشار إلى ذلك المستشرق (آدم متز) في كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) مشيراً إلى تميز أبي حيان في الأسلوب:

(... وأول ما نلاحظه أنه - أي أبو حيان - كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه، غير أننا لا نكاد نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء، ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أسهل وأقوى وأشدّ تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع. ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره، وكان يعاني وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم)^(١).

وامتاز أبو حيان في كتاباته بالإضافة إلى ذلك بأن كتاباته هذه تمثل لنا شخصيته خير تمثيل، فقلمه لم يتطرق إلا إلى الموضوعات التي آمن واقتنع بها، وامتزجت مع عاطفته وروحه، فهو في كتاباته لا يستمد من عقله فحسب، وإنما من قلبه ومشاعره أيضاً، وهي سمة نلاحظها في أدب المعتزلة عموماً، وفي أدب أبي حيان خصوصاً، وهي ظاهرة فريدة من نوعها في نثر القرن الرابع الهجري، إذ نلاحظ أن غالبية كتاب هذا القرن كانوا يمشون ويسايرون الأوضاع السائدة في هذا القرن على صعيد الأساليب والمضامين، في حين نجد أبا حيان ينطلق في نشره بوحى من قناعاته ومعتقداته، فنجد أن هذه القناعات هي التي توجه كتاباته، وتشكلها وتصوغها.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى شخصية أبي حيان نفسها، فلقد عرف عنه أنه كان أبيض النفس، معتدّاً بها، صادقاً في التعامل مع الآخرين منطلقاً في هذا التعامل من وحي أفكاره ومعتقداته، ممتعاً للمحابة والمداهنة حتى مع ذوى المناصب السياسية والحكومية.

ولقد أورثته هذا الصفات الكثير من المتاعب والمشاكل مع الحكام والأمراء، كأبي الفتح ابن العميد، والصاحب بن عباد، وابن سعدان^(٢)، ومن غيره من العلماء والكتاب، بل ومع الناس الذين كان يعاصرهم، فنشأ ساخطاً متبرماً من حياته ومن الناس، وعانى شظف الحياة، ونكد الفقر، ووصلت به الحال من الضجر بالحياة، والتبرم من زمانه إلى درجة أنه أقدم على إحراق كتبه ومؤلفاته النفيسة معللاً ذلك بـ (إن العلم يراد للعمل، كما

(١) ص ٣٩٩ - ٤١٦.

(٢) راجع ذلك في معجم الأدباء ج٦ والإمتاع والمؤانسة ج١.

أن العمل يراد للنجاح ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً^(١) على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً ، وأورث ذلاً ، وصار في رقبته صاحبه غلاً^(٢) .

يقول في ذلك : (فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى . . . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة^(٣) ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة^(٤) ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى . . .)^(٥) .

وقد عبر أبو حيان عن مذهبه في الكتابة والتأليف في قوله :

(إن البليغ ينبغي أن يبرأ من التكلف ، ويتباعد عنه لأنه مفضحة وصاحبه مذموم ومن استشار رأى الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه متى فاته اللفظ المر لم يظفر بالمعنى المر . . .)^(٦) .

• تسجيله لثقافة عصره:

وتعتبر هذه الميزة في كتاباته ومؤلفاته واحدة من الإسهامات والخدمات الكبرى التي أسداها أبو حيان إلى الأدب والفكر العربى وذلك بطبعه المفطور على تسجيل الحوادث بدقة متناهية ، إلى حد أننا نستطيع أن نقول إن كتبه تعد إحدى الوثائق الهامة التي من الممكن للباحث أن يرجع إليها في التعرف على الأوضاع الثقافية والفكرية والأدبية التي كانت سائدة في القرن الرابع الهجرى : (فقد عاش أبو حيان فترة طويلة من حياته في بغداد وعبر عن ثقافتها الغنية وفكرها البديع وحضارتها الخصبه أروع تعبير ؛ دقة وصف ، وصفاء لغة ، وجمال بيان . . . وكانت ثقافته موسوعية شاملة ، ومن هنا تأتي أهمية كتبه لتاريخ الفلسفة والأدب ، فقد جمع في كتابه الضخم (البصائر والذخائر) ورسالته في الصداقة والصديق مختارات رائعة في الفلسفة والفقه والنحو واللغة والشعر التقطها من بطون الكتب ومن أفواه المتحدثين ، ولولاه لنسييت في غمار مانسى من علم العلماء وفنون الأدباء وأحاديث الناس في عصره . . .)^(٧) .

(١) الكل : العبء والفضل ، وعاد بمعنى أصبح .

(٢) النحلة والنحلة جمع نحل ونحل : الدعوى ، المذهب والديانة .

(٣) الوحشة : الخلوة الخوف وانقباض القلب من الخلوة .

(٤) الصداقة والصديق - ص ٦ .

(٥) رسالة العموم ملحفة بالصداقة والصديق - ص ٢٠٦ . يبرأ : يتخلص . مفضحة : ما يوجب الفضيحة ، مغالبة

اللفظ : التعسف والتكلف في اختياره .

(٧) المقابسات ص ٥ - ١٠ .

وقد أورد (محمد توفيق حسين) في مقدمته لكتاب المقابسات قائمة طويلة بأسماء العلماء والمؤرخين والأدباء من القدماء والمحدثين الذين كتبوا عنه واقتبسوا من كتبه منهم ياقوت الحموي، والسبكي، والذهبي، وابن حجر العسقلاني، والسيوطي، وابن نباتة المصري، وابن أبي الحديد، ومن المحدثين بروكلمان، ومرتز، ومرجليوث، ومايرهوف، وسپترن، ودي بور، وخير الدين الزركلي، وأحمد أمين، وعبدالرحمن بدوي، والدكتور إحسان عباس، ومحمد كرد علي . . (١)

وكل هذا العدد الكبير من الشخصيات التي نقلت أو كتبت على أبي حيان إن دل على شيء فإنما يدل على عظم التأثير الذي تركه أبو حيان على حركة الأدب والفكر والتاريخ من بعده، من خلال الكم الهائل من المعلومات التي خلفها في مختلف المجالات .

• مقدرته الفذة على تحليل الشخصيات والنفسيات:

تشهد لنا مؤلفات (أبي حيان) وخصوصاً كتاب (الإمتاع والمؤانسة) بقدره فائقة على وصف الشخصيات المختلفة، وتحليل نفسياتها بدقة متناهية وبيان حالاتها المختلفة، وتقييمها من الناحية العلمية، وبيان توجهاتها، ونقاط قوتها وضعفها .

وهو في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) يقدم لنا نقداً، وتقييمات كثيرة للشخصيات والعلماء التي كان يحثك بها، أو يتلقى منها العلم، ويرويه عنها .

وبطبيعة الحال، فإن هذه الظاهرة في كتابات أبي حيان تعد نوعاً من النقد والتقييم للشخصيات، ويمكننا أن ندرجها تحت عنوان دراسة الشخصيات أو تقديم تراجم وسيرة ذاتية عنها، وهو لون من الأدب ظهر فيما بعد بشكل مستقل، وربما كان أبو حيان من أوائل الذين وضعوا أسسه، ومهدوا له بعد الجاحظ .

وفيما يلي نورد نموذجاً من كتاباته في مجال تحليل وتقييم ووصف الشخصيات من كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فقد قال في وصف طائفة من العلماء :

(أبو سعيد (السيرافي) أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق، وأروى في الحديث، وأقصى في الأحكام وأفقه في الفتوى . . . وأما علي بن عيسى (الرماني) فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، ولا عيب به إلا أنه لم يسلك طريق

(١) المقابسات ص ٥ - ٧ .

وضع المنطق، بل أفرد صناعة وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً، هذا مع الدين الشيخين^(١)، والعقل الرزين، وأما ابن المراغي (أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني) فلا يلحق بهؤلاء مع براعة اللفظ وسعة الحفظ وعزة النفس وبلل الريق، وغزارة النفت، وكثرة الرواية، ومن نظر في كتابه (المهجة) عرف ما أقول واعتقد فوق ما أصف... (٢).

وقال في وصف أبي سليمان المنطقي أستاذه في الفلسفة:

(أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأفعرهم غرضاً، وأصفاهم فكراً وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تنطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكثر... (٣).

وأبو حيان فيما عدا ذلك من خصائص ومواصفات فنية ومضمونية جاحظي الأدب والنثر، فهو كالجاحظ يهجو في نثره متهمكماً ساخرراً كقوله في وصف الصاحب بن عباد:

(تراه عند الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم، ويطير فرحاً ويتقسم... وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل، ويلوى شدقه، ويتلع ريقه، ويرد كالآخذ، ويأخذ كالممتنع، ويغضب في عرض الرضا، ويرضى في لبوس الغضب ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل... (٤).

وهو أيضاً يميل إلى الإطناب والسرد والتفصيل في بسط موضوعاته، كما هو حال الجاحظ، بل كما هو حال أدباء المعتزلة بصورة عامة والذين لعبوا دوراً كبيراً في ترسيخ هذا الاتجاه في النثر العربي نظراً إلى عقلياتهم الموسوعية الميالة إلى الجدل والتشعب في الكلام. ومن مظاهر الإطناب في أسلوب أبي حيان الإكثار من استعمال الكلمات المترادفة، والمعاني المتقاربة، وتكرار المعنى بعبارات متغايرة لفظاً، كقوله في الدعاء في مقدمة كتاب (المقاسبات):

(١) الشيخين: الغليظ والصلب يريد أنه كان قوياً في دينه.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج١.

(٣) الإمتاع والمؤانسة ج١. أفعرهم غرضاً: أبعدهم هدفاً ومقصداً. أوقفهم على الغرر: أكثرهم اكتشافاً لخاصة العلم وخالصته. تنطع في الكلام: تفصح فيه وتعمق ورمى بلسانه إلى نطع الفم. اللكنة: العجمة في اللسان، العويص الصعب المعضل.

(٤) الإمتاع والمؤانسة ج١. الهذر: الكلام المختلط الذي ينبغي أن لا يقال. يتقسم: يتفرق، يقصد أنه لا يمتلك زمام نفسه عند الفرح. يلوى شدقه: يظهر الفصاحة أو يتكبر على الناس اللبوس: ما يليس.

(اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ومظنته ومعروف به ، ونلتمس منك ما أنت واجده وقادر عليه ومأمول فيه ، فهب لى بجودك ومجدك روح القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب القصد بثبات العقد ، وبلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وتتابع الثناء بمرضى الطريقة ، وفاشى النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز ، واكفنا من اللسان فلتته ومن الهوى فنتته ، ومن الشر خطرتة ، ومن الرأى غلظته ، ومن الظن خببطته ومن الطبع سورته . . . وجنبنا معاندة الحق ، ومجانبة الصدق . . .) (١) .

ومن الناحية الشكلية واللفظية امتاز نشر (أبى حيان) بالوقع الموسيقى للجمل التى يستخدمها عبر استخدام عبارات قصيرة متناسبة الطول أكثر من صنعة الازدواج فيها كقوله فى البصائر والذخائر :

(اللهم إنى أسالك جداً مقروناً ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عرياً من الختل ، وقولا موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مبصرة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة . . .) (٢) .

ويميل أبو حيان إلى الإكثار من استعمال الكلمات المتضادة فى نشره أو ما يسمى بالمقابلة فى علم البديع ليزيد من وضوح الفكرة التى يطرحها كقوله فى الإشارات الإلهية : (أما ترى ضيعتى فى تحفظى؟ أما ترى رقدتى فى تيقظى؟ أما ترى غصتى فى إساغتى؟ أما ترى ضلالى فى اهتدائى؟ أما ترى رشدى فى غيى؟ أما ترى عيى فى بلاغتى؟ أما ترى ضعفى فى قوتى؟ أما ترى عجزى فى قدرتى؟ أما ترى غيبتى فى حضورى؟) (٣) .

(١) المقابسات ص ٥٢ .

(٢) البصائر والذخائر .

(٣) المصدر السابق .

القاضي عبد الجبار - بعد سنة ٤٠٠هـ (١)

هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي ، قاضي قضاة الدولة البويهية في إيران ، ويعتبر أكبر أعلام المعتزلة في عصره الذي يمتد حتى سنة (٤١٥هـ) وهي سنة وفاته .

له مصنفات كثيرة أهمها كتاب (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) وقد خصص الجزء السادس عشر منه لبحث إعجاز القرآن من الناحية البلاغية .

قال عنه الخطيب البغدادي : كان يتحلل مذهب الشافعي في الفروع ، ومذاهب المعتزلة في الأصول ، وله في ذلك مصنفات ، وولى قضاء القضاة بالرى وورد بغداد حاجاً وحدث بها (٢) .

وعن وفاته قال : (مات عبد الجبار بن أحمد قبل دخولي الرى في رحلتى إلى خراسان وذلك في سنة خمس عشرة وأربعمائة ، وأحسب أن وفاته كانت في أول السنة) (٣) .

الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨هـ

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد جار الله ، ولد في (زمخشر) من إقليم (خوارزم) الفارسي في شهر رجب سنة (٤٦٧هـ) ، أي بعد القرن الرابع الهجري ، حيث كان مذهب الاعتزال ما يزال يمتلك بعض النفوذ في إيران .

درس العلوم اللغوية والدينية ، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري ، وأبى مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني ، وقضى شطراً كبيراً من حياته في الترحال ، فأقام في بغداد مدة ، وجاور بمكة طويلاً (٤) ، وبها أملى تفسيره الكشاف .

(١) انظر في ترجمته : طبقات الشافعية للسبكي ، تاريخ بغداد ، لسان الميزان ، مرآة الجنان للياقبي ، الكامل لابن الأثير ، المعتزلة لابن المرئسي .

(٢) تاريخ بغداد ج ١١ ،

(٣) المصدر السابق ج ١١ .

(٤) ولهذا لقب بـ (جار الله) .

توفى في خوارزم سنة ٥٣٨هـ.

كان الزمخشري كاتباً، وشاعراً ومفسراً للقرآن الكريم، وله ديوان شعر غير مطبوع. بالإضافة إلى (الكشاف) فإن للزمخشري كتباً معروفة من أهمها كتاب (المفصل) في النحو، وقد عني به من جاءوا بعده وشرحوه مراراً، ومعجمه المعروف (أساس البلاغة)، و(المفصل في اللغة)، وكتاب (أطواق الذهب) ضمنه نثراً مسجعاً أنيقاً على غرار المقامات.

• تعريف مختصر بأهم مؤلفاته الأدبية:

١ - الكشاف (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل): وهو أحد أشهر وأهم التفاسير الأدبية والبلاغية للقرآن الكريم، سعى الزمخشري من خلاله إلى أن يفسر القرآن، ويقف على خباياه وأسراره عبر بيان الجوانب البلاغية منه كما يقول ذلك في مقدمة تفسيره:

(ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح^(١)، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح^(٢) من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز^(٣) على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز^(٤) أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية^(٥) أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أو عظم، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوى وإن ملك اللغات بقوة لحيه^(٦)، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعانى، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنها أزمته وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرصاً على استيضاح معجزة رسول الله...^(٧)).

(١) القرائح جمع قريحة: الطبع. وقريحة الشاعر أو الكاتب ملكة يقتدر بها على الإجابة في نظم الشعر أو الكتابة.

(٢) الألباب القوارح: يريد العقول الفطنة الذكية.

(٣) برز: تميز (٤) بز: سبق.

(٥) ابن القرية: رجل عرف بشدة ذكائه وسرعة حفظه.

(٦) اللحيان: اللحم عظم الحنك الذي عليه الأسنان، منبت اللحية.

(٧) مقدمة تفسير الكشاف.

وقد تأثر الزمخشري إلى حد كبير بأراء عبدالقاهر الجرجاني البلاغية التي ضمنها كتابه المعروف (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) هذا بالإضافة إلى مطالعته ودراسته العميقة والواسعة للمؤلفات البلاغية التي كتبها علماء البلاغة من قبله، وما كان يتمتع به من ذكاء، وفطنة، وقوة حدس، وذوق أدبي أعانه على أن يطبق ما توصل إليه العلماء من قبله (وخصوصاً الجرجاني) بشأن علمي البيان والبديع تطبيقاً دقيقاً ومفصلاً على أى الذكر الحكيم، علاوة على النتائج التي توصل إليها هو نفسه فيما يتعلق باكتشاف أسرار الإعجاز القرآني اعتماداً على معطيات علمي البيان والمعاني، بل وحتى البديع، وبذلك يكون الزمخشري أول من فطن من بين علماء اللغة والبلاغة إلى دور ذينك العلمين في الكشف عن أسرار الإعجاز القرآني، وفهم معاني الآيات بشكل أفضل، كما أشار هو نفسه إلى ذلك في النص الذي أوردناه فيما سبق من مقدمة تفسيره الكشاف.

ومن بين إسهامات الزمخشري الأخرى في تطور الدراسات البلاغية، أنه كان أول من فصل بين علم المعاني، والبيان، وأول من وضع مصطلح (المعاني) على العلم الأول بعد أن كان الجرجاني يطلق عليه اسم علم النظم والأسلوب^(١).

• نماذج من تفسير الكشاف:

قوله في تفسير الآية الأولى والثانية من سورة البقرة:

(... ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لاريب فيه﴾ ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق (عطف) وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرأ إلى الثالثة والرابعة، بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدى وشداً من أعضاده، ثم نقي عنه أن يتشبه به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً لكماله...)^(٢).

٢ - أساس البلاغة:

وهو من الكتب البلاغية والأدبية الشهيرة التي خلفها الزمخشري وقد يأتي في الدرجة

(١) للتوسع راجع كتاب البلاغة لشوقي ضيف.

(٢) ج١ - ص ١٢١ - ١٢٢.

الثانية من الأهمية بعد (الكشاف)، ذكر فيه المجازات اللغوية والمزايا الأدبية، وتعبيرات البلغاء على ترتيب موادها، ذكره السيوطي في بغية الوعاة، وياقوت في معجم الأدباء، وصاحب كشف الظنون مؤكدين أنه من أركان فن الأدب بل هو أساسه .

وتكمن ميزة هذا الكتاب وخصوصيته عن المعاجم العربية الأخرى في تفريقه بين الحقيقة والمجاز كما يذكر ذلك الزمخشري نفسه في مقدمة هذا الكتاب قائلاً في معرض بيان خصائصه وما اشتمل عليه :

(. . . ومنها - أى من خصائص الكتاب - تأسيس قوانين فصل الخطاب^(١) ، والكلام الفصيح بإفراد^(٢) المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح)^(٣) .

ولذلك فقد بقى (أساس البلاغة) واحداً من المعاجم الحية التى مازال الباحثون وعلماء اللغة يرجعون إليها نظراً إلى الطابع الجديد والمبتكر الذى تميز به عن سائر المعاجم الأخرى وخصوصاً المعاجم اللغوية البحتة التى تقدم معانى الكلمات من الناحية اللغوية الصرفة دون إلقاء الأضواء على جوانبها الأدبية والبلاغية ومواضع استعمالها، أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يعد من ضمن إسهامات الزمخشري فى إغناء الدراسات اللغوية المتعلقة بفقه اللغة، وتطور معانى ودلالات الألفاظ حتى العصر الذى عاش فيه كما أشار إلى ذلك فى قوله :

(ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين^(٤)، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن، ولا تنقبض عنها الألسن؛ لجريها رسالات^(٥) على الأسلات^(٦)، ومرورها عذبات^(٧) على العذبات . . .)^(٨) .

وقد أوضح الزمخشري فى خطبة كتابه هذا اتجاهاته فى تأليفه، وأهدافه من هذا التأليف، والموضوعات التى أكد عليها والتى تصب - كما يقول - فى علم المعانى، والبيان، والتفريق بين الحقيقة والمجاز وخصوصاً المجال اللغوى، فقال فى هذا الصدد :

(١) فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل، وهو أيضاً قول الخطيب : (أما بعد).

(٢) إفراد : فصل .

(٣) أساس البلاغة / مقدمة المؤلف .

(٤) المفلق : المبدع .

(٥) رسالات : سهلات السير .

(٦) الأسلة : رأس اللسان .

(٧) عذبات ج عذبة سائغة حلوة، والعذبات : أطراف الألسنة .

(٨) أساس البلاغة - مقدمة المؤلف .

(... من كانت مطامح نظره، ومطامح فكره الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء، والمغايرة على مناظم الفصحاء، والمخابرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتحلوا، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا، وما استركوا واستنزلوا، وما استفصحووا واستجزلوا، والنظر فيما كان الناظر فيه أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف، حتى يكون صدر يقينه أثلج، وسهم احتجاجه أفلج، وحتى يقال: هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه جاحظي، وإلى هذا الصوب ذهب عبدالله الفقير إليه محمد ابن عمر الزمخشري عفا الله تعالى عنه في تصنيف (كتاب أساس البلاغة)...).

ثم يتحدث الزمخشري بعد ذلك عن محتويات هذا الكتاب وما اشتمل عليه من نكت، ونوادير أدبية وبلاغية، فيقول:

(... وهو كتاب... فُلِّيت له العربية وما فصح من لغاتها، وملح من بلاغاتها، وما سمع من الأعراب في بواديها، ومن خطباء الحلل في نواديها، ومن قراضبة نجد في أكلائها ومراتعها، ومن سماسرة تهامة في أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلُبها، وتساجعت الرعاة على شفاه عُلُبها، وما تقارضته شعراء قيس وتميم في ساعات المماننة، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل في أيام المفاتنة، وما طولع في بطون الكتب، وامتون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنة، وجوامع كلم في أحشائها مجتنة...).

وفي نهاية خطبته وبعد أن يعدد خصائص كتاب (أساس البلاغة) ومزاياه، يذكر الزمخشري الفوائد والثمار التي يجنيها المتأدب وطالب علم الأدب والبلاغة من قراءة هذا الكتاب ودراسته، فيقول:

(... فمن حصل هذه الخصائص وكان له حظٌ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها، ومعيار حكمة المواضع وقسطاسها، وأصاب ذرواً من علم المعاني وحظي برش من علم البيان، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة، وسليقة سليمة فحل نثره، وجزل شعره، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين، ويخاطر المقرمين...).

* نموذج من أسلوب شرح الزمخشري لمعاني الكلمات، وذكر استعمالاتها، ومجازاتها، ودلالاتها، ومعانيها الاصطلاحية، وشواهد عليها اخترناه من كتاب الهمزة، باب (أ ب د):

(* أ ب د - لا أفعله أبد الآباد، وأبد الأبيد، وأبد الأبدين، وتقول: رزقك الله عمراً طویل الآباد. وأبدت الدواب وتآبدت: توحشت، وهي أوابد ومتآبدات، وفرس قيد

لأوابد وهي نفر الوحوش ، وقد تأبد المنزل : سكنته الأوابد ، وتأبد فلان : توحش ، وطيور
أوابد خلاف القواطع .

ومن المجاز : فلان مولع بأوابد الكلام وهي غرائبه ، وبأوابد الشعر وهي التي لا تشاكل
جودة . قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمي بلوم أبيكم وأوابدي بتحل الأشعار
وقال النابغة :

نبث زرعة والسفاهة كاسمها يهدى إلى أوابد الأشعار
وجتتنا بأبدة ما نعرفها (١) .

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن الزمخشري يعتبر - بحق - أكبر وأعظم جهابذة وأساطين
الأدب والبلاغة في تاريخ الأدب العربي ، وربما جاء في المرتبة الثانية بعد الجاحظ من ناحية
إسهاماته الجليلة في إرساء قواعد وأسس علوم البلاغة وخصوصاً علم المعاني ، وأسرار
الإعجاز البلاغي للقرآن وتطبيقه لمعطيات علوم البلاغة على آيات الذكر الحكيم .
ومن خلال تأمل النصوص السابقة التي أوردناها له من الكشاف ، و(أساس البلاغة)
يتضح لنا أيضاً أنه هو نفسه كان من الكتاب والنائرين المتكلمين الذين يطغى الأسلوب
الأدبي والبلاغي على أسلوب كتابتهم كما لاحظنا ذلك لدى الجاحظ ، وأبي حيان
التوحيدى وغيرهم من أدباء وكتاب المعتزلة ، فتلك النصوص تدلنا على أسلوبه الأدبي
المشرق ، وثروته اللغوية الغزيرة ، وامتلاكه لخاصية الكلام ، وتأثره إلى حد بعيد بميوله
وانجماهاته البلاغية ، وهي صفة نلاحظها بوضوح لدى أدباء المعتزلة .

٣ - أطواق الذهب في المواعظ والخطب:

وهو - كما يدل على ذلك العنوان - كتيب في المواعظ والنصح ألفه الزمخشري
بأسلوبه الأدبي والبلاغي المعروف عنه ، وقسمه إلى مقالات .

• نموذج من هذا الكتاب:

- المقالة الأولى :

(ما يخفض المرء عدمه ويتمه إذا رفعه دينه وعلمه ، ولا يرفعه ماله وأهله إذا خفضه
فجوره وجهله ، العلم هو الأب ، بل هو للثأى أرأب ، والتقوى هي الأم بل هي إلى اللبان

(١) أساس البلاغة مادة أب د .

أضم، فأحرز نفسك في حرزهما، واشدد يديك بغرزهما يسقك الله نعمة صيبة، ويحك حياة طيبة^(١).

ابن أبي الحديد المعتزلي ٥٨٦ - ٦٥٦ هـ

هو عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد^(٢) بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، ولد في المدائن أول ذي الحجة سنة (٥٨٦هـ) ونشأ بها، وتلقى عن شيوخها ودرس المذاهب الكلامية ثم مال إلى مذهب الاعتزال فيها، حيث كان الاعتزال والتشيع هما السائدان فيها.

سافر في مطلع شبابه إلى بغداد حيث استزاد من العلم فيها، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب، وعلى حد قول صاحب كتاب (نسمة السحر) أصبح فيها معتزلياً جاحظياً، بعد أن كان شيعياً غالباً.

وفي بغداد نال الحظوة لدى الخلفاء العباسيين والوزير ابن العلقمي وخصوصاً المستنصر الذي حكم من (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) فعين كاتباً في دار التشريفات ثم في الديوان، وأخيراً فوض إليه أمر خزائن الكتب في بغداد.

كان ابن أبي الحديد متضلماً في الفقه والأصول وله في ذلك مؤلفات معروفة، وكان متكلماً، جدلياً، نظاراً على طريقة أهل الاعتزال، وله مع الأشعري، والغزالي والرازي كتب ومواقف.

وبالإضافة إلى تبهر ابن أبي الحديد في الكلام والفقه والأصول، فقد عرف عنه، وشهدت له مؤلفاته بأنه كان أديباً، شاعراً، ناقدًا، خبيراً بمحاسن الكلام ومساوئه، وكتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) يشهد له بقدرته الفائقة على نقد الشعر وفنون البيان، وكان عالماً لغوياً، ومؤرخاً عليمًا بأخبار العرب، مطلعاً على لغتها، وآثارها الأدبية كالأشعار، والأمثال، والنوادر، وحافظاً ومستوعباً لعلوم زمانه.

(١) أطواق الذهب ص ٤، العدم: الفقر الشديد. الشأى: الفساد يقال: فلان يرأب الشأى أى يصلح الفساد،

اللبان: الصدر وما بين الثديين حرز: حفظ صيبة: الصيب السحاب ذو المطر، والصيبة: المنصبة بغزارة كالمطر.

(٢) اعتمدنا في ترجمة ابن أبي الحديد على مقدمة كتاب شرح نهج البلاغة وعلى صور النسخة الخطية لكتاب

(نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر) تأليف يوسف بن يحيى بن الحسين اليماني الصنعاني (ت ١١٢١هـ) ج ٢

الموجودة في مكتبة دائرة المعارف الإسلامية الكبرى تحت رقم (١٩-PJ) (١٤٩٢٠).

وكان كاتباً تشهد له مؤلفاته بإشراقه الديباجة، والتفنن في النثر، والحسن في الترسيل .
ويذكر عنه من أرخ له أنه كان شاعراً مجيداً، وذكر ابن شاعر، أن له ديوان شعر كان
معروفاً ومشهوراً، وهكذا قال صاحب (نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر)^(١) .
وقد تطرق ابن أبي الحديد في شعره إلى شتى الأغراض كالممدح والرثاء، والحكم
والوصف، والغزل، ومال بشكل خاص إلى شعر التصوف والغزل الإلهي، وقد أورد
الكثير منه في كتاب (شرح نهج البلاغة) .
خلف ابن أبي الحديد العديد من المؤلفات والمصنفات، ولأن موضوع كتابنا استعراض
النشاط الأدبي للمعتزلة، فإننا سنقتصر فيما يلي على ذكر مؤلفاته الأدبية وهي :

- ١ - الحواشي على كتاب المفصل في النحو للزمخشري ، ذكره ابن الفوطى .
- ٢ - ديوان شعره، ذكره ابن شاعر الكتبي .
- ٣ - شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً، ويعتبر أهم وأشهر كتبه على الإطلاق .
- ٤ - العبقري الحسان، ذكره صاحب روضات الجنات، وقال : (وهو كتاب غريب
الوضع، قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار، وأودعه شيئاً من
إنشائه، وترسلاته ومنظوماته)^(٢) .
- ٥ - (الفلك الدائر على المثل السائر) وهو عبارة عن كتاب نقد على كتاب (المثل السائر
في أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين ابن الأثير، أخى ابن الأثير المؤرخ المعروف^(٣) .
- ٦ - القصائد السبع العلويات، وهي قصائد موضوعاتها: فتح خيبر، فتح مكة، مدح
الرسول (قصيدتان)، مقتل الحسين، موت الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٦٢٢هـ)،
ذكر ابن الفوطى أن ابن أبي الحديد نظمها في صباه وهو بالمدائن سنة ٦١١هـ .
- ٨ - القصائد المستنصريات، نظمها برسم الخليفة المستنصر العباسي، ذكر كاتب مقدمة
شرح نهج البلاغة أن نسخة خطية منها موجودة في مكتبة السماوى بالنجف .
- ٩ - (الوشاح الذهبي في علم الأدبي) ذكره ابن الفوطى .

توفى ابن أبي الحديد في بغداد أوائل سنة ٦٥٦هـ^(٤)، ونقل صاحب كتاب (نسمة

(١) نسمة السحر ص ٧٣ . وما بعدها .

(٢) وذكره الدكتور عمر فروخ في تاريخه باسم (الأخبار الحسان) .

(٣) وقد كتب ابن أبي الحديد هذا الكتاب بناءً على طلب من المنتصر، وطبع هذا الكتاب في الهند سنة ١٣٠٩ .

(٤) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ج ٢ ص ٥٨٠ .

السحر) عن الديار بكرى أنه توفي قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوماً، وكان دخولهم إليها في العشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١).

وذكر ابن الفوطى فى كتاب مجمع الألقاب، أنه أدرك سقوط بغداد، وأنه كان ممن خلص من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين العلقمى مع أخيه موفق الدين (٢).
رثاه أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله:

أبا المعالى هل سمعت تأوهى	فلقد عهدتك فى الحياة سميعة
عينى بكتك ولو تطيق جوانحى	وجوارحى أجرت عليك نجيعاً (٣)
أنفاً غضبت على الزمان فلم تطع	حبلاً لأسباب الوفاء قطوعاً
ووفيت للمولى الوزير فلم تعش	من بعده شهراً ولا أسبوعاً
وبقيت بعد كما فلو كان الردى	بيدى لفارقنا الحياة جميعاً

(١) شرح النهج ج١ ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

(٣) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلى الصدر. النجيع من الدم: ما كان مائلاً إلى السواد.

نماذج من اشعار ابن أبي الحديد

١ - نماذج من القصائد السبع العلويات (١) .

أ - من قصيدته في ذكر فتح مكة ومدح النبي ﷺ :

جللت فلما دق في عينك الورى	نهضت إلى أم القرى أيد القرى (٢)
جلبت لها قب البطون وإنما	تقود لها بالقود أم حبوكر (٣)
وسقت إليها كل أسوق لو بدت	له معفر ظنته بالرمل جوذرا (٤)
يبيت على أعلى المصاد كأنما	يؤم وكون الفتخ يلتمس القرى (٥)
يفوق الرياح العاصفات إذا مشى	ويسبق رجع الطرف شداً إذا جرى
جياذ عليها للوجيه ولاحق	دلائل صدق واضحات لمن يرى (٦)
ففيها سلو للمحب وشاهد	على كلمة الله المدبر للورى
هى الروض حسناً غير أنك إن تبر	لها مخبراً تسمع لعينيك منظر (٧)
عليها كماء من لؤى بن غالب	يجرون أذيال الحديد تبختر (٨)

ب - وقال في قصيدته الثالثة التى يصف فيها النبي ﷺ :

لا شىء أقطع من نوى الأحباب أو سيف الوصى كلاهما فتاك (٩)

(١) اخترنا هذه النماذج من كتاب القصائد العلويات السبع شرح العلامة السيد محمد صاحب المدرك، وكتاب (الروضة المختارة) لصالح عيسى الصالح .

(٢) أيد القرى: قوى الظهر .

(٣) قب البطون: أى خيولاً ضامرة البطون . القود جمع أقود: الخيول الضخمة الجسيمة . أم حبوكر: كتابة عن المصيبة والبلاء الشديد .

(٤) أسوق: ذو القدر الطويل الفارع . المعفر: ولد الغزال أو الظبي، الجوذرا: الثور أو الفحل .

(٥) المصاد: الربوة العالية وأعلى الجبل - الوكون جمع وكن: أعشاش الطيور، الفتخ جمع فتحاء: الصفر . القرى: الضيافة .

(٦) الوجيه ولاحق اسمان لجوادين تنسب إليهما الجياذ الأصلية .

(٧) تبر: من بر بيور بور الشىء إذا اختبره، المخبر: الباطن، تسمع: أى تفيح .

(٨) الكماء جمع كمي، الأبطال والشجعان .

(٩) يريد بالوصى هنا الإمام على عليه السلام .

الجوهر النبوي لا أعماله
ذو النور إن نسج الضلال ملاءة
علام أسرار الغيوب ومن له
... ما عذر من دانت لديه ملائكة
ملق ولا توحيده إشراك
وكناء فهو لسجفها هتاك^(١)
خلق الزمان ودارت الأفلاك
أن لا تدين لعزه الأملاك

ج - ومن قصيدته السادسة التي يمدح فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :

قد قلت للبرق الذي شق الدجى
يا برق إن جئت الغرى فقل له :
فيك ابن عمران الكلیم وبعده
بل فيك جبريل وميکال وإس
بل فيك نور الله جلَّ جلاله
فيك الإمام المرتضى فيك الـ
الضارب الهام المقنع فى الوغى
يا من له فى أرض قلبى منزلٌ
أهواك حتى فى حشاشة مهجتى
وتكاد نفسى أن تذوب صبابة
ورأيت دين الاعتزال وإننى
ولقد علمت بأنه لا بد من

فكان زنجياً هناك يجدع^(٢)
أترك تعلم من بأرضك مودع^(٣)
عيسى يقفيه وأحمد يتبع^(٤)
رافيلُ والملا المقدس أجمع^(٥)
لذوى البصائر يستشف ويلمع^(٦)
وصى البطيين الأنزع^(٧)
بالخوف للبهمة الكماة يقنع^(٨)
نعم المراد الرحب والمستربع^(٩)
نار تشب على هواك وتلدع^(١٠)
خلقاً وطبعاً لا كمن يتطبع^(١١)
أهوى لأجلك كل من يتشيع^(١٢)
مهديكم وليومه أتوقع

(١) سجف ج سجوف وسجاف : الستر، والحجاب، وكناء قائمة الملاءة : ثوب يلبس على الفخذين، هتاك عمزق .

(٢) يجدع : يقطع أنفه . شبه الليل المظلم بزنجى مقطوع الأنف .

(٣) الغرى : اسم لأرض النجف

(٤) يقفيه : يتبعه .

(٥) الملا المقدس : الملائكة المقربون .

(٦) يستشف : يظهر ويبدو .

(٧) الأنزع : المراد هنا البرئ من الشرك .

(٨) المقنع : المدجج بالسلاح . البهمة : الشجاع الذى يستبهم ما تاه على أقرانه . والبطين : العظيم البطن .

(٩) المراد مكان رباد الإبل أى اختلافها فى المرعى مقبلة مدبرة . والمستربع : يريد المربع أى مكان الإقامة والسكن .

(١٠) حشاشة : بقية الروح فى المحتضر . تلذع : تكوى بشدة .

(١١) الصبابة : الشوق ورقة الهوى والولع الشديد .

(١٢) رأيت دين الاعتزال : أمنت بالمذهب المعتزلى .

د - وقال يمدح أمير المؤمنين ويظهر ولاءه له وحبّه لأهل التشيع ثم يرثى الإمام الحسين عليه السلام ويذكر واقعة الطف في نفس القصيدة السابقة :

... ولقد بكيت لقتل آل محمد بالطف حتى كلُّ عضو مدمعُ
تالله لا أنسى الحسين وشلوه تحت السنايك بالعراء موزعاً^(١)

❦ ومن أشعاره الأخرى التي ذكرها له صاحب (نسمة السحر) قوله في مناجاة الخالق تعالى :

يا من جفاني فوجداني له عدم	هبنى أسأتُ فأين العفو والكرمُ
أيا المرابط دون الناس فاجف وصل	واقبل وعاقب وحاسب لستُ أنهزم
إن المحب إذا صحَّت محبته -	فما لوقع المواضي عنده ألم
وحق فضلك ما استأنست من نعم	سدوإلى وإن حلت بي النقم
ولا آمنت نكالا منك أرهبه	وإن ترادفت الآلاء والنعم

وقوله في إحدى قصائده السبع :

بزغت لكم شمس الكنس	ويدت لكم روح القدس
لا تلقها إلا ببشرك	فالقطوب من الدنس
ما أنصف المكاسات من	ضحكت إليه وقد عبس

كتاب شرح نهج البلاغة وقيمته الأدبية

سبقت الإشارة إلى أن كتاب شرح نهج البلاغة يعد أهم مؤلفات ابن أبي الحديد على الإطلاق وأشهرها، وقد استند في هذا الشرح إلى كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، واستغرق تأليفه خمس سنوات (من ٦٤٤ - ٦٤٩ هـ) وقدمه إلى الوزير ابن العلقمي ^(١).

تكمن أهمية هذا الكتاب في قيمته المتعددة الجوانب، فهو يمتلك قيمة أدبية، وتاريخية، وعقائدية، كما أنه ضم بين دفتيه خلاصة للعلوم والآداب والفنون والمعارف التي كانت شائعة في عصر ابن أبي الحديد وما قبله، فهو بهذا النهج الذي التزمه، والطريق الذي سلكه قد نقل إلى هذا الكتاب عصارة ما في كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازي، والسير والفقهاء والجدل والمناظرة وعلوم الكلام، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشي والتعليق، وطرزه بما اختاره من روائع الخطب، ونوابغ الحكم ومصطفى الرسائل مما نطق به مصارع الخطباء وبلغاء الكتاب وزعماء القول في الجاهلية والإسلام، ثم وشاه بما انتخله من دواوين الشعراء الجاهليين، والمخضرمين والإسلاميين والمولدين من فاخر القول وحر الكلام في متنوع فنون الشعر ومذاهبه، ومختلف أغراضه ومراميه ^(٢).

وقد التزم في شرحه أن يقسم الكلام فصولاً، فيشرح كلمات كل فصل شرحاً دقيقاً على (الغريب والمعاني وعلم البيان وما عساه يشبهه ويشكل من الإعراب والتصريف) ثم يورد (ما يطابقه من النظائر والأشبهاء نثراً ونظماً) ثم يستطرد إلى ذكر (ما يتضمنه من السير والوقائع والأحداث) . . ويشير إلى ما ينطوي عليه هذا الفصل (من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة) ويلوح (إلى ما يستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة) ويرصعه بما يشاء (من المواعظ الزهدية والزواجر الدينية والحكم النفيسة، والآداب الخلقية المناسبة لفقره والمساكلة لدرره، ثم ينتقل إلى الفصل الذي يليه وهكذا. . ^(٢).

(١) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ

(٢) انظر : مقدمة شرح نهج البلاغة ج١ .

ومن ناحية الأسلوب، فقد تميز نثر ابن أبي الحديد في كتاب شرح نهج البلاغة بالوضوح والرصانة، والابتعاد عن الركاكة والتعسف والإبهام وكل ما من شأنه أن يعقد الألفاظ والمعاني ويخل بها.

وفيما يلي ندرج نموذجاً من كتاب شرح نهج البلاغة اخترناه من المقدمة لكي يتسنى لنا التعرف عن كثب على أسلوب ابن أبي الحديد ومذهبه في النثر:

(الحمد لله الواحد العدل الذي تفرد بالكمال فكل كامل سواء منقوص، واستوعب عموم المحامد والممادح، فكل ذي عموم عداه مخصوص . . . قدم المفضل على الأفضل^(١) لمصلحة اقتضاها التكليف، واختص الأفضل من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظم عن التشبيه ويجل عن التكيف.

وبعد، فإن مراسيم^(٢) المولى الوزير الأعظم صاحب الصدر الكبير المعظم العالم العادل المظفر المنصور المجاهد المرابط مؤيد الدين عضد الإسلام سيد وزراء الشرق والغرب أبي طالب محمد بن أحمد بن محمد بن محمد العلقمي نصير أمير المؤمنين أسبغ الله عليه من مراقب السعادة^(٣)، ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها، لما شرفت - عبد دولته وريب نعمته^(٤) - بالاهتمام بشرح نهج البلاغة على صاحبه أفضل الصلوات، ولذكرة أطيبت التحيات يادر إلى ذلك مبادرة من بعثه من قبل ثم حركه أمر جزم^(٥) وشرع فيه بادي الرأي^(٦) شروع مختصر، وعلى ذكر الغريب والمعنى مقتصر، ثم تعقب الفكر أن النغمة لا تشفى أواماً ولا تزيد الحائم إلا حياماً^(٧)، فتنكب^(٨) ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول في شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان وما عساه يشتهه ويشكل^(٩) من

(١) يريد من المفضل هنا أبو بكر وبالأفضل الإمام على.

(٢) مراسيم: جمع مرسوم، ما يرسمه السلطان للرعية ويأمرهم به.

(٣) المراقب: جمع مراقبة المكان العالی الذي يشرف الإنسان منه على ما حوله.

(٤) يخص نفسه بجملة معترضة وهو التفات ينتقل به الكاتب إلى الكلام عن نفسه كأنه قال: أخص نفسي أنا عبد دولته وريب نعمته.

(٥) من قبل: أي قبل صدور الأمر إليه. جزم: بات وفاصل. والضمير في يادر يعود إلى المؤلف والملاحظ أنه يتحدث عن نفسه من هذه الجملة فصاعداً بضمير الغائب احتراماً لمن يخاطبه.

(٦) بادي الرأي: في أول الأمر.

(٧) النغمة: جرعة الماء القليلة. الأوام: العطش، الحائم: العطشان.

(٨) تنكب عنه عدل عنه وتجنبه واعتزله ولا منكبه وأقبل نحو غيره.

(٩) اشتهه الأمران ونشأها: تماثلاً حتى يصعب التفريق بينهما. وأشكل الأمر: صعب تبينه ومعرفة المقصود منه أو معرفة وجه الصواب فيه.

الإعراب والتصريف، وأورد في كل موضوع ما يطابقه من النظائر والأشباه نظماً ونثراً، وذكر ما يتضمنه من السير والأحداث فصلاً فصلاً، وأشار إلى ما ينطوي عليه من دقائق علم التوحيد والعدل^(١) إشارة خفيفة، ولوح^(٢) إلى ما يستدعي الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة، ورصعه^(٣) من المواعظ الزهدية والزواجر الدينية والحكم النفيسة والآداب الخلقية المناسبة لفقره والمشاكلة^(٤) لدرره والمنتظمة مع معانيه في سمط^(٥) والمتسقة مع جواهره في لظ^(٦) بما يهزأ بشنوف النضار^(٧)، ويخجل قطع الروض غب القطار^(٨)، وأوضح ما يومئ^(٩) إليه من المسائل الفقهية وبرهن على أن كثيراً من فصوله داخل في باب المعجزات المحمدية لاشتمالها على الأخبار الغيبية، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية... (١٠).

(١) يشير إلى علم أصول الدين على مذهب المعتزلة.

(٢) لوح إليه: أشار إليه إشارة عارضة خفيفة.

(٣) رصعه: زيته.

(٤) المشاكلة: المشابهة.

(٥) السمط: الخيط تجمع فيه الجواهر عقداً.

(٦) اللظ: القلادة من حب الحنظل المصبغ.

(٧) شنوف: القرط يعلق بالأذن. والنضار: خالص الذهب.

(٨) غب القطار: بعد المطر.

(٩) يومئ: يشير.

(١٠) شرح نهج البلاغة ج ١.

خاتمة

وهكذا يمكننا أن نخلص من المباحث والموضوعات المختلفة التي طرحناها في هذا الكتاب إلى نتائج هامة على صعيد الفكر، والاعتقاد، والأدب، والدور الكبير الذي أداه المعتزلة في تلك المجالات .

منها أن الخدمة الكبرى التي أداها المعتزلة إلى الفكر والحضارة الإسلامية تتمثل أولاً في أنهم أرسوا دعائم الثقافة، والتفكير العقلي والمنطقي في هذه الحضارة، فأسهموا من خلال ذلك في تطويرها، وإغنائها، وتوسيع مجالاتها وأفاقها، وذلك عبر تحديددهم للطريق الأمثل لمواجهة العقائد والديانات غير الإسلامية التي كانت تستخدم أساليب الجدل العقلي والمنطقي في مناقشة المسلمين، فما كان من المعتزلة إلا أن بادروا - بفضل الذكاء الذي تمتع به زعمائهم وشخصياتهم - إلى دراسة الثقافة اليونانية، وغيرها من الثقافات كالفارسية والهندية دراسة متعمقة متأنية مكنتهم من استيعاب، وهضم، وتمثل الأساليب والقواعد والأصول العقلية، والمنطقية، والفلسفية لدى تلك الثقافات والحضارات، وبالتالي استخدام تلك المعطيات العلمية في مناقشة ومناظرة أصحاب المعتقدات والديانات الأخرى، والدفاع عن العقيدة الإسلامية .

وهكذا فقد تأثر المعتزلة إلى حد كبير - من هذا الجانب - بالثقافات والحضارات الأجنبية وكان لهم قصب السبق - دون المذاهب والمدارس الأخرى - في مجال نقل التراث الأجنبي إلى الحضارة الإسلامية، والمواءمة بين ذلك التراث بمضامينه الفلسفية، والمنطقية، وبين الفكر الإسلامي بأصالته وخلوصه .

وفي مجال الأدب - الذي هو الموضوع الأصلي لهذا الكتاب - خرجنا إلى هذه النتيجة، وهي أن المعتزلة عكسوا بقوة ووضوح ثقافتهم العقلية على نتاجاتهم، وآثارهم، ومؤلفاتهم الأدبية فجاءت متميزة شكلاً ومضموناً عن نتاجات سائر الأدباء ممن لا يتمون إلى المذهب المعتزلي، فأسهموا من خلال العقلية التي تميزوا بها في إغناء الأدب العربي، وتنويع أغراضه، وموضوعاته، وإضفاء البعد العلمي والعقلي والمنطقي والفلسفي عليه دون أن تفقد نصوصهم الروح الأدبية والفنية، بل أن تأثيراتهم وإسهاماتهم في الأدب العربي بلغت درجة اعتبروا معها المؤسسين الأوائل لبعض علوم العربية وفي مقدمتها علوم

البلاغة بما تشتمل عليه من بيان، ومعانٍ، وبحوث ودراسات في أسرار الإعجاز البلاغى القرآنى .

وفى مجال الشعر الذى لم يرق - على أية حال - إلى مستوى النثر الذى قدمه المعتزلة توصلنا إلى هذه النتيجة، وهى أنهم كانوا فى طبيعة الذين أدخلوا الموضوعات العلمية والفلسفية إلى الشعر، ورغم أنهم لم يكونوا أول من سخر الشعر للدفاع عن العقيدة والمذهب، إلا أنهم كانوا يمتلكون لكمية لا بأس بها من الأشعار التى دافعوا بواسطتها دفاعاً مخلصاً وصادقاً عن مبادئ وأصول مذهبهم إزاء خصومهم وأعدائهم، كما لاحظنا ذلك فى أشعار (صفوان الأنصارى)^(١) .

وفى مجال الشعر أيضاً انعكست ذهنية المعتزلة الميالة إلى طرح وبحث الموضوعات الفلسفية والعقلية بوضوح على أشعارهم فاستخدموا فيها المصطلحات والتعبيرات الفلسفية والعقلية وطوعوها للغة الشعر، كما رأينا ذلك فى الأشعار التى رويت عن النظام .

وبعد؛

فتلك كانت - باختصار - أهم النتائج التى توصلنا إليها من دراستنا لفكر وأدب المعتزلة، علماً أننى لا أدعى أن هذه هى كل النتائج التى يمكن التوصل إليها بشأن أدب المعتزلة، فربما كانت هناك نتائج أخرى غابت عن أذهاننا، وغفلنا عنها، وعلى أية حال فإن الباب مفتوح، والآفاق واسعة أمام الباحثين المهتمين بدراسة الأدب المتأثر بالمذاهب والمدارس الفكرية والدينية، ومن بينها مدرسة المعتزلة التى تعتبر أهم وأخطر المدارس الفكرية التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى على الإطلاق، وأكثر تأثيراً على مسيرة الحضارة والفكر الإسلامى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) كان بودنا أن نترجم لهذا الشاعر فى الباب الثالث الذى خصصناه لترجمة شخصيات المعتزلة وشيوخهم فى الأدب، ولكن للأسف الشديد فإننا لم نجد أية ترجمة لحياة هذا الشاعر فى الكتب والمصادر الأدبية والتاريخية التى استندنا إليها فى تأليف هذا الكتاب سوى ما أورده له من أشعار فى الدفاع عن عقيدة الاعتزال ورجالها والتى أوردها الجاحظ فى كتابي الحيوان والبيان والتبيين .

المصادر والمراجع

- ١- ابن أبي الخثير، أحمد (١٣٥٠هـ. ق) شيراز نامه - تصحيح: بهمن كرمي - طهران.
- ٢- ابن الأثير، علي بن محمد (١٣٥٧هـ) اللباب في تهذيب الأنساب - مكتبة القدسي - القاهرة.
- ٣- ابن الأثير، علي بن محمد (بلا تاريخ) الكامل في التاريخ - تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤- ابن الجوزي، عبدالرحمن (١٤١٩هـ - ١٩٨٨م) مناقب الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي - دار هجر - بيروت.
- ٥- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (١٩٨٥م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - دار الشروق - بيروت.
- ٦- ابن حزم، علي بن أحمد (١٣١٧هـ) الفصل في الملل والنحل - تعليق: محمد بن عبدالكريم - الطبعة الأدبية - مصر.
- ٧- ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٨١م) مقدمة ابن خلدون - دار القلم - بيروت.
- ٨- ابن خلكان، شمس الدين أحمد (بلا تاريخ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: د/إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.
- ٩- ابن عساكر علي بن حسن (١٣٩٧-١٩٧٦م) تاريخ مدينة دمشق - تحقيق: شكري فيصل - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.
- ١٠- ابن قتيبة، عبدالله (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) الشعر والشعراء تحقيق: أحمد محمد شاكر - دار المعارف - مصر.
- ١١- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (١٩٧٣م) عيون الأخبار - دار الكتب - مصر.
- ١٢- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (بلا تاريخ) مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة - اختصره: الشيخ محمد بن الموصلي - تصحيح: زكريا علي يوسف - مطبعة الإمام - مصر.
- ١٣- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (١٩٨٩م) البداية والنهاية - دار إحياء التراث - بيروت.
- ١٤- ابن المرتضى، أحمد (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) المنية والأمل في شرح الملل والنحل - تحقيق: د/ محمد جواد مشكور - دار الفكر.
- ١٥- ابن المرتضى، أحمد (بلا تاريخ) كتاب طبقات المعتزلة - تحقيق: سوسنة ديفلد، فلرز - دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ١٦- ابن المعتز، عبدالله (بلا تاريخ) طبقات الشعراء - دار المعارف - مصر.
- ١٧- ابن منظور، محمد (بلا تاريخ) لسان العرب - دار صادر - بيروت.
- ١٨- ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب (١٣٥٠-١٩٧١م) الفهرست تحقيق: رضا تجدد طهران - انتشارات دانشگاه طهران.
- ١٩- أبو ريحان بيروني، محمد بن أحمد (١٩٨٣م) تحقيق ما للهند (عالم الكتب) بيروت.
- ٢٠- أبو الفداء، إسماعيل علي - تاريخ أبي الفداء (١٢٨٦هـ) إيران.
- ٢١- أبو ملحم، علي (١٩٨٧م) رسائل الجاحظ = دار مكتبة الهلال - بيروت.
- ٢٢- الأشعري، علي (١٤٠٥-١٩٨٥م) مقالات الإسلاميين - تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد - دار الحدائق.

- ٢٣- الأشعري، علي بن اسماعيل (١٩٩٠م) الإبانة عن أصول الديانة - تحقيق: بشير محمد عبون - مكتبة دار البيان - دمشق.
- ٢٤- الأصبهاني، حسين (١٩٨٠م) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - دار الحقائق - بيروت.
- ٢٥- الأصبهاني، علي بن الحسين (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) الأغاني - شرحه وكتب هوامشه: عبد الله علي مهنا، سمير جابر - لبنان.
- ٢٦- أمين، أحمد (١٩٦٤م) فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.
- ٢٧- أمين أحمد (١٩٣٦م) ضحى الإسلام - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٢٨- الأميني، عبدالحسين (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) الغدير في الكتاب والسنة والأدب - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٢٩- بدوي، عبدالرحمن (١٩٦٥م) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - دراسة كبار المستشرقين - دار النهضة العربية - القاهرة.
- ٣٠- بروكلمان، كارل (١٩٨٤م) تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة: بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت.
- ٣١- بروكلمان، كارل (١٩٧٥م) تاريخ الأدب العربي - ترجمة: عبدالحليم نجار - دار المعارف مصر.
- ٣٢- البشاري المقدسي. محمد (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - تحقيق: د/ محمد مخزوم - دار التراث العربي - بيروت.
- ٣٣- البغدادي، عبدالقادر (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم - بيروت.
- ٣٤- التوحيدى، علي (أبو حيان) (١٣٦٦هـ - ١٩٨٧) ش - ١٩٨٧ (المقابسات) تحقيق وتقديم: محمد توفيق حسين - مركز نشر دانشگاه - طهران.
- ٣٥- التوحيدى، علي بن محمد (١٩٤٤م) البصائر والذخائر - تحقيق: إبراهيم الكيلاني - مطبعة الإنشاء - دمشق.
- ٣٦- التوحيدى، علي بن محمد (١٩٤٤م) الإمتاع والمؤانسة - تحقيق: أحمد أمين - القاهرة.
- ٣٧- التوحيدى، علي بن محمد (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين) صاحب بن عباد وابن العميد) تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي - بيروت.
- ٣٨- التوحيدى، علي بن محمد (١٩٦٤م) رسالة الصداقة والصديق - تحقيق وتعليق: د. إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق.
- ٣٩- الشعالي، عبد الملك (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - شرح وتحقيق: د/ مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤٠- الجاحظ (عمرو بن بحر) - بلا تاريخ نشر - البلاء - تحقيق وتعليق: طه الحاجري - دار المعارف - مصر.
- ٤١- الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٨٦م) كتاب الحيوان، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون - دار ومكتبة الهلال - بيروت.
- ٤٢- الجاحظ، عمرو بن بحر (بلا تاريخ) البيان والتبيين - تحقيق وتقديم: فوزى عطوى - لبنان.
- ٤٣- جار الله، زهرى (١٩٩٠م) المعتزلة - المؤسسة العربية - بيروت.

- ٤٤- جبر، جميل (١٩٥٩م) الجاحظ في حياته وأدبه وفكره - دار الكتاب اللبناني - لبنان
- ٤٥ - الجهشياري، محمد بن عبدوس، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م - الوزراء والكتاب - تحقيق: مصطفى السقا - مصطفى الباي - القاهرة.
- ٤٦- جولد تسيهر، ايجناتس (١٩٤٦م) العقيدة والشريعة في الإسلام - تحقيق محمد يوسف موسى (دار الرائد العربي - بيروت).
- ٤٧- الحاجري، طه (بلا تاريخ) الجاحظ حياته وآثاره - دار المعارف - مصر.
- ٤٨- حتى، فيليب (وادوارد جرجي وجبرائيل جيور) (١٩٨٦م) تاريخ العرب - دار غندور.
- ٤٩- حسين، طه (١٩٥٧م) من حديث الشعر والنثر - دار المعارف - مصر.
- ٥٠- الحصري، إبراهيم بن علي (١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م) زهر الآداب وثمر الألباب - مطبعة السعادة - مصر.
- ٥١- الحموي، ياقوت (بلا تاريخ) معجم الأدباء - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٥٢- الحنبلي، عبدالحى (١٣٥١هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مكتبة القدسي - القاهرة.
- ٥٣- الحوفى، أحمد (بلا تاريخ نشر) أبو حيان التوحيدى - مكتبة نهضة مصر.
- ٥٤- الخطيب البغدادي - أحمد بن علي (بلا تاريخ) تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥٥- الخوارزمي، أبو بكر (١٢٧٩هـ) رسائل الخوارزمي - استانبول.
- ٥٦- الخوانساري، محمد بن باقر (١٣٩٠) - روضات الجنات - دار الكتب العربية - بيروت.
- ٥٧- الحياط، عبدالرحيم (بلا تاريخ) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد/ تقديم ومراجعة: محمد حجازي - القاهرة.
- ٥٨- دى بور، ت. ج (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م) تاريخ الفلسفة في الإسلام - ترجمة وتعليق: عبدالهادى أبو ريذة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
- ٥٩- الذهبى، محمد بن أحمد (١٩٦٣م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال - عيسى الباي - مصر.
- ٦٠- رفاعى، أحمد (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) عصر المأمون - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.
- ٦١- الروذراورى، محمد بن الحسين (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) ذيل كتاب تجارب الأمم - القاهرة.
- ٦٢- الزركلى، خير الدين (١٣٩٠هـ - ١٩٦٩م) الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين - بيروت.
- ٦٣- الزمخشري، محمود بن عمر (١٣١٤هـ) أطواق الذهب في المواعظ والخطب - شرح: الشيخ يوسف أفندى الأسير - بيروت.
- ٦٤- الزمخشري، محمود بن عمر (بلا تاريخ نشر) أساس البلاغة - تحقيق: عبدالرحيم محمود - بلا اسم ناشر.
- ٦٥- الزمخشري، محمود (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٦٦- السبكي، عبد الوهاب (١٤١٣هـ - ٢٩٩٢م) طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق: د. عبدالفتاح محمد الحلو، د. محمود محمد الطناحي - هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

- ٦٧- السمعاني عبدالكريم (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) الأنساب - تحقيق: عبدالله عمر الباروجي - دار الجنان بيروت .
- ٦٨- السندوبي، حسن (١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م) أدب الجاحظ - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
- ٦٩- السيوطي، جلال الدين (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة عيسى البابي الحلبي .
- ٧٠- الشهرستاني، محمد (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) الملل والنحل - تحقيق: محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت .
- ٧١- الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (١٩٣٤ م) نهاية الأقدام في علم الكلام - باريس .
- ٧٢- الشيباني (ابن الأثير) علي (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت .
- ٧٣- الصالح، صالح علي (بلا تاريخ) الروضة المختارة - منشورات الشريف الرضي .
- ٧٤- الصدر، محمد باقر (١٤٠٢ هـ) بحث حول الولاية - مكتبة النجاح - طهران .
- ٧٥- الصفدي، خليل (١٩٩٣ م) الوافي بالوفيات - وزارة الأبحاث العلمية، بيروت .
- ٧٦- صفوت، أحمد زكي (١٩٦٢ م) جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة - عيسى البابي الحلبي - القاهرة .
- ٧٧- الصنعاني، يوسف (نسخة خطية) نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر - مكتبة دار المعارف الإسلامية - طهران .
- ٧٨- ضيف، شوقي (١٩٧١ م) الفن ومذاهبه في النثر العربي - دار المعارف - مصر .
- ٧٩- ضيف، شوقي (بلا تاريخ) البلاغة تطور وتاريخ - دار المعارف - مصر .
- ٨٠- الظاهري، علي (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني - بيروت .
- ٨١- الطبري، محمد بن جرير (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩) تاريخ الأمم والملوك - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
- ٨٢- العسقلاني، شهاب الدين (بلا تاريخ) لسان الميزان - دار الفكر .
- ٨٣- العسكري، الحسن (١٣٧١ هـ - ١٩٥٢) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية - مصر .
- ٨٤- غريال، محمد شفيق (١٩٦٥ م) الموسوعة العربية المسيرة - دار الشعب - القاهرة .
- ٨٥- الغزالي، محمد (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م) الاقتصاد في الاعتقاد - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٨٦- الغزالي، محمد بن محمد (١٣٢٢ هـ) المستصفي من علم الأصول - المطبعة الأميرية - مصر .
- ٨٧- فروخ، عمر (١٩٨٩) تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت .
- ٨٨- الفندي، محمد ثابت (وأحمد الشتاوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد بونس) (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) دائرة المعارف الإسلامية - مراجعة: محمد أحمد جاد المولى بك - مصر .
- ٨٩- القسبرواني، إبراهيم بن علي (١٣٧٢ - ١٩٥٣ م) زهر الآداب وثمر الألباب - مطبعة السعادة - مصر .
- ٩٠- المالكي، أحمد (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) نفع الطيب - تحقيق: أحمد فريد رفاعي - مصر .
- ٩١- المبرد، محمد بن يزيد (١٩٥١ م) الكامل في اللغة والأدب - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة .

- ٩٢- منز، آدم (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
- ٩٣- المدائني، عز الدين (ابن أبي الحديد) (١٣٨٥ - ١٩٦٥م) - شرح نهج البلاغة - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت .
- ٩٤- المدائني، عز الدين (ابن أبي الحديد) (١٣٧٤هـ - ١٩٩٥) القصائد السبع العلويات - شرح : العلامة السيد محمد صاحب المدارك - دار الفكر - بيروت .
- ٩٥ - المرتضى (الحسيني)، علي بن الطاهر (١٤٠٣هـ) أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب - تحقيق : السيد محمد بدر النعماني الحلبي .
- ٩٦- المسعودي، علي (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- ٩٧- المشرق - الخوري قسطنطين باشا الراهب - (مقال عن ثيودور أبي قرة) - المشرق - بيروت .
- ٩٨- المصري (ابن نباته) جمال الدين (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة .
- ٩٩- المقرئ، أحمد (بلا تاريخ النشر) الخطط القرظية - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - دار إحياء العلوم - لبنان .
- ١٠٠- المنقري، نصر بن مزاحم (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) وقعة صفين - تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون - القاهرة .
- ١٠١- نيكلسون، رينولد. أ (١٩٦٧م) تاريخ الأدب العباسي - ترجمة : صفاء خلوصي - المكتبة الأهلية - بغداد .
- ١٠٢- النسائي، أحمد (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠) سنن النسائي بشرح المحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي - دار الفكر - بيروت .
- ١٠٣- كبرى زاده، أحمد بن مصطفى (١٩٨٥م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - بيروت .
- ١٠٤- كرد علي، محمد (١٣٥٥هـ - ١٩٤٧) أمراء البيان - مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة .
- ١٠٥- هارون، عبدالسلام (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) رسائل الجاحظ - مكتبة الخانجي - مصر .
- ١٠٦- هارون، عبدالسلام (١٩٧٣م) نوادر المخطوطات - مصطفى البابي الحلبي - مصدر .
- ١٠٧- اليافعي، عبدالله (١٣٩٠هـ - ١٩٨٤م) مرآة الجنان - مؤسسة الأعلمي - بيروت .
- ١٠٨- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م) تاريخ اليعقوبي - بيروت .

المراجع الأجنبية

- 1 - Arnold, T.w., 1924, The Caliphate, Oxford.
- 2 - Den, O.M., 1953, Shortes Encyclopedia of Islam, Leiden.
- 3 - Gimaret, D, 1993 Encyclopedia of Islam (Mutazila), Leiden, Newyork.
- 4 - Hamilton, A.R, 1955 Mohammedanism, Clarendon press, Oxford.
- 5 - Macdonald, Duncam B., 1960 Developement of Muslim theology, Jurispudence and costitutional theory, The premier book house, Pakistan, Lahore.
- 6 - Mc Giffert, A.C., 1056, A Hastory of christian, Early and Eastern.
- 7 - Nicholson, Reynold Alleyne, 1953, Aliterary history of the Arabs, Cambridge university press.
- 8 - Runicman, steven, 1932, Byzantine civlization, Cambridge.
- 9 - Schact, Joseph, 1953, The origins of Mohammadin Jurispudence, Oxford.
- 10- Weber, A.N., 1982, History of philosophy, New York.
- 11- Zettersteen, K.V., 1987, first Encyclopaedia of Islam John of Demascus, Leiden, New-York.

الفهرس

صفحة	
٥	مقدمة.....
١٣	تاريخ المعتزلة.....
١٨	نشأة المعتزلة.....
٢٠	أثر المعتزلة فى الفكر الإسلامى.....
٢٧	المعتزلة فى عصر المأمون.....
٣٤	تأثير الديانات والمعتقدات غير الاسلاميه على المعتزلة.....
٤٢	مبادئ مذهب الاعتزال وأصوله.....
٤٦	الاعتزال فى الأدب العربى.....
٥٠	دور المعتزلة فى ظهور علوم البلاغة وتطورها.....
٨٤	شيوخ الأدباء المعتزلة.....
٨٤	عمرو بن عبید ٨٠ - ١٤٤ هـ.....
٨٦	واصل بن عطاء ٨٠ - ١٨١ هـ.....
٩٠	بشر بن معتمر الهلالي ت ٢١٠ هـ.....
٩٥	كلثوم بن عمرو العتابي ت ٢٢٠ هـ.....
٩٧	إبراهيم بن سيار النظام ت ٢٣١ هـ.....
١٠١	أبو الهذيل العلاف ١٣١ - ٢٣٥ هـ.....
١٠٣	القاضى أحمد بن أبى داؤد الأيادى ١٦٠ - ٢٤٠ هـ.....
١٠٥	الجاحظ ١٥٩ - ٢٥٥ هـ.....
١٢٠	أبو على الجبائى ٢٣٥ - ٣٠٣ هـ.....
١٢١	الرماني ٢٩٦ - ٣٨٤ هـ.....
١٢٢	الصاحب بن عباد ٣٢٦ - ٣٨٥ هـ.....
١٢٤	أبو حيان التوحيدى ٣٢٠ - ٤١٤ هـ.....

١٣٣	القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ
١٣٣	الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ
١٣٩	ابن أبي الحديد ٥٨٦ - ٦٥٦ هـ
١٤٥	كتاب شرح نهج البلاغة وقيمه الأدبية
١٤٩	خاتمة
١٥١	المصادر والمراجع
١٥٦	المراجع الأجنبية
١٥٧	الفهرس والمحتويات